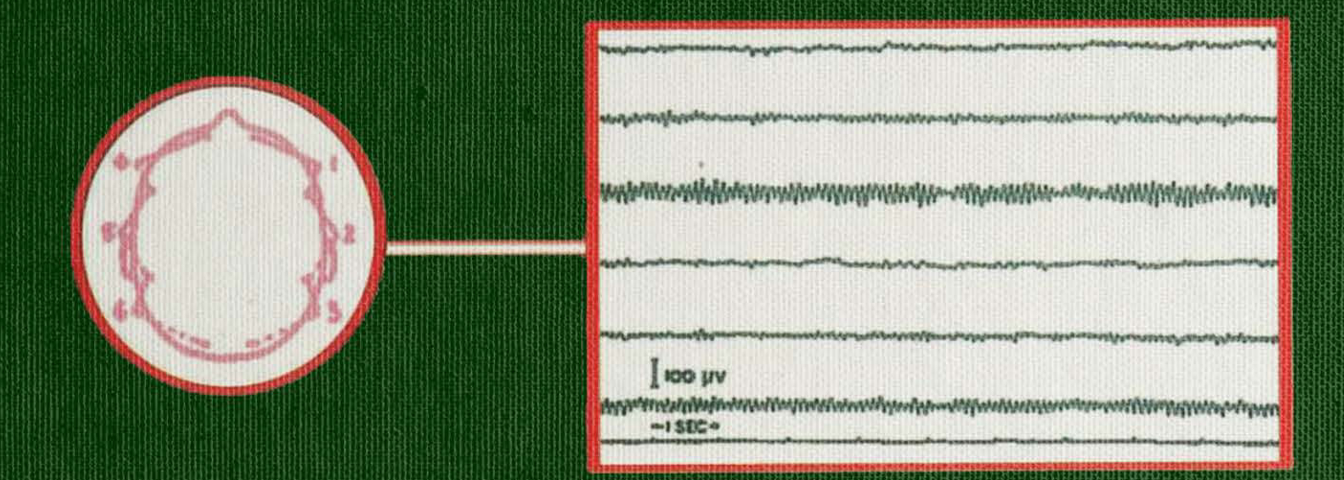
بهذا ألقى الله

رسالة إلى العقل العربي المسلم

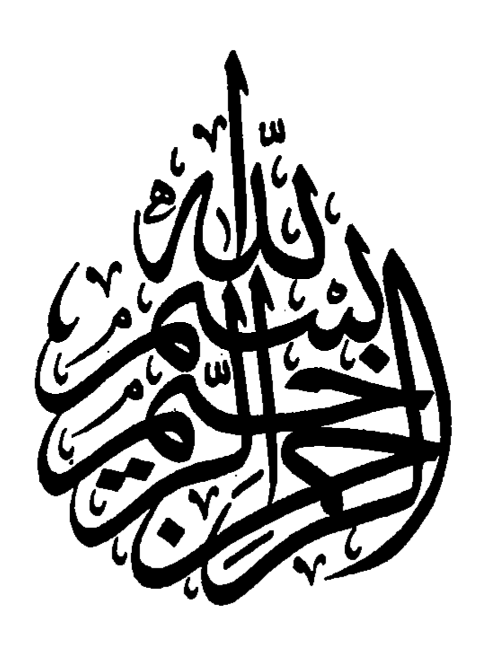
فاضلا

تقديم الدكتور

مصطفى محمود



الدكتور حسان حتحوت


بسم الله الرحمن الرحيم



الدكتور حسّان حتحوت

تقديم

الدكتور مصطفى محمود

الفهـــرس

رقم الصفحة

المقدمة

اللهم اهدنا واهد بنا ..
واجعل سعينا خالصا لك ..
اللهم هون علينا البقاء في الدنيا
وهون علينا الخروج منها
واجعل خير أيامنا يوم لقائك

عبدك الفقير إليك
حسان حتحوت

هذا الكتاب

بقلم:

الدكتور مصطفى محمود

هذا الكتاب

بقلم: د. مصطفى محمود

الدكتور حسان حتحوت مفكر إسلامي عظيم، إذا استمعت إليه فأنت تستمع إلى بحر، فهو طبيب، وعالم، ورحالة خاض الحياة، حلوها ومرها، وخبر المجتمعات، وعاشر الناس خيارهم وشرارهم، وامتلأ بالحكمة، وفاضت حكمته نبضا حياً على الورق، وتجربة يفيد منها كل من يقرأها.

وهو يقول: إن الدعوة إلى الإسلام ليست خطابة، وليست طنطنة في ميكروفونات.. وإنما هي أعمال وفضائل، وقدوة تقدح شرارة في النفوس المظلمة فتضيء وتحيا وتنظر من جديد وكأنها ترى الدنيا لأول مرة.

ويقول: إن المسلمين ضيقوا الإسلام، فجعلوا منه لحية وحجاباً.. وضيقوا الشريعة، فجعلوا منها قانون عقوبات.. لم يفهموا أن الشريعة في حقيقتها رحمة قبل أن تكون عقابا، وأنها تصنع الضمير قبل أن تنزل العقاب، وتصنع خوف الله الذي يحفظ المسلم من نفسه، وليس خوف الحدود ولا خوف الجلاد.

الإسلام وعي داخلي يصون صاحبه، وبصيرة نيرة تحكم سلوكه.

وهو يقول أنا من أنصار الحجاب، ولكنني لا أجعل من الحجاب كل الإسلام، من ارتدته دخلت الإسلام ومن خلعته خرجت من الإسلام.. وهو يرى أن هذا تبسيط ساذج وتلخيص فج للإسلام.. فرب امرأة تضع الحجاب، وتغتاب الناس، وتغش في معاملاتها.. وأفضل منها بلا شك امرأة سافرة تعيش حياتها في عفة وصدق وأمانة.. ويروي لنا ما حدث أثناء مأساة البوسنة والهرسك عندما تفشى الجوع والقتل والاغتصاب وانتهاك الأعراض.. وأرادت جماعة من السيدات الفضليات في بلد عربي مسلم أن يمددن يد المساعدة.. فماذا كانت المساعدة؟؟ كمية كبيرة من الأحجبة (جمع حجاب).. إذ لا يجوز أن تكون نساء البوسنة غير محجبات.

ويرد حسان على الأوروبي الذي يدعى أن الإسلام ضيق على المرأة وانتقص من حقوقها . . ويقول كيف وقد أعطاها حق الميراث وحق الذمة المالية المستقلة .؟ كيف وقد هاجرت المرأة المسلمة مع المهاجرين وجاهدت مع المجاهدين ،وقاتلت مع المقاتلين (نسيبة بنت كعب قاتلت في أحد) ؟ كيف وقد اعترضت امرأة على عمر بن الخطاب وهو فوق المنبر فقال عمر . . أصابت امرأة وأخطأ عمر ؟ كيف وقد أنشدت الخنساء الشعر أمام النبي عليه الصلاة والسلام ، فلم يقل لها . . صوتك عورة . . بل قال لها «هيه يا خناس» . . أي زيدينا شعرا ؟ وهذه هي المرأة المسلمة وهذا هو الإسلام .

ولو أننا وضعنا الحجاب قسرا على وجه امرأة لما أضفنا إلى الإسلام إلا منافقة .

وعن ختان البنات يقول الدكتور حسان : «إنها عادة قديمة لا علاقة لها بالإسلام . . وقد اكتشفت في أثناء عملي كطبيب أمراض نساء عددا من نساء الحبشة المسيحيات مختونات . . ولو كانت تلك العادة من الإسلام لكان أولى بها أهل نجد وأهل الحجاز» . . وفي نظر الدكتور حسان الخطيئة الأولى في الإسلام . . هي الكبر الإبليسي . . حينما قال إبليس لربه عن آدم . . أنا خير منه . . خلقتني من نار وخلقته من طين . . وليس الأكل من الشجرة . . وهو فهم عميق للعقيدة الإسلامية . . فالكبر هو أبو الخطايا . . ولا يدخل الجنة من في قلبه ذرة من كبر . . بل إن الأكل من الشجرة كان مطاوعة لشهوة الأنا . . ففيه الإحساس بالذات الأمارة الإبليسية . . فهو من نسل الخطيئة الإبليسية .

وعن محاولة إسرائيل والغرب دمغ الإسلام بالتعصب . . والإيقاع بين مسلمي ونصارى مصر ، يقول د . حسان لهؤلاء الغربيين : «لم يحدث عندنا ما حدث عندكم في مذبحة باريس التي ذبح فيها الكاثوليك أربعين ألفا من البروتستانت» .

وكيف نتهم نحن بالتعصب وفي قرآننا يقول لنا ربنا : «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن» .

وفي تاريخنا حينما دخل عمر منتصرا إلى كنيسة القدس لم يصل فيها . . بل صلى خارجها . . حتى تُحترم الكنائس ولا يصلى فيها إلا أصحابها . . وهو الذي أعطى الرهبان الأمان في صوامعهم أثناء الحروب .

وعما يُشاع في الغرب عن الإرهاب الإسلامي يقول د .حسان : بل هو إرهاب إسرائيلي في أصله ومنبعه وتاريخه . . فهكذا بدأت إسرائيل . . عصابات إرهابية من أيام الهاجناه والأشترن والأرجون زفاي ليومي . . واليهودي يوري لبراني مستشار بيجن هو القائل : سوف نظل نقاتل حتى نحول العرب إلى شعب من الحطابين وجرسونات المطاعم .

والحل في نظر الدكتور حسان هو حل نفسي أولا . . ألا نقبل الهزيمة في داخل نفوسنا مهما حدث . . فلا تنهزم قلوبنا . . وأن نثق بنصر الله . . وهو القائل . . إن الله يدافع عن الذين آمنوا . . وهو القائل . . وكان حقا علينا نصر المؤمنين .

وعلينا بهذا أن نكون مؤمنين أولا فلا نُفرغ القضية من محتواها الإسلامي ، ثم نعود فنفرغها من محتواها العربي . . فلا يبقى منها إلا قضية فلسطينية . . فنحاول أن نركب القطار في العربة السبنسة الأخيرة . بعد أن نكون قد خسرنا أنفسنا وخسرنا كل شيء .

ويرى الدكتور حسان إن الحريات في الأمة العربية هي جهاز المناعة في جسمها ، وبدون هذه المناعة تموت غريقة في خلافاتها وانقسامها .

وهو يرى أن أمريكا هي ظهير إسرائيل في محاربتنا . . وأن أمريكا لها مصالح . . ولابد أن تشعر أنها مهددة في مصالحها . . ويسأل : ماذا لو امتنع مسلمو العالم عن تدخين السيجارة الأمريكية وشرب الكوكاكولا الأمريكية . . ولبس الجينز الأمريكي ، وأكل المكدونالد والكنتاكي والهامبورجر . . ويقول : لقد فعلها غاندي من قبل وخرجت إنجلترا من الهند .

ثم السوق العربية المشتركة . . أين هي ومتى تقوم؟ ! ! ثم الفضائيات العربية التي تبث برامجها للشعب الأمريكي . . أين صوتها السياسي؟ وأين برامجها السياسية المنتقاة التي تخاطب بها المواطن الأمريكي بلغته . . وأمريكا دولة مفتوحة لكل أنواع المعارضة .

ويقول د . حسان : إن دول العالم المتقدم قد رسمت تصورا للقرن الواحد والعشرين على غرار مزرعة هم أصحابها وأسيادها والباقون بهائم ومواش ودواجن وأجراء للفلاحة وعبيد أرض في زمن إقطاع .

هذا هو التحدي . . فهل نحن له ؟

وهذا هو الدكتور حسان . . وبعض ما في كتابه القيم .

إنه يحاول أن يُخرج الإسلام من الشرنقة التي سجنه فيها المذهبيون المتعصبون ، ويطلقه حرا يتفاعل بانفتاح وعمق ليبوح بكنوزه وأسراره في عصر العولمة ، وعصر تطاحن المصالح وعصر الصراع العربي الإسرائيلي .

ويحلم ونحلم معه بيوم يجتمع فيه المسلمون والعرب على وقفة رجل أمام المذبحة التي تدبر لمحوهم ومحو ديانتهم من الأرض .

وأهلا بالدكتور حسان حتحوت وأهلا بكتابه . .

د . مصطفى محمود

* * *

المفتاح

المفتــاح

أبحث عن ورثة . .

وليست تركتي مالاً أو عقاراً أو صناعة أو تجارة أو غير ذلك من حطام الدنيا ! ! ولست أنعي على من عنده من ذلك نصيب ، فالله يرزق من يشاء بغير حساب ، ونعم المال الصالح للعبد الصالح .

لكن الذي أهمني بشأن تركتي أنها ليست من التركات التي تبقى بعد صاحبها ، لأنها تموت بموتي ، وتنقضي بانقضائي ، فلا يعود إلى الانتفاع بها من سبيل .

تركتي أفكار وخبرات وتجارب نضجت بهدوء على مدى حياة حافلة ، أحمد الله سبحانه وتعالى عليها ، لم يكن فيها مجال للملل ، ولم يكن للعبث فيها مجال ! ويمد الناس يدهم ليأخذوا وأمد يدي لأعطي ، لكن بشرط أن أورث قبل أن أموت ، فهل من وارث؟ !

ولدت في بلدة شبين الكوم في دلتا النيل بمصر . نشأة الريف وسماحته وطيبته ، الصفصافة التي أسدلت فروعها في مياه بحر شبين ، وكأنها عروس حلت ذوائبها الطوال . والساقية والنورج والحقول المعطاء الخضراء ، وبحر شبين الذي كنت أظنه أكبر حاجز مائي ، رغم أنه كان يجف في الشتاء فنعبره سيراً على قاعه ، حتى انتقلنا إلى القاهرة ، فرأيت النيل أكبر ، وزرت الإسكندرية ، فرأيت البحر أكبر وأكبر ، ومازال الأفق ينداح أمامي طول الحياة .

الوالد شاعر رقيق وأديب ضليع ، وفيلسوف هادئ ، لم تستطع سراء ولا ضراء أن تمثل له الدنيا بأكبر من حجمها ، ومخزون لا ينفد من سرعة البديهة وحلاوة النكتة ، وبهجة المحضر ، حتى كانت الناس تجتمع على محضره كالفراش .

والوالدة شعلة لاهبة من الوطنية ، أسهمت في الجهاد للوطن ، وكانت أول من قاد مظاهرة نسائية في بلدتنا المحافظة المتواضعة ، احتجاجاً على الاحتلال الإنجليزي ، خرجت من المسجد العباسي ، وسارت إلى كنيسة الأقباط ، ولما تزوجت وأنجبت أرضعت ولديها وغذتهما حب الله وحب الوطن .

ووفقني الله في دراستي وحصلت ما جعلني أستاذا ورئيس قسم في مادة تخصصي .

وتزوجت من اخترتها على نساء العالمين وقررت أن أتزوجها أول مرة أراها فيها وأبلغتها بهذا القرار .

وفقدت ابنتي الأولى في حادث سيارة فلما قرأت البرقية قلت على الفور : «اللهم إني أعلم أنك تنظر إلي وملائكتك . . اللهم إني أعلم أنك تختبرني فأرجوأن أنجح في الاختبار . اللهم إني أعلم أن الناس تستوي بعد سنة ولكن الاختبار في الوهلة الأولى . اللهم إن كنت رضيت لي هذا فإني رضيت ، إني رضيت . إني رضيت . اللهم إنها كانت وديعتك لدينا فأصبحت وديعتنا لديك» .

وشهدت حربا فشهدت قسوة الإنسان على الإنسان . وأحسست الموت يمر على مسافة سنتيمترات مني في زخات الرصاص ، فعلمت ألا يصيبني إلا ما كتب الله لي . وعهد إلي بجرحى من أسرى العدو فعاملتهم أكرم معاملة .

وأفضت بي الحرب إلى المعتقل فاستغربت أن يكون هذا هو الجزاء ، وتعلمت أن ظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند ، وفيما بكى أحبابي لما رأوا القيد في يدي صاحت بي أمي : «هذا الذي الذي في يدك وسام يا حسان !» .

وأصاب معدتي مرض خبيث فلم أقل ولماذا أنا ! فمن الأنانية أن تطالعه في الناس بهدوء فإذا أصابك جزعت . ! وجاء شبح الموت فقلت ومن ذا الذي لا يموت وسبحان الحي الذي لا يموت ! ! وماذا عليّ لو وصلت إلى الشاطئ ونعمت في أكرم جوار .

وأخذت العلاج فاشتدت علي وطأته فقلت لا بد أن أدفع البأس بالبأس فألّفت كتابا بالانجليزية اسمه «قراءة العقل المسلم» ، ونجح الكتاب كوسيلة دعوة تطلع غير المسلمين (والمسلمين) على الوجه الحقيقي للإسلام .

وزال المرض والحمد لله إلا أن العلاج ترك بصمته على قلبي ، لكن ما دام ينبض فالحياة مستمرة والجهاد قائم فقد قررت ألا أموت قبل أن أموت .

وتوافر لي في حياتي ما لا يتوافر للكثيرين من معلمين ومرشدين ونماذج ناصعة ، في الإيمان والمثالية الطيبة ونقاء القلب وخدمة الناس ، رحمهم الله جميعا .

وعشت في الكويت فترة طويلة . وللكويت عليّ يد لا تنسى ، ليست الوظيفة وليس المرتب فكان في وسعي مثل ذلك وأزيد ، ولكن في وقفة وفاء لم يعلم بها إلا الأقلون من رجال الكويت ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا .

وعوضني الله خيرا كثيرا وكان فضل الله عليّ عظيما .

والذي صاحبني طول حياتي حبي للإسلام أحمل اسمه وأحمل همه وأعمل له . ودلتني زياراتي على أن للإسلام في أمريكا فرصة حقيقية وتاريخية ، إن ضيعناها فهى شيمتنا وما أكثر ما ضيعنا . وإن انتهزناها فربما أفضى ذلك إلى منعطف تاريخي يفيد أمريكا ويفيد العالم ويفيد المسلمين وقضايا المسلمين .

فاستقلت من عملي بالكويت وسافرت لأمريكا وطويت سجل العمل الطبي (الذي عشقته ولا أزال) ، وقلت أقصر شريحة من عمري على خدمة الإسلام ، وأنتهزها فرصة في زمن الاستطاعة ، وأربعون سنة من الطب إسهام واف والحمد لله .

وأفضل خدمة للإسلام في أمريكا (وفي غيرها من البلاد مسلمة أم غير مسلمة) هو أن يعيشه الإنسان بإخلاص ويحسن عرضه على الناس .

وأحببت أمريكا وإن كان بها فساد كبير ، على مستوى الأخلاق وعلى مستوى السياسة . لكنها تتيح قسطا من الحرية في خدمة الإسلام لا يتوافر في أكثر بلاد المسلمين . وحيث تكون الحرية (حرية الصلاح والفساد) فالإسلام هو الرابح على المدى البعيد ، وحين تغيب الحرية فالإسلام أول خاسر وأكبر خاسر .

وأطالع الإسلام على خريطة العالم فأطالع ما يسر وما يسوء . وأتأمل أحوال المنتسبين إلى الإسلام فأجد فيهم من يخدم الإسلام وأجد منهم من يؤذيه .

وقديما هشت الدبة الذبابة عن وجه صاحبها بحجر . وربما رأيت من يرفع العقيرة

حماسا لكن وقود حركته الكره والبغض وربما طال أذاه الأبرياء بل قتل الأطفال والنساء . . وهو يحسب ذلك جهادا وما هو بجهاد . . **«قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا»** (الكهف : ١٠٤) .

والظاهر حقا أن عدوا عاقلا خير من صديق جاهل . وبين الفضائل المحسوبة على الإسلام الآن من أصبحت بصدق أخاف أن يصلوا إلى الحكم أو يتقلدوا السلطة .

نقول إننا نعيش عصر الصحوة الإسلامية ، لكن الحاجة ماسة إلى تعليم وترشيد قويين . وإسهاما ـ متواضعا ـ في هذا السبيل كان هذا الكتاب . أكتبه وأنا على قمة عمر جاوز السبعين ، وتمرس كبير بقضية الإسلام في الشرق والغرب . . وعقل أرجو القارئ ألا يسيء الظن به ، وقلب من يعرفه لا يشك في إخلاصه . ولعله إضافة إلى جهود رجال مؤمنين وأساتذة علماء ودعاة هداة نذروا أنفسهم لخدمة الإسلام والذود عنه من الداخل والخارج ، ولا يخالجني ريب في أن جهودهم ستكلل بالنجاح ، وأن العاقبة للتقوى ، وأن الله سيلهمهم حسن الإجابة يوم ينشر الحساب ويقول الله أعطيتكم الإسلام فماذا فعلتم به وماذا فعلتم له .

ولقد جعلته أبوابا كل منها يتناول موضوعا مما يشغل المسلمين اليوم أو ينبغي أن يشغلهم ، انتقاءً لا استقصاء ، ومثلا لا حصرا ، ولقد كانت فلسفتي في التعليم دائما أنه قدح شرارة لا ملء وعاء .

ولقد يضيق الصدر أحيانا بوعورة الطريق وانتكاس المسار ، لكن الحصيلة والحمدلله تقدم ملموس في مسيرة الإسلام ، ومؤشرات ومبشرات بأن الله يغفر ما فات ويصلح ما بقى إن شاء الله .

وعلى زمان النبي عليه الصلاة والسلام كان يخطب الجموع بغير مكروفون أو

مذياع فيدعو الله قائلا : «اللهم أسمع عن عبدك» .

وهو هو دعائي وأنا أطرح هذا الكتاب على الناس : اللهم أسمع عن عبدك .

أقدمه نافذة على مخي ، ووصية لمن بعدي ، وتركة يأخذ منها من يشاء ما شاء .

والحمد لله رب العالمين .

حسان حتحوت

101 N Grand Ave., Apt. 2
Pasadena,
California 91103
U S A

واجب الوجود

واجب الوجود

ولا بد أن نبدأ من البداية . .

وإلا كنا كمن راح يبني بيتا ولكنه لم يحفر الأرض ليضع الأساس . . وكثير ما هم .

سألت حفيدتي هل تؤمنين بوجود الله؟ ردت على الفور : بالتأكيد .

لكنها التقطت نفسا أو نفسين ثم عقبت : هكذا تقول ماما !

تناولت واحدا من كتبها الصغيرة وسألتها من كتب هذا الكتاب . . قرأت لي اسم المؤلف على صفحة الغلاف . قلت لها وأنا أحاورها فهبي أنني أزلت تلك الصفحة وزعمت لك أن هذا الكتاب قد كتب نفسه بنفسه هكذا بدون أن يؤلفه مؤلف فماذا يكون قولك؟ قالت محال لا يكون . قلت فإذا كان الكتاب دليلا على وجود كاتب فإن الخليقة دليل على وجود ماذا؟

قالت : على وجود خالق !

منطق صريح وبسيط . ولكنه قوي ومقنع .

على غراره - ولا بد - فكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام فيما عبر عنه القرآن الكريم بقول الله تعالى : **﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾** (الأنعام : ٧٥ - ٧٩) .

وعلى عادة القرآن تعبر الآيات بكلمات قليلة عما وراءها من معان كثيرة . فلو أن القصد هو مجرد رؤية النجم والقمر والشمس لما كان الأمر غريبا على إبراهيم فهو

والناس جميعا يرونها كل يوم طول حياتهم وليس فيها من مفاجأة لهم . لكن قول الله عـز وجل «نري إبراهيم» ناسبا الفعل إلى ذاته جل وعلا ، جاعلا مجال الرؤية «ملكوت السموات والأرض» ، يدل على أنه تعالى كان يعالج بصيرة ويرشد فكرا ، ولا شك أن إبراهيم في تأملاته الطويلة رأى أن النجم والقمر والشمس تتبع نظاما دقيقا وتخضع لقانون قاهر فكان لا مناص أن يجابهه السؤال : فمن الذي صنع هذا النظام وصاغ ذلك القانون؟

لا بد إذن أن الصانع من وراء الصنعة والموجد من وراء الوجود .

قديما عبر عن ذلك العربي البدوي البسيط الذي لم يدخل في حياته مدرسة أو يتعلم على يد أستاذ : البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير فماذا يدل الكون الكبير إلاعلى خالق قدير وعليم خبير .

حاولت في شبابي أن أكون ملحدا . كانت الحرب العالمية الثانية وزالت الحواجز والأسوار بين روسيا الشيوعية وكثير من البلاد ومنها بلدي مصر فقد كانت روسيا من الحلفاء في صف بريطانيا التي كانت تحتل بلادنا ذلك الوقت . أصبحت الشيوعية موضة العصر بين المثقفين وشباب الجامعات والمعاهد ، واعتنقها كثير من أصدقائي المعروفين بالذكاء والثقافة . قلت فإن كان هؤلاء «الانتلجنسيا» يرون أن هذا هو الرأي أفلا يحتمل أن يكون القصور في عقلي أنا؟ حاولت جاهدا أن يستوعب عقلي تصورا للكون بدون خالق فلم أستطع أبدا .وذات ليلة كنت أستخدم القاموس ففاجأتني فكرة : إذا قال لي قائل إن هذا القاموس قد ترتب إثر انفجار في مطبعة تطايرت فيه الحروف في الجو فلما وقعت وجدت مرتبة ـ هكذا ـ وفق ترتيبها في القاموس ، أيكون هذا معقولا؟ بالطبع لا معقول ولامقبول ، وأغلق هذا الملف إلى الأبد .

ويجيء السؤال الذي أحسبه مر على كل ذي فكر . إذا كان لكل شيء صانع فمن صنع الصانع الأول . . ومن أوجد الموجود الأول؟

ولو كان من قبله شيء لما كان هو الإله الخالق . ولو استعملنا لغة الرياضيات فعمره «ما لا نهاية» . . ويسأل سائل ما معنى «ما لا نهاية» فنقول لا ندري فإننا بشر

نخضع لمنطق البداية والنهاية ، والذي له بداية ونهاية لا يستطيع أن يدرك اللانهاية ، ومع ذلك فهي حقيقة علمية يدرسها طلاب علم الرياضة ونعبر عنها بشارة خاصة هي «∞» . ولا ينبغي أن يسبب لنا هذا قلقا ولا رهقا عقليا ، فالعقل يدرك أنه محدود فلا عليه إن لم يتسوعب غير المحدود .

ثم يتلو ذلك السؤال الثاني . سلمنا بأن الله موجود . . فما شأننا وماذا يهمنا إن كان موجودا أو غير موجود؟

من آمن بوجود الخالق فليتأمل الخليقة . فإذا فعل فسيتبين على الفور أننا بني الإنسان مختلفون عن سائر صور الحياة التي تمكنا من دراستها حتى الآن . لقد كانت المدرسة في صباي تعلمنا أن الإنسان هو رأس المملكة الحيوانية . والآن نأبى أن نندرج في تلك المملكة أونعد من بين الحيوانات .

صحيح أن الذرات التي تكون أبداننا هي هي التي تكون ما استطعنا إدراكه من الكون حتى الآن . وصحيح أن الحيوانات العليا تشترك معنا في الخواص البيولوجية من أعضاء ووظائف ونوازع وغرائز . ومع ذلك فلسنا حيوانات . ذلك بأن البيولوجية ليست هي التي تجعل الإنسان إنسانا .

ومن كانت البيولوجية سقف حياته وغايتها من بيننا فالحق أنه حيوان وأي حيوان .

نحن الجنس الذي اجتاز نطاق البيولوجية إلى نطاق القيم والروحانيات . ونظرة إلى الإنسان تبين أن الله زوده بأربع خصال هي التي تميزه عن غيره . هناك أولا العلم والتشوق له والسعي في طلبه وكسب المزيد فيه . وهناك ثانيا مفهوم الخيروالشر والحق والباطل وما يجوز وما لا يجوز .وثالثا حرية الاختيار عند مفترق الطرق وإنفاذ إرادتنا وفق ما نختار . أما الرابعة فهي تعتمد على الثالثة ، وهي مسؤوليتنا عما نختار .

لسنا إذن مخلوقا مبرمجا يستجيب لما يتعرض له بطريقة محددة جبل عليها ولا يدله فيها . . سواء أكان ذرة أم مجرة أم نحلة أم نملة ، وبينما تستجيب الحيوانات ببساطة لنوازعها البيولوجية فإن الإنسان رغم مشاركته لها في هذه النوازع لا يستجيب استجابة تلقائية ، إنما يتعرف على الوضع ويقيمه من ناحية الحسن والقبح ثم يعمل إرادته فمنهم من يختار الحسن ومنهم من يختار القبيح ، وهو بعد يقف مسؤولا عما اختار فإن خالقه فطره على هذه الذاتية وأعطاه الحرية في اتخاذ القرار . فلو أن حصانا جاع فوجد طعاما فأكله لما استغربنا ولما توقعنا منه أن يتوقف ليعلم أهذا الطعام يخص ـ ربما ـ حصانا آخر ولما لمناه على تصرفه . أماالإنسان فلا .

أمامك قرص من الشكولاتا وأنا أحبها جدا ، لكن لو مددت يدي فأخذتها وأكلتها لكنت موضع اللوم إذ كان ينبغي أن أدرك أنني آخذ ما ليس لي بحق فأكف يدي عنه .

الملائكة كذلك مبرمجة ، جبلت على الخير فهي تفعله لأنها لا تعرف أن تأتي الشر ، فهي أيضا لا تعيش تقاهر نفسها وتكبح جماحها كما يفعل الإنسان وهو يواجه الإغراء ويحس بالرغبة ، وبينما تقوم طبائع الأحياء الأخرى على «كن ما أنت» ، فإن المفروض على الإنسان «كن ما ينبغي أن تكون» .

وربما كان هذا نبل الانسانية والسبب الذي من أجله أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم رغم معطياته الكامنة بإمكان الإفساد وسفك الدماء .

لكن ينبغي أن نوضح هنا أن قدرتنا على الاختيار ليست قدرة مطلقة . فكثيرا ما تحدث لنا أو تحدث حولنا أمور لا يد لنا فيها ولا قبل لنا بها وما كان في طوقنا أن نتلافاها أو نتحاشاها . . فهذا هو القدر . ولأنه ليس من اختيارنا فلسنا مسؤولين عنه . . ومن عزم الأمور أن نتقبله ولا نتعجل الحكم عليه ، لأن الجزع منه لا يزيد صاحبه إلا أذى ما دام قد وقع فلا مرد له ، ولأن التجربة تدلنا أن أمورا تقع فتبدو سيئة لكنها بعد مرور الزمن يتبين أنها كانت مقدمة مآلها إلى الخير بعد زمان طويل ، وفي

غياب التحقق من ذلك فإن من آمن بالله يحس أن الله لم يرد به إلا الخير حتى إن لم يشرح له التفاصيل في كل حالة ، وإلا فما فائدة الإيمان وحسن الثقة بالله .

ونعود إلى ذكر المسؤولية التي يتحملها الإنسان . . فنجدها من المكونات الأساسية للشخصية الإنسانية . فهي في الفطرة والجبلة قبل أن تكون في الأديان والشرائع . وإذا كنت في مجتمع ملحد تماما ثم سرقت أو حتى خالفت إشارة المرور فستلقى جزاء ذلك من العقوبة ، فأهلية الإنسان للمساءلة هي أصل من أصول الإنسانية . ونخلص هنا إلى درس أساسي لو استطعنا أن نصيح به بأعلى صوتنا لفعلنا ولكن ليس للكتابة صوت . ما دام الإنسان مسؤولا عن تصرفه فلا بد أنه حر . ولو لم يكن الإنسان حرا لما ساغ أن يكون مسؤولا ولما جاز أن يكون هناك حساب أو يوم حساب . معنى أن الله خلق مخلوقا يُسأل ويحاسَب هو أن الله خلق مخلوقا حرا . هذا هو درسي الأول من الإسلام . الحرية ركاز الإنسانية . والذي يصادر حرية الإنسان (خارج القوانين المقررة) إنما يصادر إنسانية الإنسان . ليس لأحد أن يجبر أحدا . وليس لحاكم أن يسلب شعبه حريته ولو أسكنهم أقفاص الذهب وأطعمهم اللبن والعسل . والغاية في هذا لا تبرر الوسيلة ، والتحجج بأن الشعب لم يتهيأ للحرية بعد هو عذر مقيت وغير مقبول ، فمعناه أنه يقول سأعاملهم كماشية لأنهم لم يتهيأوا بعد ليكونوا من البشر ! لا إنسانية بلا حرية .

ونعود لخضوع الإنسان لقانون المساءلة . فنجد من بين الناس من يعيش طول حياته في الخطأ والخطيئة وربما استمتع بهما أكبر المتعة ثم تنتهي حياته فيموت . قد يكون استطاع أن يستخفي من القانون أو يكون هو أكبر من القانون . ونجد بالمقابل أن من بين الناس من يعيش مجاهدا من أجل الحق ، وقد يشقى في سبيل ذلك ويعاني ويتجرع الألم والعذاب ثم تنتهي حياته فيموت . هل هما إذن سيان؟ وأين تلك المساءلة التي نتحدث عنها؟ وهل انتهى ذاك وهذا بالموت إلى مآل واحد؟ شيء في فطرتنا وجوهر كياننا يقول مستحيل . فلا يمكن إذن أن يكون الموت هو النهاية ، ولا بد أن بعد الموت مرحلة أخرى تتم فيها المساءلة ويعطى فيها الجزاء ويستقر فيها الميزان .

ولو كان الموت هو النهاية لكانت دعوة مفتوحة لكل من وجد متعته في شر أن يفعله والشطارة الوحيدة هي الاختباء من القانون أو التحايل عليه . ولما كان هناك شيء اسمه الضمير والإنسان بلا ضمير هو حيوان بل أضل . ولو كان الموت هو النهاية لكان ذلك تناقضا مع النظام الدقيق المحكم الذي يتغشى الكون جميعا ، فنحن نعيش في كون من المعادلات المتوازنة المتراكبة بدقة كاملة ، والتي يؤدي أصغر اختلال فيها إلى كارثة كونية محققة . بعد هذه الدنيا إذا بالتأكيد دار تتلوها . . هي التي تسمى الآخرة .

ونعود للإنسان في جهاده المستمر طول حياته . . جهاد قائم دائم لأنه حمل «الأمانة» ، ولأن خالقه سوى نفسه فألهمها فجورها وتقواها ، وآتاه الهدى لكنه ترك له الحرية . الله ترك للناس حرية الطاعة وحرية العصيان إذ «لا إكراه في الدين» ، «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» ، وكل يعالج نفسه فمنهم من زكاها ومنهم من دساها .تتفتح له طرق الخير والحق أحيانا فيسلكها لكن من الناس من يعرض عنها ، وتنفتح أمامه تارة سبل الشر والسوء فيردع نفسه عنها ولو بشق الأنفس . لكن من الناس من يستجيب لها ويلغ فيها ، وقد يكون الخطأ شديد الإغراء . بل هو عادة كذلك خاصة إذا هتف بالجانب البيولوجي من تركيب الإنسان . وبين الإنسان وبين الله صلة ، «**ونفخت فيه من روحي**»[1] ،وبين الإنسان وبين الطين صلة ، فهو خلق من الطين وإلى الطين يعود ، ويظل الإنسان مترددا بين صلته بالله وبين صلته بالطين .

قد يأتي الإنسان الخير ولكن بعرق الجبين ، أو يحجم عن الشر ولكن بعرق الجبين كذلك . هو المخلوق المجاهد ، حياته معركة ميدانها نفسه ، وأيامه كلها جهاد أكبر ، لا يعيش على التلقائية ولكن على ما كسب أو اكتسب . فهل من عجب إذا أن يكون الإنسان حبيبا إلى الله وكريما عنده وأن يفضله على كثير ممن خلق تفضيلا؟

وإن كان الله قد جعل حياة الإنسان امتحانا فلا شك أن الله يحب له أن ينجح في هذا الامتحان . لكن الله أراد أن يجعل الإنسان مخلوقا حرا له ذاتيته وله قراره النابع منه . فشاء الله أن يعينه على النجاح لا بالتدخل المباشر (أي جعله مبرمجا لا إرادة له) ،

---

(١) سورة الحجر (٢٩)

ولكن بمداومة تذكيره حتى لاينسى ، تذكيره بالخالق ، وتذكيره بما هو خير وما هو شر كما قرره الخالق سبحانه وتعالى ، وتذكيره بمسؤوليته وبالحساب الذي ينتظره وأنه محتوم ولا فكاك منه ، قد يهرب منه في الدنيا لكن لا مفر منه في الآخرة .

فكيف يكون هذا التذكير؟

لعل أقرب الطرق أن يصطفي الله من بين الناس أفرادا يتصل بهم بالطريقة التي يشاء كالخطاب المباشر أو يرسل إليهم مراسيل من مخلوقاته الأخرى (الملائكة ، ولها وظائفها ومهامها العديدة في الكون) ، ويكلف هؤلاء الصفوة من الناس أن يقوموا بين قومهم بمهمة التذكير ، مبشرين ومنذرين ، وأن يكونوا القدوة الحسنة التي يتأسى بها الناس ، فإنهم إن لم يكونوا بشرا فربما التمس الناس العذر لصعوبة الاقتداء بهم .

هذا مفهوم النبوات والرسالات . ولما كانت ذاكرة البشر تخبو على مرور الزمان وتباعد المكان فقد ابتعث الله من هؤلاء الأنبياء والرسل أعدادا كبيرة على مدى التاريخ الإنساني ، منهم من عرفنا أسماءهم (عن طريق الكتب السماوية) ومنهم من لم يقصصهم الله علينا . ومنهم من أنزل الله عليهم كتبا لم يبق منها بتمامه وكماله إلا الكتاب الأخير لأنه الجامع والشامل والختام حتى آخر الزمان .

سلسلة طويلة من النبوات والرسالات متصلة الحلقات ، وآخر ثلاث حلقات منها هي التي اشتهرت بالأديان الإبراهيمية الثلاثة : اليهودية ، فالمسيحية ، فالإسلام .

وهنا نتوقف قليلا !

إذ أدعوك يا أخي - أو يا بني - القارئ أن ترجع البصر فيما قرأته حتى الآن فماذا ترى؟ وهل لحظت أن تسلسلنا العقليّ المنطقي أفضى بنا إلى ما ورد في حديث شريف عرّف ركائز الإيمان الستة؟ والتي وردت في مقالنا هذا حتى الآن؟

في حديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، سأل جبريل - فيما سأل - رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخبره عن الإيمان فأجابه الرسول : «أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره» .

ليس وجود الله ولا ركائز الإيمان فرضية جدلية علينا أن نقبلها بغير تفكر ولا تدبر كما انزلق إليه أتباع ديانات أخرى لما عبثوا بالأصول وانحرفوا عن الحق الذي نزل على أنبيائهم .

لكن الأمر حتمية عقلية ولهذا يتمشى مع الفطرة السليمة والبصيرة الصافية ، قد يلقيه الله في النفس المطمئنة فترتاح إليه وتقبل عليه ، أما صاحب النفس القلقة المتمردة فما عليه إلا أن يستخدم عقله وسيصل - ما لم تكن شيمته الكبر والعناد - إلى استنتاج الحقيقة عن طريق العقل المجرد . . العقل . . العقل . . العقل . .

العقل

العقل

شاعت على مدى القرون الثلاثة الأخيرة مقولة أن العقل نقيض الإيمان . وهي مقولة لم تنبت من فراغ ، فلها مبررها التاريخي وعذرها المشهور .

ولإيضاح ذلك لا بد من عودة إلى تاريخ أوروبا قبل أن تدخلها المسيحية وبعد أن دخلتها . لم تولد المسيحية في أوروبا ولكنها ولدت على أرض فلسطين . ونعلم عن ولادة عيسى عليه السلام بغير أب من أمه العذراء مريم البتول ، التي قال عنها القرآن : «وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين» (آل عمران ٤٢) .

ونعلم طرفا من طفولة عيسى عليه السلام ، ثم يسكت التاريخ حتى نشهده نبيا ورسولا إلى بني إسرائيل ، كان يهوديا منهم بعثه الله ليصلح ما فسد ويقيم ما اعوج منهم على حد ما نقرأ في الأناجيل «جئت لأهدي خراف بني إسرائيل الضالة» . . فمن آمن به وصدقه أصبح نصرانيا ومن رفضه وكذبه بقي يهوديا ولا يزال الأمر كذلك حتى الآن .

حتى رفع عيسى عليه السلام فراح حواريوه يبشرون بتعاليمه واجتازوا نطاقهم الإقليمي في فلسطين ، وبهذا وصلت إلى روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية التي كانت لها السيادة والهيمنة آنذاك ، وأقبل عليها الكثيرون من الضعفاء والمظلومين الذين كانوا مسحوقين تحت سطوة الحكم ، أو الذين أوتوا الفطرة الطيبة فهالهم ما يتغشى الامبراطورية من فساد ورذيلة وضلال . لكنهم كانوايسرون مسيحيتهم ولا يجرؤون أن يجاهروا بها ، فقد كان الحكم يعتبر عيسى ودينه الجديد تمردا على الدولة ، وكان العرف المعمول به أن الامبراطور هو الإله فمن اتخذ من دونه إلها فقد كفر ومن دعا معه إلها فقد أشرك (يبدو الأمر غريبا ولكن نظرة تحليلية صادقة إلى بعض أنظمة الحكم في زماننا الحاضر بل في بعض بلاد المسلمين تسير على نفس الأسلوب ، ولئن تورعت عن اتخاذ التسميات القديمة فالواقع العملي شبيه ومثيل) .

كان المسيحيون في روما طائفة سرية ، يلتقون ويتعبدون في الكهوف والمغارات ، ويتصلون ببعضهم البعض بلافتات تحمل رموزا وأشكالا فتؤدي لغة لا يفهمها إلا هم . فمن اكتشف أمره منهم كان عرضة للبطش والتنكيل وأفظع العقوبات (ولا يزال بين ظهرانينا من يقاوم العقيدة والفكر بالتنكيل وأفظع العقوبات) ، وقد شهدنا في بعض الأفلام السينمائية كيف كانوا يستخدمون لتسلية الحكام والجماهير في عروض مسرحية يلقى بهم فيها إلى الوحوش الجائعة لمصارعتها في غير تكافؤ بين الصارع والمصروع .

وكان يحكم روما تحت الإمبراطور مجلس من سبعة رجال ، فإن مات أحدهم عين مكانه ابنه الأكبر . ومات أحدهم فيما كان ابنه الأكبر قائدا عسكريا يقود حملة في شمال أوروبا . وأراد الامبراطور والمجلس أن ينتهزوا الفرصة لإقصائه بتعيين مرشح آخر . لكن قسطنطين وافته الأخبار فقرر العودة بجيشه ليستخلص حقه . وفي الطريق وبالقرب من روما صادف واحدة من تلك اللافتات المسيحية برموزها وإشاراتها ، لكن قرأ مكتوبا تحتها : «تحت هذا الشعار تنتصر» . . تفاءل قسطنطين ، وآلى على نفسه لئن انتصر لينصرن هؤلاء الناس ويقربهم : وانتصر قسطنطين !

وبين عشية وضحاها تحول المسيحيون فجأة من المخبأ إلى السلطة . . وقام بين الكنيسة والامبراطور الجديد (قسطنطين) حلف جديد يقوم على كفالة المصالح الاستراتيجية للجانبين وقد نورد تفصيل ذلك فيما بعد ، وأخذ رجال الكنيسة يستمتعون بنشوة النصر ، والنصر مثل الخمر إلا ما عصم ربي ! .

ونمت سلطة الكنيسة نموا كبيرا ، ولما كانت هي صاحبة الدائرة الإيمانية فقد تحكمت فيها واحتكرتها ثم راحت تدخل في حدودها مجالات الأنشطة البشرية واحدا وراء واحد حتى شملتها جميعا ، أصبح كل شيء تحت مظلة الإيمان ، وأصبح الإيمان نفسه تحت مظلة الكنيسة خاضعا لرجالها طيعا في أيديهم لدرجة أنهم استحوذوا على سلطة إدخال الناس الجنة ببيعهم صكوك الغفران أو إلقائهم في النار بإصدار أحكام الحرمان .

لم يعد الناس أحرارا في أن يقرأوا ما يشاؤون ، وصودرت كتب وصدرت قوائم بالمقروءات الممنوعة وأحرق مؤلفون مع كتبهم وطورد التراث الإنساني المعرفي السابق وفيه فلسفة حكماء اليونان ولولأن العرب المسلمين فيما بعد نقبوا عنها تنقيبا لدى من خاطروا بتخبئتها ، وترجموها إلى العربية ، لظلت أوروبا إلى الآن جاهلة بأمثال سقراط وأرسطو فإنها لم تعرف عنهم إلا من تراجمهم العربية ، وعندما اخترعت المطبعة في ليدن بهولندا ظل ثمانون بالمائة من نتاجها لمدة سنوات هو التراجم الأوروبية للكتب العربية .

حتى العلوم المفيدة مثل الطب صودرت بدعوى أن الطب يتدخل في مشيئة الخالق ، ووصفت الكنيسة علاجات لمختلف الأمراض تقوم على لعق ضريح قديس أو ابتلاع التراب من قبر قديس آخر أو التعاويذ وما إلى ذلك . بل إن طبيبا اسمه سرفيتوس أصدر كتابا انتحل فيه رأي ابن النفيس ونسبه لنفسه ، بأن الدم يصل من الجانب الأيمن إلى الجانب الإيسر من القلب خلال الدورة الدموية الرئوية لا خلال ثقوب صغيرة في القلب كما ذكر جالينوس قبل قرون ، ولأن الكنيسة كانت تحتضن آراء جالينوس فقد صدر الحكم بإحراق سرفيتوس مع كتابه (أعيد الاكتشاف بعد ثلاثة قرون منسوبا إلى وليم هارفي) .

وقس على ذلك سائر صنوف المعرفة وشاع قتل العلماء وإحراقهم ، وعندما نشر جاليليو رأيه بأن الأرض ليست مركز الأجرام لكنها تدور حول الشمس ، حوكم محاكمة قاسية ولم ينجه من الإعدام إلا كبر سنه وشيوع احترامه بين الناس ، فحكم عليه بأن يظل حبيس بيته حتى الموت .

وتحرك الزمن إلى الأمام وكان لا بد أن يتحرك وأن تكون حركته إلى الأمام . . وانتصر العلم لكن بمخزون كبير من الضغينة على الكنيسة ، وكان رد الفعل (العاطفي) لا تخليص المسيحية مما شابها ولكن إقصاء الكنيسة عن الحياة ونفي كل ما كانت تمثله بمافي ذلك الدين بل بما في ذلك الإله نفسه (تعالى الله عن ذلك) ، وفي هذا التغييب صار العقل هو الإله المعبود وصار العلم هو الدين الجديد .

هذا هو المهد الذي ولدت فيه الحضارة الغربية المعاصرة ، ورضعت الإلحاد فترعرعت عليه وازدهرت أو كذلك خيل لها . وأصبح الإله حتى عند من يؤمنون به موجودا يزار في الكنيسة في نهاية الأسبوع ولكن حذار أن يخرج على الناس فيتدخل في أمورهم الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية . وترسخت فكرة الاستقطاب بين العقل من جانب والإيمان بالطرف المقابل ، وأصبح العلم والدين عدوين لا يلتقيان .

فما العلاقة بين العقل والدين في الإسلام؟

العلاقة بينهما واضحة وناصعة ولا يعمى عنها إلا العبيد !

والعبيد هنا هم من استحوذ عليهم المنطق الغربي تماما ، فلا يرون إلا ما يرى وهم بعد لا يحاولون أن يمدوا أبصارهم إلى غيره . أمخاخهم بضاعة محفور عليها «صنع في الغرب» . يتبعون الغربيين حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه وراءهم . وعجيب أن يكونوا دعاة عقل وهم يحبسون العقل في نموذج واحد يريدون أن يطبقوه تطبيقا أعمى على كل ما سواه وإن اختلفت الظروف والمفاهيم والحيثيات . وعجيب أن يعبدوا العلم ولا يروا الشيء الواضح وضوح الشمس ، وهو أن العلم نفسه يعترف على نفسه بالنقص والقصور ، وأنه مازال طفلا يحبو ، وأن الناس بعد خمسين سنة سينظرون إلى ما بين أيدينا من العلم الآن نظرة التهكم والازدراء ، وأن العلم لو خطر بباله أنه مكتمل الكيان لكان الأجدى إغلاق مراكز البحث العلمي وتوفير ميزانياتها لكن كل كشف جديد في كل يوم يؤكد لنا أننا كنا به جاهلين لغاية اليوم السابق ، وكل سعي إلى اكتشاف جديد اعتراف بأننا ما زلنا جاهلين ، وكلما كبر علمنا كبر معه إحساسنا بمدى ما نجهله .

بين هذا الغبن للعقل الذي اقترفته الكنيسة والغبن للإيمان الذي ولغت فيه الحضارة المعاصرة ، نظرت إلى الموضوع على ضوء الشريعة الإسلامية . فماذا رأيت؟

رأيت أن الشريعة احترمت العقل فجعلته واحدا من مقاصدها الكلية الخمسة :

وهي حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل . وتساءلت عن تلك الأهمية التي بوأت العقل تلك المنزلة الشرعية الرفيعة . ووجدت الإجابة بينة لا تخفى ـ ولا ينبغي أن تخفى ـ عني ولا عن أي أحد .

فبالعقل كانت معرفتنا بالله كما أوردنا في الفصل السابق . ولقد كان أسلوب القرآن في الدعوة إلى الإيمان بالله أسلوبا عقليا محضا يتحدى العقل البشري ـ بغير شروط مسبقة ـ أن ينظر في نفسه وفيما حوله معددا عليه آيات الله ومخاطبا عقله أيمكن أن تكون موجودة بغير موجد أو مخلوقة بغير خالق؟ فإن آمنا بخالقنا سألنا أنفسنا فماذا يريد منا؟

والعقل في الشريعة مناط التكليف . وموجب أهلية الإنسان أن يكون مسئولا عن خياراته . ومن كان بغير عقل سقطت عنه التكاليف .

والعقل في الشريعة أحد مصادر التشريع بعد القرآن الكريم والسنة النبوية الموثقة . وها هوذا الرسول الكريم يسأل معاذ بن جبل إذ أوفده إلى اليمن كيف يقضي فيقول أنظر في كتاب الله . فيسأله النبي فإن لم تجد؟ فيقول أنظر في سنة رسول الله . فيسأله فإن لم تجد؟ فيقول : أجتهد رأيي ولا آلو . (أي يستخدم عقله) . فيفرح النبي ويقول : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضى رسول الله . ولقد كان النشاط العقلي ـ في إطار القرآن والسنة ـ هو الذي أثرانا بهذا التراث الفقهي الضخم ، الذي واكبت به الشريعة الزمن وأمدت به مختلف الأقطار والأمصار ، حتى جاء زمان خبا فيه العقل المسلم وأغلق باب الاجتهاد وأخذت الأمة في الانحدار .

والعقل هو سبيلنا لمعرفة الصواب من الخطأ وتبين ما يجوز وما لا يجوز .

أذكر مرة في لقاء إذاعي بالولايات المتحدة أن سألني المذيع سؤال المنكر المحتج كيف يحرم الإسلام الخمر؟ قلت له تصور أن حمارا دخل معنا هذا الاستديو وامتلأت مثانته وشعر بالرغبة في البول فبال . هل تلومه؟ قال لا . قلت فلو أنك في مكان الحمار فهل تفعل مثله؟ قال لا . قلت ان الفرق بينكما أن لك عقلا أرشدك إلى ما ينبغي وما لا

ينبغي . ولو أطفأت هذا العقل بالمشروب أو المخدر لتصرفت تصرف الحيوان ، فعقلك في الحقيقة هو حافظ إنسانيتك .

والعقل بعد ذلك هو آلتنا ووسيلتنا إلى تنفيذ الأمر الإلهي بالتعرف على سنة الله في خلقه وهو مايسمى في لغة العصر بالبحث العلمي . ومن له إلمام (عقلي) ولو بسيط بالإسلام يدرك أن الله تعالى في الواقع زودنا بكتابين لا بكتاب واحد : كتاب القرآن وكتاب الكون .

ولئن عرفنا القرآن بربنا وإيماننا وعباداتنا ومعاملاتنا وأخلاقنا ، لقد حرص القرآن مكررا ومؤكدا أن يأمرنا بقراءة الكتاب الآخر ، ودراسة الكون وما فيه . . ولن يغيب عن قارئ القرآن ذي الوعي والبصيرة أن الكتاب كأنما يقول لنا ادرسوا التاريخ والجغرافيا والجيولوجيا والفلك وعلوم النبات والحيوان وجنين الإنسان وعلوم الماء والرياح والمعادن والنحل والنمل والهوام والحشرات والخواص الطبيعية والتوازن الكوني ومراوحة الأفراد والأمم بين الارتفاع والانخفاض ووسوسة النفس وتزكية الإرادة . . وسطور القرآن مرصعة بهذه الإشارات وبأكثر منها . وفي إبان المد الإسلامي فعلا استجاب المسلمون لذلك وبلغوا فيه أعلى شأو .

لم يكن مفهوم القطيعة بين العقل والإيمان موجودا في الإسلام . . كانت أولى كلمات القرآن «اقرأ» ، وأقسم الله في القرآن بالقلم ، وقال «**هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون**»[1] ، وأكد «**إنما يخشى الله من عباده العلماء**»[2] ، وأوزع «**وقل رب زدني علما**»[3] ، هذا غير ما أوصى به الرسول وحض عليه من طلب العلم ، والعلم بطبيعة الحال كل ما يعلم فليس قصرا على العلوم الشرعية ، وقول «اطلب العلم ولو بالصين» دليل على ذلك . ولعل من انصع ما أمر به القرآن العقل البشري قوله تعالى : «**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق**» [4] .

---

(١) سورة الزمر الآية (٩) .
(٢) سورة فاطر الآية (٢٨) .
(٣) سورة طه الآية (١١٤) .
(٤) سورة العنكبوت الآية (٢٠) .

هذا مكان العقل في شريعة الإسلام . وتأسيسا عليه فواضح أننا مدينون لعقولنا بأمرين : الأول أن نصونها والثاني أن نستخدمها .

أما «الصيانة» فبتحريم الخمر وماشابهها ، وكفالة حرية التفكير لغاية حرية التدين («لا إكراه في الدين»)(١) ، ومنع القهر والتسلط ،وحرية البحث ، والوقاية من أسباب القلق والتنكيد والتنغيص .

وأما «استخدامها» فواجب شرعي والتقصير فيه معصية كبيرة تقع تحت طائلة الأية الكريمة : «ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون» (الأعراف ١٧٩) ، فوق ما أورده القرآن بكثرة من تبكيت الذين لا يعقلون ولا يتفكرون ولا يتدبرون .

وهنا لا بد من وقفة لا أستطيع أن أتجاوزها . فإنني وقد عرضت هذا العرض عن الإسلام أحاول أن أقرأه في المسلمين فأتعثر وأتحير . كأنما نبت الأمة عن المدار الذي رسمه لها الإسلام فانحسر دور العقل في حياتها ولم يعد مصباحها المنير ولا دليلها الهادي . ولا أتهم الإخلاص لكن الإخلاص وحده ليس يكفي .

وأسوأ ما يكون ذلك إن أصاب العلماء الذين يتولون القيادة الدينية للناس (! !) فكلمتهم مسموعة ولهم أثر كبير على الجماهير . . وأمثلة ذلك كثيرة .

فعندما اخترعت المطبعة واستبشر المسلمون خيرا بإمكان طباعة القرآن الكريم ليكون في متناول جماهير المسلمين ، قام علماء دولة الخلافة في الآستانة محتجين وأفتوا بأن طباعة القرآن حرام . . وضيعوا على الجماهير وقتا كان أحرى ألا يضيع .

وعندما أراد الملك الراحل عبدالعزيز آل سعود رحمه الله أن يدخل الخدمة التلفونية في مملكته الفتية ، اعترض العلماء وأفتوا بأن التلفون حرام وأنه من الشيطان . لكن الرجل استخدم عقله فأحضر من يقوم بتلاوة القرآن على الطرف الآخر ودعا العلماء أن يستمعوا فقالوا إنه قرآن ، فقال إذن لا يمكن أن يكون حراما ولا يمكن أن يكون من الشيطان .

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٦) .

وعندما كان فقيد الإسلام الملك فيصل رحمه الله أميرا على الحجاز ، كانت هناك مدرسة تسمى مدرسة البعثات يتخرج طلابها فيوفدون في بعثات لمواصلة الدراسة بالخارج . وفوجئ يوما بزيارة وفد صاحب من العلماء يستنكرون أن تعلم المدرسة علوم الطبيعية والكيمياء فإنها علوم الكفرة ولا ينبغي أن تلوث عقول الناشئة المسلمين . وكان فيصل رحمه الله موفور العقل بالغ الحكمة ، فبدلا من أن يدخل في جدال معهم استدعى مدير المعارف فورا وأظهر الغضب الشديد عليه وقال كيف تسمحون لأنفسكم أن تعلموا أبناءنا الطبيعة والكيمياء وتفسدوا عقولهم بها ، وعبثا حاول الرجل أن ينطق فقد كان غضب الأمير يتصاعد لدرجة أشفق لها العلماء الذين جاءوا شاكين ، حتى قال فيصل للرجل : أريد فورا أن تزيل من على كل كتاب كلمتي الطبيعة والكيمياء وتلصق مكانها ورقة مكتوبا عليها : «سنن الله في الكائنات» وسأتابع هذا الأمر بنفسي والويل لك إذا قصرت . . وتحرج الوفد من الإطالة ، وألصقت الورقة على الكتب وبقي المحتوى ، وكأنما جهل الوفد أن أسماء كابن الهيثم وجابر بن حيان والخوارزمي والبيروني هي من مفاخر الإسلام والمسلمين في تلك العلوم .

ونذكر بلا شك تلك الضجة التي ثارت عندما وصل أول إنسان إلى القمر ، وكيف شغلت آنذاك مساحة كبيرة على الصحف الغربية تتهكم فيها بالمسلمين وعلماء المسلمين ومن ثم بالإسلام نفسه .

ومن سنوات جاء أحد القسس الأمريكان يستغيث بالمركز الإسلامي لجنوب كاليفورنيا بمدينة لوس انجلوس . . كان معه كتاب باللغة الانجليزية على ورق صقيل وبغلاف فاخر . كان الرجل قسيسا لأحد السجون إذ يقضي النظام بالرعاية الدينية للمساجين من كافة الأديان بتعيين من يقوم بذلك من بني دينهم . . كان الكتاب مجموعة فتاوى لعالم كبير من بلد إسلامي ، وكان يوزع بالمجان على نزلاء السجون من باب الدعوة ، لكن اشتمل الكتاب على فتوى عجيبة هي أن الإسلام يعرض على النصراني مرتين فإن أبى عرض عليه مرة ثالثة فإذا لم يقبله يباح دمه ويقتل ! ! وقال

الرجل إن الكتاب كان في يد السجناء المسلمين ، ولما كانت مسألة القتل سهلة عند نزلاء ذلك السجن فإنه خشي أن يأخذ السجناء المسلمون بالفتوى ويطبقوها على من معهم من المساجين غير المسلمين .

وأذكر ذلك الشيخ الذي طلبه أحد المراكز الإسلامية في أمريكا ليعلم النشء الإسلام . كانت أهم عناصر الدرس الأول أن يكرهوا النصارى والشيعة ، وأنه إن كانت سيدة تجلس على كرسي وقامت فعلى الصبي ألا يجلس مكانها فورا حتى يبرد المكان لأن انتقال حرارة جسمها إلى جسمه حرام ! لاغرو أن الصغار بعد ذلك صارحوني بأنهم يكرهون الحضور وإنما يحضرون مساقين وعندما يبلغون سن الاستقلال (وهي في أمريكا باكرة واستقلال كامل) فلا يمكن أن يحضروا !

هذه عينة ولكن الحكايات الفردية تجل عن الحصر . ولا أتهكم بالعلماء فأنا أول من يعترف بفضل الفضلاء وعلم العالمين ، وأهل الحق منهم الذين ارتفعوا عن العصبية والقبلية فانتقدوا في صراحة هذا النمط الذي عطل عقله واستسهل أن يسرف في التحريم والتضييق ومصادرة كل جديد والانتقاص من رقعة المباح وكأن الأصل في الأشياء التحريم لا الإباحة .

ولا يقتصر الأمر على هذه الطائفة من العلماء . وما كان الأمر ليزعجني فليس في الإسلام كهنوت وإلا لتعرضنا لمثل مأساة الكنيسة القديمة في أوروبا . . لولا أن لهم ظلا ممدودا على قطاعات شعبية كبيرة حتى بين المتعلمين ، وشكل الأمر ظاهرة وتكونت من هذا النمط عقلية معينة لها صوتها ولها شغبها ولها أثرها السلبي .

ولا أتهم الإخلاص ولكن القصور في استخدام العقل . إننا أمة مشبوبة العاطفة مسرفة فيها على حساب النظرة العقلية الفاحصة ، بينما للنفس السوية ميزان تتعادل فيه كفتا العقل والعاطفة فلا تطغى إحداهما على الأخرى . . والذين تطغى عندهم العاطفة على العقل قد يجلبون شرا كبيرا أو يُحرمون خيرا كثيرا . . «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا»(١) .

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٦٩) .

وقد تكون العاطفة شريفة ومخلصة ونبيلة . . مثلما أخذوني من فترة خلال رحلة إسلامية في كندا إلى مركز إسلامي وقالوا لي إنه كانت هناك كنيسة فاشتروها فأصبحت مسجدا يرفع فيه الأذان وتقام فيه الصلوات ويرفع شعار لا إله إلا الله محمد رسول الله . وكانت وجوههم طافحة بالزهو والاعتداد . وفي البلدة التالية طالعوني بمفاجأة أخرى . . هذا المركز أيضا كان كنيسة فاشتراها المسلمون وأصبحت مركزا إسلاميا ! ! وراحت عيونهم تومض في وجهي ببريق النصر وقسماتهم تنضح بالسعادة والبهجة وكادوا يصيحون وهم يسألونني : صف شعورك يا دكتور ! أجبت في برود صادق : إنه شعور الخوف والقلق والإشفاق !

وكانت صدمة انطفأت لها البسمات وغاضت القسمات . . كيف يا دكتور؟ قلت عقلي يضعني أمام سؤال ملحّ : ما الذي جعل النصارى يبيعون كنائسهم للمسلمين؟ والإجابة واضحة . . انقضى جيل كان يعمر هذه الكنائس ويؤمها وخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وهجروا الكنائس فليس لهم فيها مأرب ولابهم إليها حاجة : فهل من الممكن أن يحدث هذا للمسلمين؟

والإجابة بصراحة نعم . فلسنا هنا في مكة أو القاهرة أو كراتشي أو طهران . . حيث يظل السياق الإسلامي العام صاحيا يتنفسه الناس مع الهواء وتنعقد عليه الأعراف الاجتماعية والتراث الموصول والقيم السائدة ، بصرف النظر عن حظ الناس من الفقه فيه والتقصير في ممارسته . لكننا هنا في أمريكا . القابض على الإسلام كالقابض على الجمر ، والسابح نحو الإسلام سابح ضد التيار ، وسلطان البيت (والأبوة والأمومة) موقوت يتخرج منه الشاب والشابة رسميا بعد سن معين ، والمغريات شديدة يروج لها الإعلام والتعليم والقيم السائدة وضغط الرفقاء والرصفاء ترويجا كبيرا .

من هنا كان التحدي الأكبر أمامكم هو التركيز على التربية والتعليم وغرس الإسلام اقتناعا لا فرضا ، والتزام القدوة الطيبة من الوالدين للأبناء ، وتبني قضية الجيل المقبل ، كأهم القضايا ، وإنفاق المال لإنشاء مدرسة إسلامية أجدى من

إنفاقه على مركز أو مسجد ، لأن المدرسة تتسع لمسجد أما المسجد فلا يتسع لمدرسة . وإلا فمن الوارد بل المتوقع إن انكسرت حلقة الإسلام بين جيل وجيل أن يكون مآل مراكزكم ومساجدكم أن تطرح في السوق للبيع بعد جيل أو جيلين . وبهت إخواني الذين آمنوا .

ومن سنوات ألّف المدعو سلمان رشدي كتابه الحقير «الآيات الشيطانية» . وقامت المظاهرات صاخبة وعاصفة فاشتهر الكتاب وكان ذلك أكبر دعاية له . ومما ذكرته الصحف في أمريكا أن السمسار بين رشدي وشركة النشر طلب مبلغا كبيرا ، فإنه أعد ترجمة فارسية له وأوفد من وضعها في يد ابن الإمام الخميني رحمه الله واثقا من الضجة التالية التي سترفع المبيعات إلى عنان السماء . وصدر حكم في إيران بإعدام سلمان رشدي بينما اعترضت قيادات إسلامية أخرى على هذا الحكم فبان أن المسلمين أمرهم ليس شورى بينهم . ولم يقتل سلمان رشدي ولكن الذي قتل كان اثنين وعشرين مسلما باكستانيا من جراء الصدام بين الشرطة وبين جماهير المتظاهرين الغاضبة في شوارع كاراتشي . ولو كان الكتاب ـ على سبيل الفرض ـ قد انصب على اليهود ونال منهم ومن دينهم لكان الحال غير الحال ، ولسحب الكتاب من الأسواق رغم أنف الذين يتشدقون بحرية الكلمة ، ولوضعت موضع التنفيذ خطة مدروسة للضغط على كافة السلطات في كل البلاد ، بوسائل ضغط يملكونها ونملك مثلها لكنهم يستعملونها ونحن لا نستعملها ، وتكون حصتنا ردة فعل عاطفية نرفع فيها العقائر ونتشنج غاضبين . . فإذا نفسنا عن صدورنا ما احتشد فيها سكنّا . . ثم لا فكر ، ولا خطة ، ولا تناول عقلي .

ولقد أصبح هذا المنحى ديدننا ونحن نعالج جل قضايانا وسنورد المزيد عن ذلك من بعد . وحتى الآن عجزنا عن أن تكون شيمتنا وعادتنا وطبيعتنا أن نتناول قضايانا بالعقل .

وقد نحاول أن نلتمس للأمة العذر في ذلك . فمنذ أن وقعت في قبضة الدكتاتورية بعد الخلافة الراشدة نحيت الأمة عن التفكير لنفسها بنفسها واستخدام عقلها وممارسة حقوقها الدستورية . . فإن صلح الحاكم صلحت الأحوال وإن فسد فسدت ، لكن الأمة على الحالين يفكر لها غيرها .

وإن المصلح الأمين المخلص هو من يسعى لعلاج ذلك وليس هو بالأمر الهيّن .

لو كان لي من شعار أقترحه على الأمة الإسلامية لكان : «يا أمة المسلمين : فكري» .

فإن المشاكل لن تحل بغير العقل . . العقل . . العقل .

حول الإسلام

حول الإسلام

وما أطمع هنا أن أحاضر قارئي عن الإسلام فما أظنه أقل معرفة به مني . لكنها خواطر وأفكار أود أن يشاركني فيها ، وما دمت أعتبر هذا الكتاب مائدة فكرية فحسبي أن أقدم ما عندي ولو قل .

والإسلام أن يسلم الإنسان أمره لربه بالكلية بغير شريك أو بديل أو مزاحم . ولهذا يصف القرآن الأنبياء السابقين ومن اتبعوهم بأنه مسلمون وأمثلة ذلك وفيرة فيه . فعن إبراهيم يقول الله : «**إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ يا بَنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون**» (البقرة ١٣١ ـ ١٣٢) . وهذه ملكة سبأ تقول : «**وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين**» (النمل ٤٤) . ويوسف يقول : «**توفني مسلما وألحقني بالصالحين**» (يوسف ١٠١) وحواريو عيسى يقولون : «**آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون**» (آل عمران ٥٢) . حتى الجن يقولون : «وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون» (الجن ١٤) .

فلما اكتملت الرسالة التي بعثها الله خلال العديد الكثير من النبوات والأنبياء من عرفنا منهم ومن لم نعرف ، واستوفت عناصرها التي لا تخص إقليما بذاته ولا ناسا بأنفسهم ولا زمنا بعينه ، ونضجت الإنسانية وصارت أهلا لتلقى الصيغة الختامية والتعليمات الجامعة المهيمنة على كل شؤون العباد في المعاش والمعاد ، بعث الله بها خاتم الأنبياء والمرسلين محمدا عليه الصلاة والسلام ، وضمنها كتابه القرآن الكريم يبلغه النبي الكريم بنصه ويفسره بسنته ، وأضفى عليها اسم دين الإسلام وقال في معرض استيفاء الوحي : «**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**» (المائدة ٣) .

وقد رضينا من ربنا بالإسلام دينا . وكلنا يحبُّ أن يكون مسلما كخير ما يكون المسلم . فمن أين البداية؟

لا شك أن الفكر يبتدر بحديث الرسول عليه الصلاة والسلام الذي ورد عن عمر بن الخطاب ، عندما وافى جبريل عليه الصلاة والسلام على هيئة رجل شديد بياض

الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منهم أحد ، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال «يا محمد ، أخبرني عن الإسلام» . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ،وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا» .

لكن إن كنا نود أن نكون كخير ما يكون المسلمون ، وجب أن نذكر أن البناء إنما يرفع فوق الأساس وإلا كان البناء واهيا . والأساس هو استكمال الإيمان كما ذكرنا في الباب الأول (بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . . والقدر خيره وشره) والعمل بمقتضى هذا الإيمان . ونعوذ بالله أن نكون ممن ذكرهم القرآن الكريم بقوله : **«قالت الأعراب آمنا . قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم»** (الحجرات ١٤) .

كذلك لا ينبغي أن يفوت علينا أو يغيب عن منطقنا أن التفصيل يأتي بعد الإجمال . وما فصله النبي عليه السلام من تعريف الإسلام بذكر أركانه الخمسة ، وتعريف الإيمان بذكرعناصره الستة ، ثم ما تلا ذلك من شؤون الدين التي فصلها الله تفصيلا وشرحته سنة النبي عليه الصلاة والسلام تفصيل لا ينبغي أن يصرفنا عن الهدف الشامل من بعثته عليه السلام ، والأصل الأصيل للغاية من إرساله بدين الإسلام ، وهو ما أجمله الله سبحانه وتعالى عندما خاطب محمدا في القرآن بقوله : **«وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»** (الأنبياء ١٠٧) .

ما أنصعه تعبيرا وما أقواه ! النفي ثم الاستثناء . لم نرسلك يا محمد لأي سبب آخر إلا لتكون رحمة للعالمين . هذه بداية الإسلام ونهايته وما بينهما : «رحمة للعالمين» .

أعرف ناسا من المسلمين وعلمائهم تبدأ معرفتهم بالإسلام من الأوامر والنواهي وحفظ الكتب والنصوص والحواشي والأسانيد حتى كأن داخل رأس الواحد منهم مكتبة إسلامية ضخمة ، فإذاراحوا يعلمون او يتعاملون وفتشت عن «رحمة للعالمين» هذه فلم تجد لها أثرا .

وأعرف منهم من لم أره مبتسما قط لا في صورة ولا في شهود ، مع أن ديننا جعل ابتسامة المرء في وجه أخيه صدقة . . وترى ذلك منعكسا على مريديهم وأتباعهم ، وعندما كنت أستاذا في كلية الطب بجامعة الكويت كان من بين أبنائي وطلابي طائفة أقول لهم الحين بعد الحين «إن الأسنان ليست بعورة» . ولي من عشرات السنين دعاء أتلوه كل صباح بعد قراءة سورة يس يرد ضمنه : «اللهم اجعلنا من أهل المحبة ، ولا تحرمنا بركة الابتسامة» .

تزعجني هذه الإحاطة المعلوماتية الشاملة بتفاصيل العلوم الشرعية ، مع الجهل العملي (وقد لا يكون النظري) بأن الرسول لم يبعث «إلا رحمة للعالمين» .

ولا غرو إذن ـ في غيبة الوعي بالأصل ـ أن ترى منهم الغلظة والفظاظة والتشدد ، حتى لكأن الواحد منهم إذا التقى أمرين اختار أعسرهما ، مع أنه هو يردد في درسه أن الرسول كان إذا التقى أمرين اختار أيسرهما ما لم يكن حراما .

لقيت مرة في أحد المؤتمرات بالكويت رمزا دينيا مشهورا له أتباع كثيرون من بين العامة ومن بين المتعلمين . تطرق الحديث فسألته : «ما رأيك في ولد السفاح؟» . .

أجاب الرجل على الفور وفي بساطة تامة : «يُقتل» . قلت «يا فلان . . إن ابن السفاح هو البريء الوحيد في الجريمة التي ارتكبت فلم تكن له يد فيها . أرأيت إن دخل علينا ونحن واقفان هنا صغير في الرابعة أو الخامسة وهرول إلينا بوجه طافح بالبشر والانطلاق حاملا كرته فقذف بها إليك يريد أن يلاعبك وينظر لك نظرة الحفز إلى أن تقذف الكرة إليه . . أيطيب خاطرك أن تقضي بقتله لأنه ابن سفاح؟» . .

أطرق الرجل وقال ـ والحمد لله ـ لا . . لا أقتله ! وارتحت لأن الرجل صادف من يعيده إلى الصواب فعاد . لكن يبقى أن الإجابة الأولى هي الإجابة السيكولوجية الفورية ، ولا أدري أنّى لبعض المسلمين هذه القسوة .

وأود أن أقف وقفة أخرى أمام أركان الإسلام التي ذكرناها والتي ورد فيها حديث آخر رواه البخاري ومسلم : «بُني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان» .

فإن كثيرا من المسلمين غم عليهم فظنوا أن أركان الإسلام هي كل الإسلام . وفاتهم أن الأركان إنما كانت لتحمل البنيان ، والأركان إن لم تقم بذلك حرمت عن أداء وظيفتها . أعرف من فضلاء المسلمين من يذوق حلاوة الصلاة فيكثر من النوافل ، أوالصيام فيكثر من صيام التطوع . وأعلم من يحرص على أداء الحج عاما وراء عام وأداء العمرة تلو العمرة . . هذه أبعاد الإسلام التي تصل إليها أنظارهم وذلك مبلغهم من العلم . وما بالنا برجل اشترى الأرض وأقام الأعمدة الخرسانية ، فأعجبته فأقام المزيد من الأعمدة ثم زاد منها حتى أقام غابة من الأعمدة لكن لم يتقدم لبناء بقية العمارة . .

إن الذين يختصرون الإسلام ويقصرونه على باب العبادات إنما ينتقصون منه الكثير وهم لا يشعرون وبالتأكيد بحسن نية . الإسلام أشمل من هذا وحسن النية ليس شفيعا لجهل المسلم بدينه . لي صديق اكتمل له عدد كبير من العمرات ومن حج التطوع وأقرباؤه محتاجون وجاره جائع وصديق له غارق في الدين إثرصفقة تجارية خاسرة ، ولا يزال يستزيد ، ولو أنفق هذا المال في سد حاجات هؤلاء لكان أوفى إسلاما وأقرب إلى الله . وأعرف طبيبا نودي مرة لحالة طارئة عاجلة لكنه أبى إلا أن يؤدي الصلاة لأول وقتها ، وكانت الدقائق فارقا للمريضة بين الحياة والموت . . رحمها الله .

والكثيرون لا يكادون ينتبهون إلى ما يعانيه المسلمون داخل بلادهم أو خارجها من ظلم وقهر وعدوان ، ولا يرى أنه أمر يخصه وعليه فيه واجب شرعي ، وما دام يؤدي الأركان فقد استوفى تمام الإسلام وطاب نفساً وقر عينا .

وحتى العبادات : فمنا من يؤديها من منطلق أناني ذميم . . وكم من مرة خلال الحج أو العمرة تشهد أعيننا من الرجال أمثال الوحوش قوة وضخامة يذودون الناس ويدفعونهم فيقع من يقع وتصاب من تصاب ، ولا بأس لديه ما دام سيصل إلى الحجر الأسود ويقبله ، وربما أصابه من الوزر في ذلك أكثر مما ناله من ثواب . وقد اخترت لنفسي في هذا الموقف دعاء أو من أنه أرضى لله هو : «اللهم إني أحب أن أقبل الحجر الأسود أسوة بنبيك الكريم . . ولكن إخوتي المسلمين يحرصون كذلك على ذلك والزحام شديد . اللهم إني لن أزاحمهم بل أدع لهم الطريق لوجهك الكريم يا رب العالمين» ، وأكتفي بالإشارة إلى الحجر .

مركبات الإسلام

مجموع خطاب الله للمكلفين هو الشريعة . وغايتها رعاية مصالح الناس في معاشهم ومعادهم . ومصادرها الرئيسة كتاب الله أولا وسنة رسوله المحققة ، يتلوها إجماع علماء المسلمين والقياس الذي ينشئ حكما لأمر جديد قياسا على مثيل مشابه له مما يوجد له حكم . . ويولي بعض الفقهاء اعتبارا لمصادر ثانوية أخرى ، وما خرج عن هذه الدائرة فمرده إلى الاجتهاد الفقهي الذي يهدف إلى تحقيق مصالح الناس في ظروف الزمان والمكان والإمكان ، شرط ألا يناقض القرآن والسنة ، وقديما قيل في ذلك حيثما كانت المصلحة فثم شرع الله . وقام علم أصول الفقه يبحث في الأصول التي تستنبط بها الأحكام بينما علم الفقه مادته تلك الأحكام ذاتها . ومقاصد الشريعة خمسة هي حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل وتحت كل منها فروع وفروع وفروع . ومصالح الناس إما ضرورية أو حاجية أو تحسينية تراعي بهذا الترتيب ، وتصنيفها إما واجب أو مندوب أو مباح أو مكروه أو محرم . . وأوسعها رقعةً المباح لأن الأصل في الأشياء الإباحة ولا حرمة إلا بدليل .

ولا يوجد فعل من أفعال الإنسان فردا أو جماعة إلا وله حكم في الشريعة الإسلامية :

أما أحكام العبادات فثابتة واضحة كما جاء بها القرآن وعلمها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي أحكام توقيفية لا تدخل في باب النقاش أو الاجتهاد أو الجدل وذلك بطبيعة الحال في جوانبها الكلية ، وهي أوامر تسمع فتطاع وليس لنا أن نتقدم عنها أو نتأخر .

وأما المعاملات فقسمان : أحكام كالحدود وردت بنصها في القرآن فهي لذلك أيضا ثابتة لا تعبث بها يد . وأخرى غير نصية تُرك فيها لعلم الفقه مجال للحركة والتصرف في غير مجافاة للقرآن والسنة .

وثوابت الشريعة محدودة لم تشغل من الفقه إلا حيزا محدودا ، أما غالبية الأحكام فهي نتاج التفكير البشري ، وهي عماد تراثنا الفقهي الضخم من مذاهب

ومدارس وآراء ، وهي قابلة للتطور ، فعندما سئل عمر عن مسألة واحدة في عامين متواليين أعطى إجابتين مختلفتين ثم قال أفتينا بما علمنا ونفتي بما نعلم . وعندما كتب الإمام الشافعي مذهبه في بغداد ثم رحل إلى مصر وجد أن ما يصلح هناك لا يصلح هنا فأعاد كتابة المذهب ، وتعددت الآراء بين من توفرت لهم أهلية الفتيا فكان في هذا التعدد سعة وبركة ، ولم يختلفوا على الأصول ولكنهم اختلفوا في الفروع والاختلاف في الفروع جائز ، بل إن الصحابة حول الرسول كأبي بكر وعمر كانت تختلف آراؤهم في الأمر الواحد فلا يتعكر صفو الأخوة في الله أو ترتفع العقائر بالتجريح والاتهام كما حدث في الزمن الأخير عندما حبس الناس أنفسهم في الفروع فلم تنهض الأصول أن تربط بينهم وتلم على المحبة في الله شملهم .

ويوم يكف العقل البشري متمثلا في المجتهدين من فقهاء المسلمين عن مواكبة العصر - ويمثل سرعته - في مجال استنباط الأحكام للجدائد والمحدثات ولو لم يكن لها سوابق في كتب السابقين يرجع إليها ، نكون قد حكمنا على الشريعة بالعقم وبطلت دعوانا بأن شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان .

وطالما كان الفقيه المسلم محجما عن اقتحام الجديد بالرأي الجديد النابع من فكره ومن اجتهاده فقد ظلم الشريعة وعطل مسيرتها . ومن الأسف أن نرى أن الفعل المنعكس التلقائي لدى الكثيرين كلما جوبهوا بجديد هو الانكفاء على الكتب القديمة وهو يعلمون أنها كتبت في زمن لم تكن قضايا العصر معلومة ولا متخيلة فيه ، لقد آن الأوان أن نقول لأنفسنا إن السابقين قد فكروا فحكموا فلماذا لا نفكر نحن ونحكم ، نفكر لأنفسنا كما فعلوا ونقطع حلقة الاعتماد على فكر الغير والإحجام (وأحيانا الخوف) عن المجاهرة بفكرنا .

وأسوأ من ذلك من يتعجل الحكم قبل أن يتقن فهم ما يحكم فيه . والقاعدة الشرعية أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره . وهو أمر غير نادر الحدوث كما يعلم كل من يرى ومن يسمع . وأذكر مرة أنني حضرت مؤتمرا دوليا في السبعينات قدم فيه أحد الفقهاء بحثا في موضوع عمليات التعقيم ، وكان البحث طويلا عريضا سخيا

ولكنه لم يتناول موضوع التعقيم وإنما تحدث عن الإخصاء . ولعل من بشريات الخير أن نشأ اتجاه في العقود الأخيرة إلى أن تنبني هذه الأحكام على دورات يشارك فيها الفقهاء أهل التخصص العلمي في الطب أو الاقتصاد أو غيرها من معارف العصر ، ليكون الرأي عن دراية شاملة وإحاطة تامة .

ثم يبقى في باب المعاملات بند الأخلاق . وهو البند الذي مجاله خارج المحاكم والأحكام والقوانين . . إن الأحكام تمثل السور الذي لا نتجاوزه ولكن الأخلاق تمثل الرقعة التي نعيش عليها وقد نجتاز حياتنا ولم نلمس السور قط . ولعل مساحة الأخلاق تمثل أغلب مساحة الإسلام ، ولعل القوانين إنما وضعت لتحمي الجانب الأخلاقي فإن الأخلاق لا تعيش في فراغ قانوني . وفيما يركز الإسلاميون على أهمية بناء السور وتنفيذ قوانين الإسلام (وأنا منهم) ، فيبدو أن الكثيرين منهم أهمهم السور ولم تهمهم الأرض فاختلط عليهم الأمر بعض الشيء . فمما لا ينبغي أن يغيب عن الذهن أن تجربة تطبيق قوانين الإسلام في أمة لم يستقر الإسلام في قلبها وضميرها وأخلاقها هي تجربة مهددة بالفشل لأن الإسلام فيها سيكون كالزرعة الغريبة ، فإما أن يستخفي الناس من القانون ، وإما أن يتحايلوا عليه ، وإما أن يُقهروا قهرا على اتباعه في الظاهر ، والقهر مقيت ، فضلا عن ملء المجتمع بالمنافقين الذين يظهرون غير ما يبطنون .

وكثير من الإسلاميين يرى أن البدء بإصلاح الأخلاق عملية طويلة وعقيمة ، وكنت أنا كذلك من زمن ، حتى تبين لي أن لا وصول إلا عن طريقها وإن طال ، وفي ترتيب الأهميات الإسلامية يكفي أن نستمع لقول النبي عليه الصلاة والسلام : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» . فالأخلاق إذن غاية ، وما سواها وسيلة . . ولا بأس بالتطبيق الشامل لكن مع مراعاة الترتيب وسلّم الأهمية .

ولا يعني هذا أنني من السلبيين أو المستسلمين . وإنما هو حرصي على أن تستكمل الأمة المجاهدة مواصفات الأمة المجاهدة .

وإذا استقر لأمة ـ أو لغالبيتها الكبيرة ـ أمر إسلامها بدءا بالقلب والضمير والخلق لا بالمظهر والزي والضوضاء (وقد أشار الرسول لقلبه وقال التقوى ها هنا) ، فلن يستطيع

جبار أوطاغية أو عدو داخلي أو خارجي أن يقف في سبيلها . وقد لقيت من سنوات زعيم الحركة الإسلامية في إحدى البلاد الإسلامية (!) ممن عرفت حركته بالاعتدال والاستنارة وسعة الأفق ومع ذلك كانت ولاتزال تضطهد وتضرب بلا هوادة ، وقال لي إنهم يضيقون علينا لدرجة الخنق وأشعر أن لا محالة من الاصطدام ، فقلت له حذار ، وإياك أن تتحرك تحت شعور أن الرأي العام يؤيدك ، ولكن انتظر حتى تكون أنت الرأي العام .

تطبيق الشريعة

ويكاد يكون الشغل الشاغل للعاملين في الساحة الإسلامية هو مسألة تطبيق الشريعة الإسلامية . ولا أشذ عن ذلك بطبيعة الحال وإلا كنت شاذا على الإسلام . وفي وردي اليومي : «اللهم وفقنا لخدمة دينك ، وإعلاء كلمتك ،ونصرة شريعتك ، والدعوة إليك» . ولكنها كلمات اتسقت في خاطري حين أدركت أن ذلك التطبيق قد يكون صائبا وقد يكون خاطئا . ولا عتب على الشريعة في ذلك فمآل الأمر إلى من يتصدى للتطبيق ، وعلى فطنته وذكائه ومبلغه من الفقه .

يحسب بعض البسطاء (وهم عادة ساخنو الحماسة مرتفعو الصوت) ، أن الشريعة قالب مصبوب ودفتر جاهز أو قرص كمبيوتر ما عليك إلا أن تديره فيدور . ويغيب عن ذهنهم أن الشريعة الإسلامية تحمل في ثناياها عناصر مرونتها . وأن منها ما يقبل أن يتغير بتغير الظروف بجانب الثابت الذي لا يقبل التغيير والأخير هو القليل القليل . ولا يدركون أن كثيرا مما بين يدينا الآن لم يعد صالحا للعصر الذي نعيش فيه أو للبيئات الجديدة التي أصبحت تؤوي أعدادا كبيرة من المسلمين كأقليات . وما يكاد أحد يقترح جديدا حتى تبرز التهم الجاهزة من مكامنها بأن فلانا يريد أن يغير الشريعة ويبدل دين الله فهو إذا كذا وكذا وابن كذاوكذا . ونتيجة للتخلف العقلي تسبغ قداسة لا أساس لها على ما اشتملت عليه الكتب القديمة من آراء السلف . وقد فاتهم أن السلف كانوا المجددين والمفكرين والمبتكرين في عصرهم ، وظنوا أن الجديد يظل جديدا على مدى القرون ، وليت شعري ماذا يحدث لو أنني اليوم عالجت مرضاي

بطب ابن سينا عبقري زمانه أو الرازي حكيم عصره؟ كل العلوم تنمو فكيف يقبل أن يظل علم الفقه مكبوت النمو؟

إن الحاجة ماسة إلى أن يعرض كل ما بين أيدينا للمراجعة الشاملة المخلصة الجريئة فيثبت ما هو صالح ويبدل ما يجب أن يتغير ، وكأني بأصابع الاتهام وأصوات الاستنكار بدأت تتجه إليّ من الآن . لا . وقّروها . فلا أدعو لتحليل حرام أو تحريم حلال أو مخالفة الشريعة أو الاجتراء على معلوم من الدين بالضرورة : ولكن في الشريعة سعة فلا تضيقوها وسع الله عليكم .

ومن القضايا الملحة صياغة الفقه الدستوري الذي يبين منهاج الحكم وصلة الحاكم بالمحكوم وحقوق الفرد وسلطان الأمة ، فهذا الباب من الفقه مازال قاصرا قصورا كبيرا .

والحاجة ماسة كذلك إلى كتابة فقه الأقلية . إن الفقه كتب والمسلمون أغلبية في بلادهم . وكانت الدنيا مقسمة إلى دار إسلام ودار حرب . . واليوم تعيش كتل كبيرة من المسلمين مواطنين في دول غير إسلامية ويشكلون فيها أقليات في ظل أوضاع وأعراف وقوانين مختلفة عما في بلاد المسلمين (ولا أدري أهذا من حسن الحظ أم من سوئه) . وأول ما يتبادر لذهن القارئ العربي أن هؤلاء يعيشون في الغربة ، وأنهم في مهجر ، وهي فكرة ساذجة وغير صحيحة فكما أن هناك العربي المسلم فهناك الأمريكي المسلم والبريطاني المسلم ، هو مواطن في بلده لا يشعر أنه غريب أو ضيف إلى حين . وتطرح المواطنة لهذه البلاد ألف سؤال وسؤال حول اجتهاد المسلم في التوفيق بين دينه ومعيشته ، وهي أسئلة لا أظن علماء المشرق يملكون الإجابة عنها ، لأن الحكم على الشيء ـ مرة أخرى ـ فرع عن تصوره ، فإن أفتوا فقد أفتوا عما لا يعرفون . وهي غلطة يقع فيها كثير من العلماء ومن العامة . وإذا كان أهل مكة أدرى بشعابها فلعل أهل لوس انجيلوس أيضا أدرى بشعابها كذلك . أو غيرها من البلاد .

ولا نظن أن قسمة العالم إلى دار إسلام ودار حرب نظرية ذات موضوع في زمننا الراهن ،فكم من دولة مسلمة يلقى الإسلام فيها العداوة والضراوة ويلقى المسلمون

القهر والتنكيل ، على حين يتمتع المسلمون في بلاد غير إسلامية بحريتهم في ممارسة دينهم والدعوة إليه تحت مظلة ن حماية القانون ما لم ينتهكوا القانون . ونرى أن الأجدى على المسلمين أن يقسموا العالم إلى دار إسلام ودار دعوة ، وإن كانت الدعوة تعتبر جريمة في بعض بلاد المسلمين مع الأسف الشديد . ولما كانت شجرة الإسلام (وشجرة الإنسانية) لا تنمو في غياب الحرية ، فإننا نأمل أن يكون غرس الإسلام في البلاد التي تعترف بالحرية إيذانا بخير كثير للإنسانية كلها .

ولقد يختلط الأمر على كثير من الناس ـ علمائهم وجهلائهم ـ بين ما هو دين يجب الحفاظ عليه وبين ما هو عرف وإلف وعادة قبلية أو اجتماعية ولو لم يكن بينها وبين الدين نسب ولا سبب . وأسوأ شيء أن تخلع على أمر من الأمور أنه دين وهو ليس كذلك .

من سنوات صدر رأي بأن قيادة المرأة السيارة حرام . ولا ندري المسوغات الشرعية لهذا الرأي . ولقد ركبت المرأة الفرس والناقة قديما فمن أين جاءت حرمة السيارة .

وقادت بعض النساء السيارة فاتهمن بأنهن عاهرات ، ولا أدري أي الجريمتين أشنع وأفدح : قيادة السيارة أم رمي العفيفات المحصنات بالعهر . ولماذا لم تحاكم أصوات الاتهام بتهمة القذف وتتخذ الإجراءات الشرعية في القضية .

أفهم أن يقال إن ذلك خروج على الأعراف والتقاليد ، ولكن لماذا يزج بالإسلام في الموضوع ثم يتراجع عنه تحت ضغط الإحراج؟

ولقد قرأت في الصحف في أمريكا نموذجا آخر لسوء تطبيق الشريعة في بلد إسلامي قام على أساس الإسلام . مما يحدث أحيانا في هذا البلد أن يُستذل خصم سياسي من قبل الشرطة أو خصومه بتوجه رجال إلى بيته في غيابه والاعتداء على زوجته . وفي إحدى المرات تجرأت المرأة فأبلغت عن الحادث . والنتيجة أن وجهت لها تهمة الزنا فهناك اعتراف من جانبها بحدوث الجماع ولكنها عجزت عن الإتيان بالشهود الأربعة الذين تشترطهم الشريعة . أهذا تطبيق للشريعة؟ حتى التحقيق بأدواته

من الطب الشرعي والتحليل وعينات حمض النوويك ومضاهاتها بالمتهمين ، لم يتم ، لأن الشريعة لا تطلب ذلك !

هذا استهتار بالشريعة : والقاعدة البديهية أن كل أمر ينطوي على ظلم محال أن يكون من الشريعة .

ثم هذا حكم إسلامي في بلد آخر يستفتح عهده بإغلاق مدارس البنات وطرد الموظفات من النساء وكأن طلب العلم ليس فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وكأنما حرم الإسلام على المرأة حق تحصيل الرزق بالعمل الشريف . . ثم هو يعاقب بالضرب من حلق لحيته أو هذبها من الرجال . . وغاية ما يقال عن تربية اللحية أنها سنة : فمن حول السنة إلى فرض فقد غير الدين وإن حسب أنه يحسن صنعا .

ومن ظواهر الخلل في الترتيب كذلك أنه في التجارب القليلة التي نجح فيها الإسلاميون في تولي الحكم ، كانت البداية التقليدية هي قطع يد اللصوص وفرض الحجاب على النساء . . ولكن سرعان ما يدب الفساد إلى الحكم ويعاني الاقتصاد وتصفى الحسابات القديمة ويحرس النظام نفسه بالجيش والبوليس وتنطفئ حرية الرأي المخالف في التعبير عن نفسه ويضيق صدر الناس بعد الفرحة الأولى ويهاجر من البلاد خيرة الكفاءات العلمية والثقافية . . وكأننا استبدلنا بدكتاتورية سبقت دكتاتورية لحقت هي أنكى وأفدح لأنها تتلفع بعباءة الإسلام وتضع على رأسها عمامته فالاختلاف معها إثم وانتقادها كفر . وقد لقيت في أمريكا عددا كبيرا من المثقفين النازحين فرارا من وجه أحد الأنظمة الإسلامية ، بل إن منهم من كان طول عمره يصلي ويصوم فتوقف عن ذلك قائلا إن كان هؤلاء يمثلون الإسلام فلا حاجة لنا بإسلامهم ! ومما يطمئن الخاطر أنهم في مقامهم الجديد في أمريكا وفي جو الحرية وبالالتقاء بعقليات مسلمة ناضجة قد شرعوا في العودة إلى الإسلام أفواجا وانتسبوا أو أقاموا المؤسسات التي تعلمهم وتعلم أبناءهم الإسلام على وجهه الصحيح السمح المحبب .

تمنيت لو استحضرت هذه الأنظمة سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما تم له النصر فأخذت بمنهاج «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ، وأصدرت عفوا عمن يعطي عهد

الولاء للنظام الجديد وإلا كان حرا في الرحيل ، بدلا من قتلهم وعرض صور جثثهم في التلفزيون ووسائل الإعلام .

من النفوس مُحبة وكارهة . وإنك بالكره تستطيع أن تخلع حاكما أو تقوض عرشا أو تجهز على نظام . فإذا أزمعت البناء فالحب وحده هو القادر على البناء ، ولن تقوم دولة ـ ولو للإسلام ـ إلا على أساس المحبة .

منذ سنوات فازت العناصر الإسلامية في الانتخابات في إحدى الدول وأصبح المتوقع أن يتولوا زمام الحكم . فرحت بالانتخابات الحرة في بلد مسلم . وفرحت بفوز الدعاة إلى الإسلام . لكني كذلك أحسست بالفرق والإشفاق من أن تواتي الفرصة ثم تفضي إلى الفشل . كنت قلقا على الإسلام من أعدائه لكنني أيضا كنت قلقا عليه من أبنائه . وعلى غير معرفة بهم كتبت خطابا إليهم أخلص لهم النصح لوجه الله تعالى . لكن كانت الحوادث أسرع من خطابي فلم يتح لي أن أبعث به ، فلا بأس أن يرى النور بعد هذه السنوات على هذه الصفحات . قلت :

«يا إخوة الإسلام . . نحمد الله إليكم ونحييكم ونسلم عليكم فسلام الله عليكم ورحمة الله ،

جلجلت هنا أنباء فوزكم فتباينت أصداؤها ، فمن قائل إن الجيش سيتدخل ، إلى قائل إن الفخ المنصوب هو أن تتولوا الحكم ثم تفشل التجربة ، فيكون في ذلك القضاء عليها وعلى غيرها في شتى ربوع العالم الإسلامي . لهذا نسأل الله أن تكون ساعة النصر هي ساعة إلجام العواطف بالعقول ، وساعة فرحنا لكم هي ساعة التواصي بالحق والتواصي بالصبر ، والدين النصيحة كما يقول نبينا عليه الصلاة والسلام ، فنود أن نشير إلى نقاط ما نحسبها بغائبة عنكم ولكنها تذكرة لله وفي الله ، لا خير فينا إن لم نقلها ، وأنتم إن شاء الله لها منصتون :

(١) أعلنوا الناس بالأمان . . وبأن الإسلام دين السلام . . وبأن النبي لحظة انتصاره قال لأعداء الأمس اذهبوا فأنتم الطلقاء . فأعداء الإسلام يروّجون أنه دين المرارة والعنف والانتقام ، يسايرهم بعض الجاهلين بالإسلام من المنتسبين إليه .

(٢) الفرق بين الحكم الإسلامي والأسلوب الديمقراطي هو أن الأول يلتزم بالشريعة دستورا بينما لا يتقيد الثاني بشريعة . . وفيما عدا هذا فالآلية الديمقراطية أقرب إلى الشورى الإسلامية على عهد الرسول والخلافة الراشدة . . ولم تكن نكبة المسلمين على مدى تاريخهم منذ الفتنة الكبرى إلا الاستبداد والدكتاتورية وليس الشورى أو الديمقراطية ، ولا تشفع فترات كان الحاكم فيها صالحا ، فقد ضمرت طاقات الأمة عن التفكير لنفسها وحمل عبئها . وقد كان الإسلام دائما هو الضحية الأولى والكبرى للاستبداد في القديم والحديث .

(٣) لقد بذلتم الكثير لهدم الاستبداد . . والآن دور البناء وهو أصعب بكثير من دور الهدم ، خاصة بناء النفوس والأخلاق والوجدان الإسلامي . . فهذا لا يأتي بقرار ولا بقانون ، ولا يجدي فيه قسر الناس على المظهريات أو الأزياء أو السلوكيات ما دامت القلوب خواء . لا بديل عن الضمير في الإسلام وعن تربية الفرد أن يزجر نفسه بنفسه ، وأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . وفي منهاج الرسول عليه السلام سبقت التربية القانون حتى لا يكون القانون غريبا همُّ الناس أن يستخفوا منه ويتحايلوا عليه . وفي تقديرنا أن شعبكم المسلم المؤمن سيسارع طواعية إلى التخلق بأخلاق الإسلام ، ومتى صلح الباطن صلح الظاهر عما قريب .

(٤) وفي تقديرنا أن من أوليات الواجبات «الإسلامية» أن تنتج بلادكم رغيف خبزها الذي يطعمها كل يوم . . فمن كان قوته بيد غيره فالاستقلال وهم وهباء . وفي ذلك فلتستفرغ طاقة الشباب وحماسه وغيرته الإسلامية .

(٥) ونريد للناس أن تحب الإسلام فهذا شرط لإقبالهم عليه وتخلقهم به أو ربما دخولهم فيه إن لم يكونوا مسلمين (كما هي تجربتنا في أمريكا) .

وقد ختمت النبوة ولكن الدعوة قائمة ، وأساس الدعوة الترغيب والتحبيب (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) . . فليع هذا المسلمون وعلى رأسهم شبابهم الممتلئ بالحماس والغيرة على دين الله .

(٦) ثم إن أعداء الإسلام يروجون أن الإسلام دين شرقي وأن بينه وبين الغرب عداوة طبيعية ، مع أن الإسلام رحمة للعالمين ودعوة عالمية . وندرك هنا أن بالغرب سياسات طاغية انعقدت على كراهية الإسلام لما تتوسم فيه من تهديد لمصالحها الاقتصادية الظالمة أو لمذاهبها الأخلاقية المنحرفة . . لكن هنا أيضا جماهير عريضة لا تعرف عن الإسلام إلا ما يقدمه الإعلام أو ما تطالعه في أعمال المسلمين مما يسيء لسمعة الإسلام . . فلا بد إذن من خطة للعلاقات العامة تخترق نطاق التشويه وتصل العالم بحقائق الإسلام .

ولا بد أن يطلع الإسلام على العالم بوجه مبتسم ودعاء هادئ وبيان مقنع .

إن العالم يحمل في حضارته المعاصرة جراثيم فنائه ، ودواؤه في تعاليم الإسلام ، بقي أن نستطيع أن نقنع المريض أن ما نقدمه دواء يشفي وليس سما يقتل .

إن ما يحدث في بلادكم فرصة مواتية وتجربة ثمينة وعزيزة ،إن نجحت فقد تكون نقطة تحول في مجرى التاريخ العالمي . .

وهي تجتاز معركة ذكاء لا معركة إخلاص فحسب . وندعو الله أن يهيئ لها أسباب النجاح . والسلام عليكم رحمة الله وبركاته» .

انتهى الخطاب بنصه لولا أنني جريا على عادتي لم أذكر اسم البلد وإن كنت لا أخفي ما هو معروف للجميع ، ومعروف كذلك ما تلاه من حوادث مؤسفة ويا لهفي على الإسلام .

والخلاصة أن الشريعة الإسلامية تحمي المجتمع من الجريمة بثلاثة خطوط دفاع : الأول الضمير والتقوى وهي مهمة التربية والتعليم والإعلام ، والثاني منع الأسباب التي تحمل على الجريمة بما في ذلك الإصلاح الاقتصادي الشامل ، والثالث والأخير هو قانون العقوبات ، فمن طبق الشريعة من أولها لآخرها نجح ، ومن راح يطبقها من آخرها لأولها (أو يطبق آخرها فقط) فقد فشل في الأول والأخير . وها هو ذا عمر ابن الخطاب يعلق تنفيذ حد السرقة خلال عام المجاعة ، ويأتيه رجل بخادميه سرقا منه فقالا لا يطعمنا ، فرفض الدعوى وقال لسيدهما إن سرقا مرة أخرى لأنك لا تطعمهما فسأقطع يدك أنت .

عن القرآن والسنة

القــرآن

القرآن كتاب الله المعجز . وتراثنا غني بما كتب في السابق واللاحق عن إعجاز القرآن . ولا ننوي هنا أن نضيف قطرة إلى البحر ، وإنما تأملت فاستبانت لي معجزات قرآنية ثلاث أحببت أن أميزها وأعقب عليها .

أما المعجزة الأولى فهي المعجزة البلاغية . وهي التي طالعت العرب أول نزول القرآن وطالعوها فوقفوا أمامها مشدوهين . ورغم ما استقر في نفوس المسلمين على مدى تاريخهم من تقديس للقرآن وإعزاز له وترديد لإعجازه فما نحسبنا نجانب الصدق إن قلنا إن هذه المعجزة التي أخضعت رقاب الأوائل قد فاتت على الكثير ممن وراءهم من حيث هي معجزة . فكم من الملايين من المسلمين قرأوا القرآن ولا زالوا يقرأونه بخشوع ومحبة ولكن دون أن يتبينوا فيه الإعجاز إلا من أتقن العربية إتقانا كاملا وقليل ما هم ، فضلا عمن يتمتع بالقرآن يتعبد بالقراءة على مشقتها وله أجره المشكور . وكم من المستشرقين تصدوا لدراسة القرآن فما كادوا «يفكون الخط» ويأخذون من اللغة العربية بأدنى نصيب حتى أصدروا أحكامهم على البلاغة القرآنية ، فمنهم من جرده من البلاغة ، ومنهم من وسمه بالهلهلة البيانية ، وقد يكون رأيهم هذا مبنيا على مدى اجتهادهم ولكن يبقى الأمر على مدار قول المتنبي :

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

ولئن مهدنا العذر لفهمهم القاصر عن إدراك المعجزة اللغوية للقرآن ، لقد وجدنا من المحال أن نعفي العلماء منهم من تهمة التفريط في قاعدة علمية أصيلة وهي أن الشيء يكشف عنه بكشّافه الخاص المناسب . فإن أراد عالم الكشف عن وجود كهرباء فلذلك جهاز خاص . وإن أراد الكشف عن الإشعاع النووي فلذلك جهاز خاص . وإن أراد الكشف عن المغناطيسية فلهذا جهاز خاص . إن أكبر علماء الكيمياء لووضع إصبعه في محلول حمضي لما احمرت إصبعه أو في محلول قلوي لما ازرقّت ، على

حين أن شريطا من ورق عباد الشمس يتلون بهذين اللونين إن غُمس في هذين المحلولين . . فإنه هو الكشاف الصحيح للحموضة والقلوية وإن لم يدر من علم الكيمياء شيئا .

وورق عباد الشمس لنا ـ أي الكشاف الصحيح ـ في مقام إعجاز القرآن اللغوي هو هؤلاء العرب الأولون الذين نزل عليهم . الذين كانت البلاغة محور حياتهم وغاية رأسمالهم وقصارى ذواتهم . . الذين ملكوا ناصية البيان العربي فتحداهم القرآن في صميم نبوغهم . فإذا الواحد منهم يحارب الإسلام بسيفه ثم لا يسعه في القرآن إلا أن يقول : «والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة . . . الخ» . هذا وأمثاله هو الكشاف الذي يجب أن نعتبره فيصلا وفارقا بين كلام من صنع البشر وكلام جاوز طاقة البشر ـ بين كلام إنساني وكلام إلهي . وعندما يسمع رجل مثلي من المتقدمين أو المتأخرين عربيا أم غير عرب أن شخصية قوية مهيبة كعمر بن الخطاب يستبد به الغضب إذ يسمع أن أخته أسلمت فيذهب ليعاقبها ، فما أن يستمع لآيات من سورة طه حتى ينثني على عقبيه عائدا إلى ملأ الكفار ليشهر أنه آمن أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ! عندما نسمع ذلك نجد دليلنا على الإعجاز اللغوي للقرآن بصرف النظر عن حصيلتنا من اللغة العربية . فإذا أكرمك الله فازددت بهذه اللغة علما وبأسرارها بصرا ، تكشفت لك إذ تقرأ القرآن آفاق وأعماق لا تبين لغير المتمكن ، وتوغل في اللغة حتى تقف على عتبات الإعجاز وتتصل بآياته القاهرات .

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن قوما من بني العرب المحدثين يزعمون أن العلم في عصرنا قد تقدم لدرجة لا تتيح للغة العربية أن تستوعبه أداء وتعبيرا فلا بد أن يستمر تدريس العلوم باللغة الأجنبية . ولا نتصور أن اللغة التي وسعت الإعجاز القرآني يمكن أن تضيق عما دونه . وإنما الآفة في احترام النفس ، ولو احترمنا أنفسنا لاحترمنا لساننا كما يفعل غيرنا في العالم من حولنا ، بل كما فعل عدونا المغمد في صدر أمتنا حين ذهب إلى مقبرة التاريخ فاستخرج لغته الدارسة وجعلها لغة الكتاب والخطاب والعلم والعمل .

أما المعجزة الثانية فمعجزة المحتوى القرآني . المعجزة المعنوية التي مست قلوب الناس فغيرتهم إلى طراز جديد من البشر . معجزة التغيير فإذا الأسماء والجسوم والرسوم هي هي ولكن شتان بين ما كانت وما أصبحت . كانوا باختصار ناسا أخلاقهم الجاهلية فصاروا ناسا أخلاقهم القرآن . قرآنهم في قلوبهم أولا ثم هو بعد ذلك في ديوان حاكمهم ومحكمة قاضيهم ونظام معاملاتهم وصلتهم بمن سواهم . تلك كانت المعجزة التي قرأها الناس ولما يقرأوا العربية أو يفهموا القرآن فضلا عن بلوغ مذاق الإعجاز البلاغي فيه . ولقد مرت الشعوب المحررة بمرحلتين إزاء الفاتحين المسلمين . . المرحلة الأولى سمعة طيبة توسموا من جرائها أن المسلمين كافلون لهم حريتهم الدينية التي بغى عليها الطغاة من الفرس والروم . . حتى إن مصر المسيحية كانت في براثن القهر من روما المسيحية التي أرادت أن تفرض عليها مذهبها ، فكان أول عمل لعمرو بن العاص بعد انتصاره أن استدعى الأنبا بنيامين من مهربه بالصحراء الغربية ليجلس على عرش الكنيسة القبطية من جديد . . أما المرحلة الثانية فقراءة تلك المعجزة القرآنية في أخلاق المسلمين وتعاملهم ، فإذا بالمطمئنين في مسيحيتهم تدخل غالبيتهم طواعية واختيارا في هذا الدين الجديد وقد أدركوا أنه الامتداد الطبيعي والصحيح وخاتمة المطاف لناموس الله الذي جاء به الأنبياء مرورا بإبراهيم وموسى وعيسى إلى محمد عليهم السلام . ونقول دخلوا الإسلام طواعية واختيارا فقد كان القرآن صريحا أنه «لا إكراه في الدين» ، وخلا تاريخ الإسلام من القهر على الدين كما حدث في تاريخ أوروبا وفتح أمريكا الجنوبية وغيرها .

ويصور بعض الناس الجزية التي فرضت على من بقي على دينه على أنها ضغط اقتصادي نحو الإسلام ، ناسين أن الجزية كان يعفى منها غير القادر ، وأن من دخل الإسلام رفعت عنه الجزية وفرضت عليه الزكاة . وهي ضريبة على المسلمين فقط وكانت عادة أكبر من الجزية . . وإنما كانت الجزية ضريبة لقاء الإعفاء من الخدمة العسكرية وإسهاما في نفقات الدفاع ، وقد ردها أبو عبيدة بن الجراح لأهل حمص لما انسحب منها جيشه .

ومن الطريف أن ضريبة شبيهة بذلك كان معمولا بها في مصر إلى عهد قريب اسمها البدلية ، على المسلمين أو المسيحيين الذين يودون الإعفاء من الخدمة العسكرية .

وفكرة الجزية الآن في ذمة التاريخ فقد رضي الجميع في بلاد المسلمين أن الدفاع عن الوطن واجب الجميع مسلمين ومسيحيين ، بالدم والمال وليس بالدم من فريق والمال وحده من الفريق الآخر .

ثم نأتي إلى المعجزة الثالثة العصرية ، وهي ما اشتهر مؤخرا بالإعجاز العلمي للقرآن ، وألفت فيه الكتب والرسائل وعقدت له الندوات والمؤتمرات . وأين كانت هذه المعجزة طول القرون فلم تطلع شمسها إلا في الزمن الأخير؟ ونقول في ذلك إن شمس العلم كذلك لم تكد تبزغ حقا إلا في الزمن الأخير . ومثلما كان من شروط إدراك المعجزة اللغوية وجود قمة لغوية ، فمن شروط المعجزة العلمية وجود مستوى علمي رفيع ، وها نحن أولاء نعرف أن الإنسانية قد حصلت من العلم في القرنين الأخيرين أكثر مما جمعت في كل تاريخها السابق . ونعلم أن التقدم العلمي آخذ في التسارع ليتضاعف رصيدنا العلمي تماما في السنوات العشر المقبلة ، فالمسرح إذن مهيأ لتبصر الإنسانية في القرآن معجزته الثالثة مستقلة عن معجزة اللغة فمكان العربية في عالمنا المعاصر مكان هامشي ، ومستقلة عن معجزة الأخلاق إذ لا نظن أ العالم الإسلامي الآن يجرؤ أن يدعي أن واقعه المعاصر ترجمان أمين للقرآن أخلاقا ومنهاجاً ، ومع ذلك فهي المعجزة التي أفضت بعدد من علماء الغرب أن يعلنوا أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من صنع بشر ولا يمكن أن يكون مؤلفه محمدا ، ومن يقرأ كتاب الطبيب الفرنسي موريس بوكاي «الإنجيل والقرآن والعلم» يجد شاهدنا على ما نقول ، ويجد تفسيرا لدخول طائفة من علماء الغرب الإسلام دون أن يعرفوا العربية ودون أن تغريهم أحوال العالم الإسلامي المعاصر ـ العالم الثالث ـ وبالتأكيد دون أن يضع أحد السكين على رقابهم ليجبرهم على اعتناق الإسلام . إن في القرآن ذكرا لحقائق علمية ثابتة لم تعلم بها الإنسانية إلا من بعد نزوله بقرون طوال ، ومحال أن تكون في علم محمد أو أحد من معاصريه ، والتفسير الوحيد هو أن القرآن كتاب الله وليس كتاب محمد .

ونسارع فنقول إن القرآن المعجز ليس كتابا في العلوم الكونية . وأن الذي يريد أن يشتغل بالبحث العلمي - أي استكناه سنه الله في خلقه - فأمامه الكون بموجوداته أو المختبر (المعمل) بأجهزته وآلاته ، وعليه العمل الدائب والصبر الطويل وليس غير ذلك من سبيل . وغير مقبول من علمائنا المسلمين أن يتخلوا عن الركب أو يتأخروا عنه فيقوم غيرنا بالبحوث والكشوف ويكتفي علماؤنا بالتهليل والتصفيق كلما صادف جديد من العلم مصداقه أو الإشارة إليه في القرآن الكريم . وأعرف من علمائنا من قصروا في الأولى واقتصروا على الثانية ، وأشعر نحوهم بشيء من العتب ، خاصة ممن اعتسفوا في تفسير الآيات أحيانا ومن استهواهم الإعلام والإعلان أكثر مما يجوز أحيانا أخرى . فإذا سلمنا من القصور والتقصير بقي أن نقول إن في القرآن آيات تأخذ بتلابيب العقل العلمي ، يقرأها العالم فيدرك أنه ليس بقول بشر ، ويقرأها المؤمنون فيزدادون إيمانا مع إيمانهم . وعلى سبيل المثال (والأمثلة كثيرة جدا) أذكر تجربة شخصية لعلها أول ما فتح عيني على هذا الباب .

الزمان عام ١٩٤٨ ، والمكان طائرة ذات ثمانية مقاعد من القاهرة إلى مطار اللد في فلسطين أيام النضال . لم تكن الطائرات آنذاك مزودة بالتحكم في ضغط الهواء أو نسبة الأكسجين . صعدت الطائرة وكانت أول مرة أركب الجو ، وبدأ تنفسي يلهث ، وصدري يضيق . . لم يعد هواء الشهيق يكفيني وأحسست كالغريق في غير ماء . . ثقل كبير على صدري وقطرات العرق تغمرني ، واعتراني غثيان وركض قلبي . وكنت أعرف السبب فكلما ارتفعنا عن سطح البحر قلّت كثافة الهواء وقل الضغط النسبي للاكسجين - غاز الحياة - حسبما اكتشفه القرن التاسع عشر . وبعد فترة خلال قراءتي وردي القرآني اليومي لفتتني للمرة الأولى الآية الكريمة : «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصّعّد في السماء» (الأنعام ١٢٥) ، وكأني بعد تجربتي أقرأها للمرة الأولى ، وما عُرف عن محمد صعوده إلى هذا الارتفاع [إلا ليلة الإسراء والمعراج فهذا نطاق آخر] .

ولنا تعقيب صغير على صلة المسلمين بالقرآن . يثيب الله على تلاوته كل حرف بحسنة . . لكن هذه نهاية الطريق بالنسبة لكثير من المسلمين ، وفاتهم أن هذا الترغيب

إنما قصد به بلوغ الدرجة التالية وهي فهمه وتدبره : «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» (محمد ٢٤) . وهذه بدورها تفضي إلى الخطوة التالية وهي بيت القصيد ، وهي مرحلة التنفيذ . القرآن منهاج عمل وصياغة حياة للفرد وللجماعة وللبشرية جمعاء . الرسول «كان خلقه القرآن» كما وصفته زوجته أم المؤمنين عائشة والرسول أسوتنا وقدوتنا ، وكذلك الحال بالنسبة للمجتمع البشري : «إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم» .

أرأيت إلى من تلقى خطابا فلم يقرأه وإنما حفظه بركة من فرط حبه للمرسل؟ أرأيت إلى من يقرأه ولكن لا يحاول أن يفهمه؟ أرأيت إلى من فهمه ولكن لم يعمل بما فيه؟

إن مثل كثير من المسلمين اليوم مع القرآن كمثل مريض أعطاه الطبيب وصفة فأخذ يقرأها ويكرر قراءتها : ولكنه لم يتناول الدواء .

لكن لا بد أن أذكر بالمقابل أن من بين الناس ـ العاديين ـ من هو حساس للقرآن بما يؤثر على تصرفاته . وأحب أن أروي واقعتين طريفتين . كنت مرة أخطب الجمعة وأشرت إلى موضوع الغيبة والآية الكريمة : «ولا يغتب بعضكم بعضا . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه» (الحجرات ١٢) . وجاءني بعد الصلاة رجل من بسطاء الناس في المركز الإسلامي لجنوب كاليفورنيا ، وانتحى بي جانبا ليقول لي : «يا دكتور حتحوت . . إنني تحدثت عنك من وراء ظهرك وقلت كذا وكذا وأستغفر الله وأرجو أن تسامحني» . كان هذا من أسعد أيامي لأنني رأيت فعلا مسلما أدخل القرآن حياته العملية . أما الواقعة الثانية فحدثت لصديق رواها لي . جاءته مكالمة تلفونية من رجل أخبره أنه كان زميله في الدراسة الابتدائية قبل ثلاثين عاما ، ووجه له الدعوة للعشاء . استغرب وسأل وما هي المناسبة ، قال سأعلمك بها عندما نلتقي . وعلى العشاء قال له : أتذكر يوم أخذتنا المدرسة الابتدائية في رحلة إلى مكان كذا؟ وتذكّر الصاحب بجهد . قال أتذكر أنك يومها فتحت الصندوق الذي به غداؤك فلم تجده؟ قال نعم الآن أذكر . قال فإنني كنت الذي رميت غداءك وكنت أحسب أنني أعمل حركة ظريفة .

وقريبا كنت أقرأ في المصحف فطالعت الآية : «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون» (الأعراف ٢٠١) ، وكأن شرارة انقدحت في رأسي فتذكرت وندمت ، ولم أجد كي أستريح إلا أن أعوضك عن غدائك بهذا العشاء ، وأعتذر لك راجيا أن تسامحني . وأستغفر الله . كان غفرانا لطيفا وكأنما تجددت الزمالة من جديد ! وأضاف الرجل : وليس هذا كل ما فعلته اليوم . لقد ذهبت في الصباح لمدرستنا القديمة تلك . قابلت الناظر ورجوت أن أرى أمين المكتبة ، وأعطيته كتابا وقلت إنني استعرت هذا الكتاب من المكتبة منذ ثلاثين عاما وأعجبني فاحتفظت به . وكأنني كنت أعمى فأبصرت من جديد ، فأنا أعيد الكتاب وأقدم الاعتذار وأقدم للمكتبة مبلغ كذا لتضيف به ما شاءت من كتب ! ثم زاد الرجل : وقد أعددت نوتة أسجل فيها كل من أتذكر أنني أسأت إليهم وأفتش عنهم وأعتذر لهم . وكنت أنت من هؤلاء ، ولا تتخيل كيف تغيرت حياتي وأحسست بالسكينة والصفاء والقرب من الله .

هذا هو القرآن العملي والمسلم العامل . وقد ذكر المرحوم محمد إقبال شاعر باكستان العظيم أن والده كان يوصيه دائما : «يا بني . اقرأ القرآن وكأنما عليك أنزل» . ولو اتفق ذلك للمسلمين لأصبحوا في خلق جديد .

السـنّـة

زرت مرة دولة الإمارات العربية لإعطاء محاضرة في الجامعة . تعرفت على أستاذجليل وكأن الأرواح جنود مجندة . صرف سيارة الجامعة وتكفل هو بتنقلاتي في صحبته . قال لي مرة أثناء حديث بيننا : إنني أنوي الزواج قريبا إن شاء الله . استغربت وسألته وهو أستاذ شريعة : للآن لم تتزوج؟ قال بلى إنني متزوج . قلت إذن لم ترزق ذرية؟ قال عندي ثلاث بنات والحمد لله .قلت فأنت إذا تريد صبيا؟ قال أبدا . . سيان عندي والحمد لله . ولم أر بدا من ذكر الاحتمال الباقي فقلت : لا بد إذن أنك غير موفق مع السيدة وأنها تنغص عليك حياتك؟ قال لا والله . ولا يمكن أن ألقى خيرا منها . . تحبني وترعى شؤوني وتسعدني وتبذل جهدها في العناية بي وبالبنات . وزاد استغرابي فسألته بين التعجب والإنكار : إذن لماذا تريد أن تتزوج؟ . . قال لا والله ما عندي إلا دافع واحد : السنّة ! السنّة ! سألته وأنا أحاوره : هل تعتقد أنها ستكون سعيدة بزواجك؟ قال لا طبعا بل شقية كل الشقاء . سألته هل السنة أرجح لديك أو القرآن؟ أجاب القرآن طبعا . قلت وتقول إنها تسعدك كل السعادة وزواجك يشقيها كل الشقاء؟ قال نعم . قلت فأين أنت من قول الله تعالى : «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟» . أطرق الأستاذ ثانية أو اثنتين ثم قال على الفور : إذن فلن أتزوج .

وزف الرجل قراره الجديد إلى البيت الذي كان شقيا بقراره القديم . وجاءتني دعوة لحفل شاي فاخر في بيته في المساء شكرتني فيه الزوجة والبنات . وأحببت الرجل وقتها حبا شديدا لأنه لم يجادل وأبصر حقا فنزل عليه .

كان هذا نموذجا ـ ولعله شائع ـ لاستقراء السنة قصد اتباعها . ولا نقول إن تعدد الزوجات حرام ، ولكن نقول إن اتباع السنة لا يغني عن النظرة العقلية الواعية . والواقع أن من يدرس الحياة الزوجية للنبي صلى الله عليه وسلم يجدها تنقسم إلى دورين : الأول خمس وعشرون سنة مع زوجة واحدة هي أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها حتى ماتت ، والثاني عشر سنوات تعددت زوجات النبي فكان لكل زواج قصة ومبرر إنساني أو سياسي أو اجتماعي ، في مجتمع لم يكن يرى في ذلك حرجا

ولا غرابة . وهذا الدور الثاني تبين أنه ليس مفتوحا أمام المسلمين للاتباع دائما وإنما اعتمد للنبي خصوصية ليست لغيره . فعدد زوجاته عليه السلام كان أكثر من الأربع وهو الحد الأقصى للمسلمين ، ثم حرم عليه أن يطلّق واحدة ليتزوج مكانها زوجة جديدة بينما أبيح ذلك للمسلمين . وحرم على زوجاته الزواج بعد وفاته وأبيح ذلك لأرامل المسلمين . ووعدت زوجاته بضعف الجزاء إن أحسنَّ وضعف العذاب إن أخطأن ، وخاطبهن الله بقوله : «**يا نساء النبي لستن كأحد من النساء**» (الأحزاب ٣٢) . فمن أراد أن يبني التعدد عل أساس السنة وحدها ، فهل يرى الأرجح أن يَقْفُوَ النبي في الدور الأول أو في الدور الثاني من حياته الزوجية؟

وفي معرض الحديث عن موضوع تعدد الزوجات ، نرى أنه يطرح باستمرار في كل محاضرة عن الإسلام لغير المسلمين أو حوار معهم في العالم الغربي . والرد الذي يفحمهم ـ والذي لا ينتبه له المحاضرون المسلمون إلا في النادر ـ هو أن من الخطأ الشائع أن الإسلام ابتكر تعدد الزوجات ، فهو موجود أيضا في اليهودية والمسيحية ، ومطالعة العهد القديم ترى أن الأنبياء كانوا متعددي الزوجات دون أن يتهمهم أحد بمخالفة القانون الإلهي ، وتذكر ذلك الانسيكلوبيديا الكاثوليكية ، واستمر ذلك في تاريخ أوروبا المسيحية قرونا ، ولا تزال الكنيسة في بعض دول إفريقيا تزوج المسيحي الإفريقي أكثر من زوجة لمجابهة الازدياد السكاني للمسلمين كما سمعت بأذني من أسقف كاثوليكي في مؤتمر حضره آلاف الكاثوليك وكنت فيه المسلم الوحيد لأنهم دعوني لأتحدث ضد الإجهاض ، والظاهر أن المحاضر لم ينتبه لوجودي .

هذه في تجربتي هي الإجابة المسكتة . ولم يكن منع التعدد بعد ذلك صادرا عن الدين ، إنما كان أمرا مدنيا محضا بدأ في القرن السادس الميلادي بأن أصدر الامبراطور جستنيان قانونا يحرم رجال الكنيسة الذين يتزوجون أكثر من واحدة من الحق في الترقية ثم تدرج المنع بعد ذلك .

وجد الإسلام إذن التعدد في الدينين السابقين فوضع له حدودا ووضع له شروطا وقيده بقيود صريحة في نص القرآن الكريم . ولا نقول بطبيعة الحال إن الإسلام منع

التعدد وإن كان شعورنا أن المسلمين قد توسعوا في الرخصة واتخذها الكثيرون سبيلا للمتعة الشخصية . وإذا كان الإسلام سمح بالتعدد فإنه سمح كذلك بالاقتصار على زوجة واحدة ، وتظل الأعراف والمفاهيم الاجتماعية وما يألفه الناس في مجتمع ما ذات أثر كبير على هذه الظاهرة . ويبدو أنها كذلك سادرة في الانكماش بين أمة الإسلام على مستوى العالم ، ففي بعض البلاد التي تعيش فيها أقلية مسلمة يمنعها القانون ، وفي بعض البلاد تطور العرف الاجتماعي فلم يصبح التعدد مألوفا ولا مقبولا كما كان في السابق ، وصعود مركز المرأة الاجتماعي بما يتاح لها من التعليم (الذي هو فريضة على كل مسلم ومسلمة) ودخولها ميدان العمل (وهو من حقوقها المشروعة) موجه قوي في اتجاه الزوجة الواحدة ، فضلا عن أن الظروف الاقتصادية للحياة المعاصرة لاتكاد تترك للمسلم العادي ترف فتح بيتين أو أكثر ، إلا في شعوب الدخول الوافرة وهي أقلية ضئيلة بين مسلمي العالم .

ويثور بين الآن والآن جدل وصراع بين الرأيين ، خاصة بين المتحمسين الإسلاميين من جانب والحركات النسائية من جانب آخر (وكثير منها لاينطلق من منطلق إسلامي) ، والرأي عندنا توفير هذه المعركة وترك الموضوع للتطور الاجتماعي الطبيعي فهو كفيل به .

ملاحظة أخرى شهدتها في أمريكا . . دعاوى وممارسات لتعدد الزوجات خاصة بين بعض المسلمين من الأمريكان الأفارقة وفي حالات كثيرة تكون هذه كل حصتهم من الإسلام . والأغلبية منها تنتهي بالفشل أو الكوارث . وكثيرون من الأئمة (ولقب «إمام» هنا لا يتطلب أكثر من أن تطلقه على نفسك) يمارسون ذلك ، والذين يقصدوننا لهذا الأمر لا نستجيب لهم ، ونقول لهم لا زواج إلا ما كان مسجلا في سجلات الدولة حفظا لحقوق الزوجة (التي قد تطرد بعد أشهر وليس معها دليل قانوني على الزوجية) ، ولأن القانون يجرم التعدد والإسلام يأبى أن يأتي المسلم جريمة تفضي به إلى السجن (خاصة والتعدد ليس فرضا يجاهد المرء من أجله) ، وأن الرجل ستكون له زوجتان واحدة معلنة وأخرى سرية ، مما يناقض العدالة التي يفرضها القرآن : «فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة» (النساء٣) .

ونواصل الحديث عن بعض الاجتهادات التي تصدر عن مسلمين قصد اتباع السنة والتأسي بالنبي عليه الصلاة والسلام .

زميل طبيب فاضل من خيرة المسلمين في أمريكا أخذته الحمية الإسلامية مرة فقال لي لقد قررت ألا أساير الكفار وأن أذهب لعملي بالمستشفى بزيّي هذا : والباكستانيون كما هو معروف يلبسون ما يسمى بالقميص والسروال . قلت له هل تعتقد أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يرتدي زيا كالذي تلبسه الآن؟ وإذا كان الزي الإسلامي في نظرك هو ما ترتديه الآن ، فماذا تسمي الزي الذي يرتدونه في المملكة السعودية ، او في اليمن أو في تونس أو مراكش أو ماليزيا والفلبين أو مشايخ الأزهر في مصر؟

إن مفهوم التأسي بالنبي بواسطة زي خاص مفهوم مغلوط . ويفتح المتحمسون ثغرهم دهشة حين نسألهم عن الفرق بين ما كان يلبسه النبي عليه السلام وبين ما كان يلبسه أبو جهل وأبو لهب . لقد كان النبي يلبس ما يلبسه الرجال في مجتمعه في عصره ، ولم يعرف عنه أنه غيّر زيه من أجل الدين الجديد .

لقد وضع النبي قواعد لآداب الزي وستر العورة للرجال والنساء . . وضع قواعد لكنه لم يرسم موديلات ، وعندما أهديت إليه حلة رومية لبسها ولم يعترض هو ولا غيره بأنها من لباس الكفار فيحرم لبسها . ولما نهى أن يجرر الرجل ثوبه خيلاء جاءه أبو بكر يشكو أن إزاره أحيانا ينزلق فيجرر على الأرض ، طمأنه وقال له ولكنك لا تفعل ذلك خيلاء .

إن التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم لا يكون بهذه السطحية وليس بزي كان يلبسه أو طعام كان يحبه . وهو نفسه عليه الصلاة والسلام نبهنا أن ما آتانا إياه بصفته نبيا وقال إنه من الدين فهذا هو الملزم الذي يفرض علينا اتباعه ، وفي غير ذلك فإنه يقول : «إنما أنا بشر» . وعندما وضع الخطة العسكرية لمعركة بدر جاءه معاذ بن جبل يسأل : أمنزل أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟» فلما تبين أنه اجتهاد شخصي من الرسول لم يتردد في اقتراح خطة بديلة يراها أكفل للنصر ولم يتردد الرسول في قبولها . ولما رأى الناس يؤبرون النخل في المدينة وظن أن الأمر لا

ضرورة له ، جاءه من بعدُ المزارعون يشكون من أنهم تركوا التأبير فجاء المحصول ضعيفا ، وكان أهل المدينة أهل زراعة فقال لهم : «أنتم أعلم بأمور دنياكم» .

ولقد يستعمل الرسول عليه السلام أسلوبا بلاغيا لا يدرك مغزاه الذين يأخذون القول على ظاهر حرفيته . فعندما قال النبي لزوجاته : «أسرعكن لحوقا بي (أي بعد وفاته) أطولكن يدا» ، أخذ البعض منهن يقسن أذرعهن ليرين أيها أطول ، لكن النبي عليه السلام كان يرمز بطول اليد إلى العطاء والسخاء والصدقة التي تنال القريب والبعيد والأبعد فالأبعد . علمن ذلك لما كانت أولاهن لحوقا به أم المؤمنين وأم المساكين البارة المتصدقة زينب بنت جحش ولم تكن بدنيا صاحبة أطول ذراع !

ولقد يخفى على ناس أن الرسول الكريم خير البشر كان له كذلك نصيب من المرح والدعابة ، فعندما التقى امرأة عجوزا وقال لها «لا تدخل الجنة عجوز» ، انزعجت حتى طمأنها النبي أنه يعني أن الله سبحانه وتعالى سيعيد العجائز شبابا في الجنة !

ومن أمثلة تفاوت الناس بين الحرفية والمغزى يوم أمر عليه الصلاة والسلام المؤمنين بالنفير قائلا : «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة» . فمنهم من فهم أن الرسول إنما قصد أن يحثهم على الإسراع فصلى العصر في أوانه ، ومنهم من أخذ الأمر بحرفيته ففاتته صلاة العصر حاضرا لأنه وصل بعد المغرب . وقد اتسعت رحابة صدره عليه السلام للفريقين فلم يجرح شعور أحدهما . وفيما بين الخيارين المقبولين أعتقد أنني لو كنت معهم لكنت بين من صلوا العصر قبل غروب الشمس .

لكل من الناس مبلغه من العلم ومبلغه من التفكير وسيحاسب الله كلا على قدر ما آتاه وكل مشكور فيما اجتهد . ولكن إذا تخيلنا ـ من باب التصور ـ أن اليهود أزمعوا الهجوم على المدينة المنورة (بدعوى أنهم أجلوا عنها في زمن النبي وقد سمعت هذا القول من بعضهم) ، فقام من المسلمين من يقول إن الدفاع عن المدينة يكون بحفر خندق حولها فهكذا فعل الرسول وهذه سنته ، فإن أحدا من المسلمين (إن شاء الله) لن يقبل بهذا الاقتراح أو يوليه اهتماما وسيقال لصاحبه : أسكت ! إنما أمر الرسول

بحفر الخندق لأنه كان «آخر صيحة» في فن الدفاع أيامها ، فالسنّة إذاً أن نأخذ بآخر صيحة في فنون الدفاع في أيامنا .

يذكرني ذلك بموضوع أخر يتكرر كل عام غير خال من مشاعر الإشفاق والأسف ، وهو تحديد بداية شهر رمضان وتحديد نهايته . المفروض علينا أن نصوم الشهر ، «**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**» (البقرة ١٨٥) . لكن ماذا عن التوقيت؟ لم تكن عند الناس وقتها من «وسيلة» إلارؤية الهلال . أقول «وسيلة» لأن الغاية هي صيام الشهر والرؤية هي الوسيلة ، والغايات غير الوسائل . ولكن الرؤية قد تتعسر أحيانا نظرا للظروف الجوية من سحاب وغبار وغير ذلك حتى لو كان الهلال في السماء . وييسر الرسول الأمر على أمته فيقول : «صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما» .

ويعطي الرسول السبب في اختيارهذه الوسيلة مع أنها تشتمل على احتمال أن يجعل المسلمون شعبان ثلاثين يوما رغم أنه في حقيقة الأمر تسعة وعشرون ، والسبب هو كما قال الرسول : «نحن أمة أمية لا تكتب ولا تحسب» . أفئن تمكنت الأمة أن تكتب وتحسب يظل الأمر على ما هو عليه؟ أم أن الأمر كما سمعت من بعض المتحذلقين من تحريم تعليم الكتابة والحساب ما دام الرسول قال نحن أمة أمية لا تكتب ولاتحسب؟ إننا بلغنا عصرا يمكّننا فيه العلم من تحديد مولد الهلال بدقة لا تدانيها دقة الرؤية وتجنبنا أن يغم علينا . أفنأخذ بالعلم في جميع مرافق حياتنا وكافة ميادينها فإذا تهيأ أن نستفيد منه في أمور ديننا أوصدنا في وجهه الباب؟ ولقد جربنا طريقة الرؤية فهل صام المسلمون معا في عام من الأعوام ، حتى البلاد المتجاورة في الإقليم الواحد؟ والذين ينكرون الأخذ بالعلم (الحساب الفلكي) أتراهم في كل يوم من أيام رمضان يخرجون من بيوتهم لمراقبة غروب الشمس حتى يفطروا أم هي ساعات في أيديهم أو على حوائطهم تتبع تقويما من المواعيد المحسوبة ، وينطبق نفس الشيء على موعد الإمساك وعلى مواعيد الصلوات الخمس؟أكتب هذا وعلى ثغري ابتسامة فقد كنت في سابق حياتي من المتمسكين برؤية الهلال بالعين . . حتى انكشف لي الفرق بين الغايات والوسائل ، وتهيأت لي الدراية بالدقة البالغة المدى للحساب الفلكي .

إن شريعتنا فيما لا نص فيه قائمة على الأخذ بغلبة الظن (وما لم يكن القارئ من الفقهاء فليصنع معروفا ويسأل أحدهم في ذلك قبل أن يسيء بنا الظن) ، وبين وسيلتي الرؤية والحساب لايجادل أحد أيهما أغلب ظنا وأوفى بالحقيقة . ورحم الله عمر بن الخطاب . . لو كان معنا في زمننا هذا لما أخذ الموضوع معه دقيقة واحدة ليبت فيه . . إنه كان أفقه الفقهاء مدة خلافته وأعقل العقلاء .

وأحسبنا في هذا الباب في غير حاجة للتعرض لتلك الفئة التي تحط من قدر السنة وتجردها من قيمتها التشريعية اكتفاء بالقرآن الكريم ، فقد فشلوا في أن تأخذهم الأمة مأخذ الجد وإن كان منهم الحاكم أو مدعي الفقه أو البهلوان ، ويكفينا قول الله تعالى : «**من يطع الرسول فقد أطاع الله**» (النساء ٨٠) ، وقوله «**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**» (الحشر ٧) ، وقوله : «**قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإنما عليه ما حُمّل وعليكم ما حُمِّلتم وإن تطيعوه تهتدوا**» (النور ٥٤) ، وغيرها كثير ، وقد ألفت في حجية السنة مؤلفات ومطولات يراجعها من أراد .

وأختم فأقول إن التأسي بالرسول عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يتأتى إلا إذا عرفناه . وما زال الكثيرون منا في حاجة إلى أن يزدادوا معرفة بالرسول . . شخصيته ، ونفسيته ، والخلفية التي يصدر عنها ، وبغير ذلك فستظل الأسوة سطحية لا عمق لها ومظهرية لا تتصل بجوهر الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولكل شخصية مفتاح كما يقول الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله في التقديم لسلسلة عبقرياته الإسلامية . وعلى مدى العقود التي درست فيها النبي عليه الصلاة والسلام وطالعت سيرته إجمالا وتفصيلا وأمعنت فيه تدبرا وتقصيا وصلت إلى يقين مستقر بأنني لو اخترت كلمة واحدة لقلت إن مفتاح شخصيته «المحبة» . كان محبا على كافة أحواله . . يؤذيه الكفار فيأتيه جبريل يعرض أن يطبق على رؤوسهم الأخشبين (وهما جبلان بظاهر مكة) فيقول «إليك عني ياجبريل . اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» . . ويتهيأ المسلمون للمعركة مع الكفار فيقولون العنهم وادع عليهم فيقول «إني لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله» . ويعلم ـ ويعلم الجميع ـ أن

عبدالله بن أبي كان رأس المنافقين من بين المسلمين لدرجة أن ابنه عرض أن يقتله ، فيأبى أن يقال إن محمدا يقتل أصحابه ، وعندما توفى وهب عباءته ليكفن فيها إكراما لولده المؤمن . ويقف احتراما لجنازة يهودي فيراجعه أصحابه فيقول «أليست نفسا؟» . ويطيل السجود وهو يؤم الصلاة مرة حتى يخشى المسلمون أن يكون مات ، ويتبين أن حفيده اعتلى ظهره كالحصان فيقول : «ارتحلني ابني فكرهت أن أعجله» . ويصلي وهو يحمل حفيدته على ذراعه . ويبول البدوي في المسجد فيهمّ به الناس لولا أن هدأهم الرسول وهدأ روع الرجل وقال «أهريقوا عليه ذنوبا من الماء» ونصح للرجل نصح المعلم الحليم .

وتحوم العصفورة في الجو فيسأل من روعها ويأمر بإطلاق فرخها إليها . ويعلمنا أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض . وأن رجلا دخل الجنة لأنه ملأ خفه ماء من بئر ليقدمه لكلب يلهث من العطش ، فشكر الله له فغفر له . ويبعث واحد من أصحابه رسالة مع امرأة مسافرة يفشي فيها استعدادات الرسول لغزو مكة ، ويلهم الله النبي فيرسل من يسترد الخطاب من المرأة ، ويعتذر الرجل بأن له في مكة قوما ضعافا فهو يريد من أجلهم أن يتخذ لدى قريش يدا ، ويسامحه الرسول بين استغراب المسلمين قائلا «وما يدريكم لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» .

تعرّفوا على نبيكم أيها المسلمون .

فهذه هي الأسوة . .

وهذه هي السنّة .

الرجل والمرأة والأسرة

الرجل / المرأة.. والأسرة

يروي التاريخ أنه فيما كان الجيش الإسلامي بقيادة عمرو بن العاص يقترب من عاصمة مصر ، كانت ابنة المقوقس مع وصيفتها أرمنوسة في إحدى غرف القصر ترتعد فرقا ، وتقول ما أتعس حظنا ، إن هؤلاء البدو القادمين من الصحراء لا شك سيهتكون سترنا ويبيحون عرضنا وإن قاومنا سيقتلوننا ! قالت لها أرمنوسة تهدئ روعها : لا يا مولاتي ، إن هؤلاء البدو أتباع دين جديد يحض على التعفف وصيانة الأعراض ورعاية الحرمات . وإنهم يخرجون من الصحراء وكل منهم يحمل مسجده في قلبه ، وهم لا يرفعون السيف إلا بقانون ولا يضعونه إلابقانون ، وإن الواحدة منا لآمن على نفسها وعرضها في كنف الواحد منهم عنها مع أبيها .

كانت هذه سمعة المسلمين وحري بالمسلمين أن تكون لهم هذه السمعة . . ولهذا يتألم الإنسان من المحاولات لتشويه هذه السمعة وتصوير المسلمين بأنهم قوم يشغل الجنس بؤرة اهتمامهم وتدور عليه حياتهم ، ولست أقصد هنا الجنس الذي يكون في العلاقة الزوجية ، بل الذي يشبه أن يكون كسعي الوحش إلى الفرائس يقتنصها فما يدع واحدة إلا وتربص بغيرها وهذا في زمننا الحاضر ، أما في الزمن الغابر فامتلاك الحريم والحرص على التمتع بالمزيد والجديد من الحسناوات الفاتنات ظل أحد السمات المميزة لهذه العلاقة . ومن يراقب الإعلام الغربي من كتابات أو أفلام يدرك فداحة الصورة التي يبثونها عنا بين شعوب تغتذي على التلفزيون والسينما لاكتساب المعلومات وتشكيل الثقافة ، غير الأثر النفسي الذي تتركه على المشاهدين حتى لو كان الفيلم خياليا لا يمت للواقع بسبب .

هذه هي الصورة التي يروجها أعداء الإسلام عن المسلمين .

وأفدح منها الصورة التي يساهم فيها نفر من المسلمين الذين لايحملون من الإسلام إلا الاسم ، والذين يبلوهم الله البلاء النقيض : بشيء من الأمن والشبع وزيادة الأموال والأنفس والثمرات ، فلما أطعمهم الله من جوع وآمنهم من خوف وآتاهم رزقهم غدقا من كل مكان وأجرى عليهم القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ،

عصف الغني بصوابهم وأعمى بصائرهم وانشغلوا بالموهوب عن الواهب ، وارتادوا مجالات الفساد والفجور في مصائفهم بأوروبا وأمريكا يغرقون أنفسهم في الخمر والزنا فإن هذه المجالات تجعل لكل شيء ثمنا وهم يملكون الثمن . وسجلوا للإسلام والمسلمين سمعة تسعد أعداءهم ، ومن أقسى ما صادفني في حياتي حديث على صفحة كاملة في إحدى الصحف البريطانية مع واحدة من بائعات الهوى ، وكان عنوانه بجانب صورتها : «إنني متخصصة في العرب» .

وليس بمستغرب أن يكون هذا أمر هؤلاء وذاك أمر أولئك . هؤلاء أعداء وأولئك فاسقون ، وهذه طبائع الأشياء .

أما أن تدرس المعسكر الإسلامي حقيقة والفئة المخلصة للإسلام فعلاً فترى فيه من يعطي الصورة بأن المسلمين فعلا ذئاب شرهة يُخافون ولايؤتمنون ، وأنه لا بد معهم من اتخاذ كافة الاحتياطات والحراسات والمراقبات وأساليب سد الذرائع قريبها وبعيدها وما يدورعلى الخاطر وما قد لا يدور ، فهذا هو الأمر الممض الذي يسيئون به للإسلام والمسلمين وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

ولأضرب لذلك مثلا .

مؤتمر إسلامي دعت إليه إحدى الجمعيات الإسلامية في أمريكا . وأخذ المنظمون ببراعة أهبتهم كاملة لاتقاء المحظور . . الرجال في فندق والنساء في فندق آخر . لم يحجزوا فندقا لكل منهما ، فكان في الفندق الذي فيه النساء رجال أغراب ، وكان في الفندق الذي فيه الرجال نساء غريبات . . كانت الجلسات في الهواء الطلق ولكن روعي أن يكون بين الرجال والنساء تلة من الأرض تكون حاجزا بينهما . وربما أراد رجل أن يقول لزوجته كلاما فعليه أن يذهب لأحد المشاركين يحمل جهاز توكي ووكي ، والأخير ينادي زوجته لتستدعي السيدة ليخاطبها زوجها !

ومكان الرجال ومكان النساء لا يستر أيا منهما ساتر عن عيون المارين والمارات .

ليس هذا حدثا مفردا ولكنه عقلية معينة .

قرأت فتوى لأحد علماء الإسلام في بلد إسلامي تسأله مسلمة سافرت مع

زوجها إلى الخارج ، وأنها هناك ترتدي الحجاب ،وأجاب فضيلته بأنه حرام ، إذ لا بد من النقاب ، ولا ينبغي أن تكون فتحتا العينين في النقاب كبيرتين حتى لا تظهر مساحة من الوجه حول العينين فتكون فتنة ، والأفضل أن ترتدي فوق النقاب أيضا غلالة رقيقة حتى تبصر طريقها ولكن مع اتقاء الفتنة .

وألقى الأب من الآباء عالي التعليم وحسن الإسلام ، يسمح لابنته بالدراسة الجامعية حيث الدراسة مشتركة والزملاء كل من هب ودب والحرية وافرة ، ولكنه إذا تحدث عن محاضرة إسلامية في المركز الإسلامي يدرس فيها القرآن أو السيرة أو شريعة الإسلام فلا يمكن أن يسمح بهذا الاختلاط الشائن ، ويقول لي إن عروق الشباب تتدفق بالهرمونات فكيف يؤمن أن يجلس الشباب والشابات معا ، وكأنما شباب المسلمين دون غيرهم هم الوحوش النهمة والجوارح الكاسرة التي لا تملك لشهواتها ردعا ولادفعا .

وشهدت في المساجد من يقوم لإطفاء النور قبل الصلاة حتى لا تحدث فتنة ، والنساء صف أواثنان عند آخر المسجد والرجال عند أوله (كما جاء في حديث الرسول عليه السلام : خير صفوف الرجال أوائلها وخير صفوف النساء أواخرها) وبينهما مسافة شاسعة ، لكن الأخ لا يأمن أن يستدير أحد من الرجال أثناء صلاته ليستمتع بالنظر إلى النساء فتحدث الطامة الكبرى وعند الأخ إذن أن يطفئ النور سدا للذرائع .

ونكّدت عليّ فتوى أخرى لعالم كبير ، والدة رغبت أن يعيش معها ابناها المتزوجان في نفس البيت . وتقول إحدى الزوجتين إن الوالدة تأمر بالشاي أحيانا والأسرة تشهد التلفزيون ، فماذا يكون الموقف لودخل أخو زوجها في الصالة التي يجلسون فيها وهي محجبة ولكن ليست منقبة؟ والإجابة أن هذا حرام لأن أخا زوجها لا يجوز أن يشاهد وجهها وكلام كثير عن الفتنة واللعنة . . الخ . واستغربت لأنني شخصيا أرى وجه زوجة أخي ويرى وجه زوجتي وأتعرف على الكثير الكثير من السيدات عن طريق وجوههن . فهل أنا واقع في الحرام إلى هذا الحد؟

رأيي أن هذه عقد نفسية من الخطل أن تحمل محمل الجد في حياتنا المعاصرة .

أنا من أنصار الحجاب كمعظم المسلمين . ولكنني لا أجعل الحجاب هو كل الإسلام فمن ارتدته فقد دخلت الإسلام ومن خلعته فقد خلعت الإسلام . وأتمنى أن أرى الحجاب على رؤوس المسلمات في الشرق والغرب . فهو اعتداد بالهوية الإسلامية في زمن تميعت فيه هذه الهوية لدى قطاعات كبيرة . وهو إثبات للذات وللشخصية الإسلامية . و للاعتراف بالإسلام وتقبله في بلاد الغرب تمهد له كثرة العدد . وللأزياء لغة كما للألسنة ، واللغة التي تبثها امرأة تلبس الملابس الفاضحة أوالمايوه البكيني غير اللغة التي تصدر عن المرأة المسلمة المحجبة المحتشمة : الأولى دعوة ونداء والثانية في نطاق قول القرآن : «ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين» (الأحزاب ٥٩) . وقد قرأت لطالبة يهودية في إحدى جامعات لوس انجيلوس أنها كانت تتعرض للمعاكسة السمجة والتحرش الفج عند ناصية يتجمع لديها شباب من الأغرار الذين لا خلاق لهم . تحركت فيها دواعي الحركات النسائية التي تنكر على الرجال ظنهم أنهم خير من النساء وأقوى ، واتخذت إجراء توسمت أنه يمحو الفوارق بينها وبين هؤلاء الرجال فحلقت شعرها ، لكن النتيجة لم تتغير . وأخيرا خطر لها أن تضع غطاء رأس كالذي ترتديه الطالبات المسلمات ، ومرت في نفس المكان فما حاول أحد أن يتعرض لها ومرت بكل احترام .

ويقول لي بعض الإخوة إن حديث «يا أسماء ، إذا بلغت المرأة المحيض لم يصح أن يبدو منها إلا هذا وهذا» مشيرا لوجهه وكفيه ، حديث ضعفه بعض الرواة وغير موجود في صحيح البخاري وصحيح مسلم ، فأقول لا بأس . ويقول آخرون إن آية «وليضربن بخمرهن على جيوبهن» (النور ٣١) إنما تهدف إلى ستر الصدر فأقول لا بأس . لكننا نعلم أن من شروط الصلاة ستر العورة ، ولم نعلم أنه أبيح للنساء أن يصلين حاسرات الرأس (إلا الجارية في أقوال) فهي إذن عورة تستر . كذلك إجماع علماء المسلمين وهومن مصادر التشريع ولم أسمع إلا أنهم يرون تغطية الشعر .

لكنني لا أحب الهستريا الدينية . وامرأة تغتاب الناس وتضع الحجاب هي أقل قدرا عندي من سافرة لا تغتاب ، فالغيبة أكل للحم البشر وهو أنكى من أكل لحم الخنزير .

وبين طلابي كانت التي تضع الحجاب وتغش في الامتحان أقل قدرا عندي من مسفرة لاتغش . ولا بد من الترتيب حتى لا تختلط الصغائر والكبائر .والغوغائية في الدين قد تجر إلى حرام كبير ، مثل الأخ الذي كان يخطب مدافعا عن الحجاب فاستغل ضحالة علم الجمهور الذي أمامه وقال : يقول الله في كتابه العزيز : «يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين . . يلبسن الحجاب !» وصحة الآية : «يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن» (الأحزاب ٥٩) ، وفي سبيل الدفاع عما يراه الحق غير صاحبنا نص الآية القرآنية مقترفا بذلك خطأ كبيرا وشرا مستطيرا لا يقارن به ما كان ينهى عنه . واضطررت للتدخل للتصحيح والنصيحة مع أنه ليس في طبيعي أن أحاول إحراج أحد .

ويؤذي ضميري المسلم هذه المهانة والوضع الخفيض والانتقاص من قدر المرأة ، التي تفشت في معظم العالم الإسلامي إن لم نقل في كل العالم الإسلامي . ما زالت المرأة مواطنا من الدرجة الثانية والإسلام لا يجعلها من الدرجة الثانية . وليس هذا من ناحية الاعتبار الاجتماعي فقط ، لكنني أعتقد أن ما بين يدينا من قوانين للمرأة وللأسرة محتاج لمراجعة فقهية مستنيرة ليكون أوفى بالعدل في ظروف زمننا الحاضر ، وعماد ذلك الفقهاء الذين يستطيعون التحرر من العادات والمفاهيم والموروثات الاجتماعية التي يحسب الناس أنها دين وليست بدين ، والقداسة التي يضفيها الناس على كلام السابقين الذي كان يصلح لظروف مختلفة في زمن مختلف ، ولسنا ندعو إلى مخالفة الشريعة أو تجاوز نطاقها ولكن إلى استلهامها فيما نشرع به لظروفنا الحاضرة ، وأن يجتهد اللاحقون كما اجتهد السابقون .

سألت نفسي هل جاء الإسلام للرجال من دون النساء؟ لا . .

وسألت نفسي هل جاء للرجال أكثر مما جاء للنساء؟ لا . .

وهل يخص الإسلام المسلمين أكثر مما يخص المسلمات؟ لا . .

وهل قال إن الرجال من طينة والنساء من طينة غيرها؟ لا . .

بل نظرت فوجدت أن أول من اعتنق الإسلام بعد النبي عليه الصلاة امرأة هي زوجه خديجة رضي الله عنها .

وأن أول من استشهد في الإسلام امرأة هي سمية أم عمار بن ياسر .

وأن السلاح الطبي في جيش النبي عليه السلام كان من النساء (الآسيات) كله . .

وأنه لما تحرج الموقف العسكري في معركة أحد ألقت نسيبة بنت كعب بعدّة الضماد وتناولت السيف والدرع وشاركت في القتال الفعال وجرحت ، وبعد المعركةلم ينهرها أحد لأنها فعلت فعل الرجال ولم يلعنها أحد لأنها لم تقر في بيتها بل امتدحها الرسول قائلا : ما التفت يمنة ولا يسرة إلا وجدتها دوني تنافح عني . وبعد النبي عليه الصلاة والسلام قاتلت وأبناؤها في حروب الردة .

ومن ذا الذي بدد أزمة الحديبية حين كاد المسلمون يتمردون احتجاجا على الشروط المجحفة للاتفاقية ، غير السيدة أم سلمة ناصحة النبي عليه السلام أن يقوم في صمت فيذبح هديه ويحلق شعره ثقة منها أن المسلمين لا شك متبعوه . .وقد كان . .

أولم تمارس امرأة دور المعارضة الراشدة والنصيحة المخلصة عندما كان عمر يوصي ضد غلاء المهور فردته فقال أصابت وأخطأ عمر؟

أولم يكفل الإسلام للمرأة حق قبول أو رفض خاطب للزواج وهو حق يفتئت عليه الكثير من الآباء في أيامنا هذه رغم أن الإسلام يعتبر الزواج بالإجبار زواجا باطلا؟

أولم تُعلّم المرأة أمور الدين لبنات جنسها وللرجال وكان منهم العلماء والفقهاء؟

أولم يعط الإسلام المرأة حق الميراث وحق الذمة المالية المستقلة تملك ما لها ولا يتطاول عليها فيه أب أو أخ أو زوج ، وكثيرون من الرجال المسلمين اليوم يغتالون هذا الحق؟

أولم تهاجر المرأة مع المهاجرين وتجاهد مع المجاهدين وتركب البحر على أسطول المسلمين؟

أمثلة لا حصر، ودلائل من العصر النبوي وصدر الإسلام وأيامه المضيئة، ولو لم تحدث الفتنة الكبرى وتسقط الأمة في هوة الاستبداد، ثم تقدمت وتطورت وتقننت هذه المبادئ على مدى أربعة عشر قرنا لأفضت إلى نتيجة مغايرة لما عليه الحال في كثير من المجتمعات الإسلامية مما هو ظلم صارخ أفدح ما فيه أن يكسى لباس الدين.

ولكن!! ألم يجعل الإسلام الرجال قوامين على النساء وجعل للرجال عليهن درجة؟

بلى.. ولكن الآفة في سوء التلقي وسوء التفسير وسوء التأويل.

كل مؤسسة لا بد أن يكون لها رأس فهو الرئيس. حتى الرجال فما يكاد عددهم يبلغ الثلاثة حتى يصدر أمر الرسول عليه السلام: «إذا كنتم ثلاثة فأمّروا أحدكم»، ولكن دون أن يعتبر هذا الرئيس نفسه فوق زميليه أو يوليهما من الاعتبار ما ينتقص قدرهما.

ولقد أعمل طبيبا في مستشفى له مدير: هذه ضرورة تنظيم العمل لكن ليس له أن يشعر أنه خير مني أو يعاملني على هذا الأساس.

والأسرة وحدة المجتمع في الإسلام.. لا الرجل وحده ولا المرأة وحدها. والإسلام يحض على الزواج ويأبى الرهبانية، والنبي يقول: «الزواج سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني». بل جعله الله من آياته: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» (الروم ٢١)، ونود أن نلفت النظر هنا إلى هذه المودة والرحمة، التي فاضت في بيوت وغاضت في بيوت من بيوت المسلمين.

وإذا كان الزوج رأس البيت فالزوجة قلبه، وكل منهما يؤدي وظيفة حيوية لا يُستغنى عنها، فمايجوز أن تدب بينهما المنافسة أو الصراع أو تنشب معركة ليثبت فيها كل منهما نفسه كما شاع في المجتمعات الغربية في تاريخها الحديث فأفضى ذلك إلى القطيعة والانهيار.

والمرأة مكافئة للرجل ولايعني هذا أنهما مثيلان متطابقان ، وإلا انتفت الحكمة من خلق الإنسان ذكرا وأنثى .

والرجل بماأودعه الله من قوة يجب أن يقوم على حاجات زوجته وأسرته فهو إذن قوام عليها لأن طبيعتها ووظيفتها تحوجانها عادة لمن تعتمد عليه في ذلك ، خشية أن تضطر للتقصير في حصتها من توزيع العمل .

وليس للرجل من طبيعته ولا وظيفته ما يحمله على القعود ، فهو المنوط بتحصيل الرزق والإنفاق على الأسرة وهذه هي الدرجة التي جعلت للرجال على النساء .

ومن أجل ذلك أيضا كان للرجل في الميراث نصيب مضاعف ، لأنه مسئول عن الإنفاق والمرأة ليست مسؤولة ، الإنفاق على زوجته وأمه وأخته إن احتاجا . وهي مسئولية من جانب واحد . ولقد تساهم الزوجة في ميزانية الأسرة ولكن بدافع المودة والسماحة ، والتزامها هنا التزام أدبي وأخلاقي يقوم على المحبة والعطاء ولكنه ليس التزاماقانونيا تفرضه الشريعة عليها كما فرضته على الرجل . هو منها تطوع ولكنه على الزوج واجب . وليس لزوج في الإسلام أن يجبر زوجته على شيء من ذلك وإن كانت غنية وهو فقير . وهذه حقائق إسلامية لم تستقر بعد في كثير من البيوت المسلمة ، إما للجهل بها أو التمرد عليها واستمراء الظلم على العدل ، ولا زال من الرجال من يتصرف على أساس أنه يملك زوجته ويملك ما تملكه . ومن مفاخر الشريعة الإسلامية أنها كفلت للمرأة حريتها في مالها ، وما زالت في بعض ولايات أمريكا حتى اليوم التشريعات بأن المرأة إن أرادت أن تتعامل ماليا فيماتملك طالبها البنك أو الجهة الرسمية بضرورة الحصول على توقيع زوجها . . ويصاب الإنسان بالغصة من اتساع رقعة الجهل بتلك التعاليم الإسلامية . أخبرتني طبيبة مسلمة بأن زوجها احتل منصب الإدارة في عيادتها ، وكانت هذه وسيلة للاستيلاء على إيرادها كله أولا بأول : أليست زوجته؟

وهناك جنوح واضح لدى قطاعات كبيرة من المسلمين ، ومنهم المشتغلون بالإسلام وللإسلام ، إلى تقزيم المرأة وتصغيرها . واشتكت لي نساء في أحد مراكز

الإسلام بالغرب أنهم أزمعوا إنشاء مدرسة إسلامية وعينوا لذلك مجلس إدارة ، وكان من جمهور المركز عدد من المدرسات لكن الرجال رفضوا تعيين أحد منهن ، ولم يكن بين أعضاء المجلس أي رجل ذي دراية بالتعليم . ونصحت لهن أن يبلغن الرجال أنه ما لم يعين في المجلس أمهات ومعلمات فلن تبعث أي منهن بأطفالها إلى المدرسة .

إن «فقه المرأة» ما زال مبهما وغامضا . هناك دول فتحت باب التعليم للمرأة حتى حصلت أعلى الشهادات ، وباب العمل حتى شغلت مناصب كبيرة ، وسلم المسئولية حتى حملت مسئوليات خطيرة وعلى أكمل وجه ، ومع ذلك فليس للمرأة أن تساهم في الانتخابات ولو بالتصويت ! يقولون إن السبب ليس دينا ولكنه أقرب للعرف الذي لم يحن الوقت لتغييره بعد . وأرى أنه وثيق الصلة بالدين لأن العرف إن حرم أحدا حقه فقد وقع في الظلم : والدين ضد الظلم .

الله يقول : «المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» . فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر موكل بالجنسين لا بجنس واحد وهو من صميم العمل السياسي . ويقولون إن المرأة تحيض كل شهر فيرهقها ذلك فلست أدري فيم يرهقها ، ولماذا لا يمنعها أن تمسك بالمشرط إن كانت طبيبة ، أو تؤدي جدولها الدراسي إن كانت مدرسة ، أوالتزاماتها إن كانت موظفة ، بل إن فتاة مصرية عبرت المانش سباحة وهي تكتم على والديها أنها حائض حتى لا يمنعاها . ويقولون إن المرأة تلد وكأن الأمومة تسمح بكل شيء إلا عضوية البرلمان . ولم يقل أحد إن كل النساء سيدخلن المجلس النيابي لكن التي تسمح لها ظروف حياتها بحسب السن والثقافة والالتزامات الأسرية أو غير الأسرية ، ولا أتصور وطنا يخلو من حفنة من السيدات الصالحات لتولي النيابة . ولقد جرب العالم المرأة نائبة ووزيرة ورئيسة وزراء ، فلماذا تدمغ المسلمات من دون الناس بأنهن لا يصلحن لهذا؟ لا أستطيع أن أبرر هذا الحظر .

وأحيانا تختلط المفاهيم التراثية والتعاليم الدينية فيغشى البصر عما لا يجوز أن يغشى عنه .

لقد قامت في مصر ضجة كبرى عندما اتخذت وزارة الصحة إجراء تقصد به منع ختان البنات .

وأنا شخصيا مسلم ومؤمن ومتدين . وأرفض أن يفرض الغرب علينا قيمه أوأن يدخل إلينا قاذوراته الأخلاقية . وابنتي «في أمريكا» تربي طفليها دون أن يكون في البيت تلفزيون (فاعتبروا يا أولي الأبصار) ، هذا الجهاز الذي استعبدنا ومهدنا له لا في بيوتنا ولكن في حياتنا ووقتنا واهتماماتنا ، . . وربما كان قرار الوزارة قرارا ضحلا قريب الغور فليس كل شيء قابلا للحسم بجرة قلم أو إصدار قرار ، لكن مع هذا رأيتني في غاية الحرج لما اعتبرها الإسلاميون قضية الإسلام ،وحين حكمت المحكمة ببطلان القرار لأنه ليس قانونا صادرا عن المجلس التشريعي ، دقت الطبول وأقيمت الأفراح احتفالا بهذا النصر الإسلامي العظيم ، ورأيت في الصحف الغربية صورة لإسلامي جليل يبشر بإنقاذ أربعة عشر قرنا من تاريخنا الإسلامي ، وبجانبه امرأة تزغرد فرحا بانتصار دين الله ! ! وسبب الحرج الذي شعرت به هو أنني كأستاذ لأمراض النساء والتوليد في مصر وخارج مصر ، أعلم أن المسلمين في أنحاء العالم (ربما إلا النادر الذي حكم له) لا يمارسون عملية ختان البنات . فهل عامة الأمة الإسلامية واقعة في الحرام؟ وبماذا نرمي الناس في جزيرة العرب وما وراءها من العالم العربي وما وراءه من العالم الإسلامي؟ أترى لم يكتشفوا ما اكشتفته مصر من وجوب الختان على البنات؟ أقول هذا وأنا أعلم ما أقول فلا أضمنه تخمينا ولكن أشهده شهودا من خلال ممارستي ـ وغيري ـ تخصصي المهني .

المعروف ـ جدا ـ أن ختان البنات عادة شائعة في بلاد وادي النيل وجزر صغيرة في بلاد أخرى في أوروبا ، وهي تمارس من قبل ظهور الإسلام بزمن طويل ، ولقد صادفت عددا من نساء الحبشة المسيحيات كذلك مختونات ، ولو كانت من أمور الإسلام لكان أولى بها أهل نجد وأهل الحجاز .

ويستشهدون بحديثين . الأول «الختان سنة للرجال ومكرمة للنساء» الذي رواه الطبراني . وهو حديث ضعيف . قال الحافظ بن حجر في فتح الباري إنه لا يثبت لأنه من رواية حجاج بن أرطأة ولايعتد به (فتح الباري جـ ١٢ ص ٤٦٠ ـ ٤٦١) . ويقول الشيخ سيد سابق في فقه السنة (جـ ١ ص٣٣) «إن أحاديث الأمربختان المرأة ضعيفة

لم يصح منها شيء» . والحديث الثاني عن أم عطية الأنصارية أن امرأة كانت تختن بالمدينة فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : «لا تنهكي ، فإن ذلك أحظى للمرأة وأحب إلى البعل (الزوج)» . وفي رواية الطبراني (صحيح الجامع الصغير حديث رقم ٢٣٤) أنه قال لها : «اخفضي ولا تنهكي فإنه أنضر للوجه وأحظى عند الزوج» (رواه أبو داود) .

والحديث لا ينشئ أمرا بوجوب الختان إنما يعالج واقعا كان قائما من قبل فينصح بعدم المبالغة فيه .

وشاع على ألسنة ، منهم للأسف بعض الأطباء المسلمين ، أن ختان المرأة يقلل من شهوتها الجنسية وفي ذلك ما فيه من مقاومة الإغراء على الرذيلة . .

أبذلك يكافح الإسلام الرذيلة أم بالتقوى ومراقبة الله؟ ثم من قال إنك إن قطعت لسان امرئ قل إحساسه بالجوع؟ إن الشهوة الجنسية نتيجة فطرة وهرمونات وتركيب نفسي سويّ ومؤثرات خارجية . وماذا عن بنات الجزيرة العربية وبلاد الإسلام الأخرى : أهن أقل حياء وأدنى عفة من بنات مصر؟

وهل تقليل القدرة على المتعة الجنسية فضيلة يُسْعى إليها؟ فلماذا قال النبي عليه السلام للمرأة أن تخفض ولا تنهك معللا بأن ذلك التقليل أفضل للزوج والزوجة عند ممارسة الجنس؟ ومن يزعم إن التضحية باللذة مندوب والرسول يوصي بأنه «إذا جامع أحدكم امرأته فليصدقها ، فإن قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فلايعجلها حتى تقضي حاجتها» (عن أنس) .

هناك نزعة كاثوليكية في تصرفات الكثيرين فيما يختص بقيمة المرأة وحقوقها في المتعة الحلال . المرأة في ما بين يدي أهل الكتاب من بقايا العهد القديم هي التي أغراها الشيطان وبعد ذلك هي أغرت آدم بالأكل من الشجرة المحرمة ، ونتيجة لهذه الخطيئة طرد الإنسان إلى الأرض مجللا بعقوبة الخزي والعار ، خاصة المرأة إذ تخاطب التوراة التي معهم حواء : «في الألم والعناء تلدين أنت وبناتك إلى آخر الزمان» . لا غرو إذن في أن مؤتمرا كاثوليكيا عقد في ڤيينا في حوالي القن السابع ليناقش : هل للمرأة روح؟

نعم وجدوا لها روحا ، ولكنها شر لا بد منه ولم يخلقها الله إلا لخدمة الرجل .

الرواية ـ القرآنية غير ذلك . إن الشيطان أغواهما معا ، فأكلا من الشجرة ووقعا في الخطيئة معا ، واستغفرا معا وغُفر لهما معا : فكانت هذه نهاية «الخطيئة الأولى» كما يقولون .

بل إن القرآن عد آدم مسئولا عن تصرفه ، فهو يقول «فأزلهما الشيطان» ويقول «وعصى آدم ربه فغوى» . . ثم يقول : «ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى» ثم رفع الله آدم لمرتبة النبوة ، وجاءت البشرية إلى الأرض لا تحقيرا ولا امتهانا ولكن ليكون في الأرض خليفة .

ولا يولد الإنسان كما يرون وقد ورث الخطيئة فهي أبدا على كاهله ، إنما يولد نقيا على الفطرة ومعه الهدى وله الخيار . . «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يُرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى» . إنما كانت الخطيئة الأولى حسبما علّم الإسلام هي الكِبْر ، كبر إبليس حين أمره الله بالسجود فأبى لأنه من نار وآدم من طين .

وأنا إذ أسعى لتصحيح الأوضاع في بلادنا الإسلامية واتباع العدل معها ورفع الحيف عنها ، لا أفعل ذلك افتتانا بما آلت إليه الأحوال في الغرب . ليست المرأة الغربية هي المثل الذي أنشده ، بل وأرى يقينا أن حصتها أتعس من حصة مثيلتها في بلاد الإسلام . حصلت المرأة في الغرب على حريات (!!) غير محدودة ، منها حرية العرى وحرية الزنا وحرية العمل حتى فيما لم تفطر عليه فأصبحت جندية وضابطة في الجيش والأسطول لا لتقوم بأعمال خاصة بالنساء لكنها كالرجال تماما بلا فرق ولا تمييز . وأصبحت المرأة هدفا جنسيا مستغلا وبدنها سلعة معروضة ، ومن نظر إلى صناعة الإعلان وجد أنه لا شيء يعلن عنه ـ من السيارة إلى المشروب ، إلا والإعلان يحتوى على جسد امرأة غير مستور ترويجا للبضاعة حتى لو لم يكن لها صلة بالمرأة .

إنما أريد أن ينعدل الميزان فلا يميل يمنة ولا يسرة فإن الصح وسط بين خطأين . . وأريد للمرأة أن تكون كائنا محترما ، وطالما كنت أستغرب كلما قال لي رجل في

بعض البلاد : «عندنا ـ أجلّك الله ـ حرمة مريضة» ، كما لو كان يعتذر لي إذ تطرق مسامعي كلمة حرمة أو امرأة . وأريد لها أن يكون خيرها نابعا من نفسها وعن اقتناع وضمير ، ويخيل لي أحيانا أن امرأة تضع الحجاب قسرا وضغطا إنما تضيف إلى المسلمين منافقة لا مسلمة .

وأنا من الذين يرون عند تلبية وليمة أن تبدأ النساء بأخذ طعامهن قبل الرجال وليس كما درج عليه الأمر من البدء بالرجال وترك ما تبقى للسيدات . ومن الذين يرون ألا تمشي الزوجة وراء زوجها ولكن معه ، ويرون أن تمر المرأة قبل الرجل إلا في الخطر أو الظلام أو هبوب الريح التي تلصق الثوب بالجسم ، ولم أكون هذه الآراء لمعيشتي في الغرب أو اقتباسي منه ، لكن أمام عيني وباستمرار حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : «ما أكرمهن إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم» ، وذلك عندي من أعمال القوامة التي ناطها الله بالرجال على النساء . وأريد أن أتبع السنة فأعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان «يخيط ثوبه ويخصف نعله ويمشي في مؤنة أهله» ، فلا أرى غضاضة في أن أعين في شئون البيت مساعدة لزوجتي في غياب الخادم ، ولا يزعجني أن أساعد في غسل الصحون أو التنظيف إن دعت الحاجة ، شاعرا أنني أمارس مبرة من المبرات وصدقة من الصدقات . . بل واجبا من الواجبات وعندي كما ذكرت أن الرجل والمرأة متكافئان وإن لم يكونا متماثلين . مركز الدائرة في مهام المرأة هو الأمور التي لا يستطيعها إلا المرأة . . الحمل والولادة وما يستتبع ذلك ويدور حوله . ولكن لا أحد يعيش في مركز الدائرة ، فحوله مساحة الدائرة التي تتسع وتنداح وليست متساوية في كل النساء لكن تحددها ظروف السن والتعليم والأعباء الأسرية والنوازع الشخصية والملابسات الاجتماعية وهي اعتبارات تتفاوت بين امرأة وأخرى فلا يجوز فيها التعميم .

لا يطمح من يدخل السباق أن يفوز وهو أعرج ، ولا يقدر طائر أن يطير بجناح واحد . . ولا تستطيع أمة أن تقتحم الحياة برجالها فقط وقد عزلت نساءها وحجبتهن عن تشكيل الحياة .

أكتب هذا وفي نفسي تساؤل ملحّ : ترى كم من الرجال سيقرأون هذا الكلام فيكون لديهم استعداد للنظر فيه نظرة موضوعية إسلامية فإن وجد فيه شيئا صحيحا لم يستنكف أن يدخله في حياته ولو غير الإلف والعادة وما وجدنا عليه العرف؟ وطالما فكرت في خطب ألقيها وكتابات أكتبها أهي ذات طائل أم لا؟ فأقول لعل بذرة تحملها الرياح إلى أرض تتقبلها ويرسل عليها الله وابلا أو طلا فتنبت وتنمو وتصير شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . والرسول نفسه عليه الصلاة والسلام ما جعل الله مهمته إلا البلاغ .

كذلك أتساءل كم من النساء ستتخلصن من تلك الهزيمة التي في داخلهن والتي ضربت أطنابها على مدى قرون . إنني بطبيعة الحال لا أدعو إلى تمرّد النساء على الرجال أو توقحهن على أزواجهن أو التخلي عن الوداعة وحسن العشرة أو رعاية حقوق الزوج والبيت كما بين القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ولكنني أود أن تفعل ذلك من منطلق احترام النفس وحب العطاء وإيثار الإيثار أحيانا ، لا لأنها في داخلها تحس أنها مغلوبة أو منهزمة أو مقهورة . وما لم ينشأ هذا التحول من الداخل فمن المحال أن يتأتى نتيجة منحة ممنوحة أو صدقة مبذولة .

ولا يتم الحديث عن الأسرة إن لم نتحدث عن الأبناء .

والكثيرون منا يتصورون أننا ما دمنا مسلمين أتقياء فلابد أن أبناءنا سيكونون كذلك ، وليس هذا بأمر لازم .

في الزراعة كما في تربية الأبناء لابد من العناية بالنبتة وتعهدها بالسقيا وحمايتها أو تنقيتها من الآفات والطفيليات وربما تأنقنا في السماد والمغذيات ، حتى يصح المحصول في نهاية المطاف ويطيب الأكُل ولا تكون كالتعبير الشائع «زرعا شيطانيا» حسير الظل خبيث الثمر .

إن صناعة الشخصية السوية لا تكون بترك الطفل للمصادفة تصنعه وفق ما يلقاه في طريقه من تيارات المجتمع أو رفقة السوء أو نوازع النفس أو تجارة الرذيلة أو سخافات الإعلام .

إنما تصنع الشخصية بالجهد الجهيد والانتباه الدائم . ويبدأ ذلك من دور مبكر جدا في حياة الطفل . إن الجندي لا يدرب على القتال في أثناء المعركة ولكن قبل المعركة بوقت طويل . إن فكرة التطعيم أو التحصين تسري في مجال الأخلاق تماما كما تطبق في مجال الصحة . إننا نعطي المولود الجديد تطعيمات الدفتريا والتيتانوس ومصل شلل الأطفال والسعال الديكي والحصبة الألمانية والحصبة العادية وهو لم يتعرض للعدوى بعد وربما لا يتعرض إلا بعد وقت طويل . . حتى إذا حان الوقت وجابه المكروب فإنه يكون قد حاز المناعة منه بالفعل وصار عصيا على المرض . إننا نتأنق لأطفالنا في أمور الغذاء والكساء والنظافة والصحة البدنية ، أما الإعداد الأخلاقي والروحي فهو خارج مركز الدائرة عند كثير من الأسر . إن أساتذة علم النفس يؤكدون أن الفترة من سن السنتين إلى سن الخمس سنوات هي فترة الانطباع والتوجيه وأنها تلقى بظلها على بقية العمر لدرجة كبيرة . . كما يؤكد لنا الأطباء أن مرحلة الحمل والرضاع ذات أثر على الصحة الجسمانية والنفسية للطفل . ينبغي أن يلقن الطفل على طول مراحل حياته أن هناك أكثر من المباهج المادية وأن المرغوبات فيها أكثر وأسمى من الوجاهة في الزي أو الحرص على الاقتناء أو الدرهم والدينار والقطيفة كما وصف الرسول عليه الصلاة والسلام .

كما يجب ألا ينشأ في خواء معنوي ولكن يجب أن يؤمن أن له هدفا في الحياة جديرا بأن يطوع له الحياة . وإن أبعد ما تصل إليه ذاكرتي من أيام طفولتي أن أمي رحمها الله كانت تلقنني مرة بعد مرة بعد مرة أنها عندما كانت تحملني في رحمها نذرت أن تسميني حسان وأن تهبني لطرد الانجليز من مصر !!! مهمة خطيرة ومشروع كبير . . لكنني أخذته مأخذ الجد وحملته معي وكبرت به فتخطيت به لهو الطفولة وطيش الشباب . . إن مفاهيم الصدق والأمانة وتلبية الواجب ومراقبة الله تهيأت منذ الطفولة من والدتي ومعلماتي في روضة الأطفال . على أن فاقد الشيء لا يعطيه . ينبغي أن يكون الوالدان قدوة صالحة . إن الكذب على الطفل ولو مزاحا أو بنية طيبة يعصف بثقة الطفل في الوالد . والأب المدخن أو السكير لا حجة مقنعة له إن حاول ألا يكون أبناؤه مثل ذلك . إن عيون الأبناء مفتوحة علينا ومن المحال أن نخدعهم . وما أصدق من قال : إننا لا نربي أبناءنا ولكن هم الذين يربوننا .

بين الشرع والطب
مسائل حياتية

بين الشرع والطب
مسائل حياتية

كتبت هذا الباب للقارىء الشغوف . . وإلا فجاوزه إلى ما يليه .

شهد العقدان الأخيران حلفا محمودا بين علماء الفقه وعلماء الطب ، لمحاولة الوصول إلى حكم بالجواز أو البطلان ازاء محدثات جاء بها إلى الوجود التقدم المذهل في العلم والتِّقانة ، مما كان لا يخطر ببال أو حسبان ، لدرجة أنني عندما نشرت في مجلة «العربي» لأول مرة عن موضوع أطفال الأنابيب قبل ولادة أول طفلة بتلك الطريقة ، رد عالم كبير (وأخ حميم) من أعلام الفقهاء في العدد التالي فأدرج الموضوع في سجل «الأرأيتية» ، نسبة إلى «الأرأتيين» وهم الذين يضيعون وقتهم وجهدهم في افتراضات وهمية فيقولون «أرأيت لو حدث كذا؟» ، ولعل لغتنا العصرية الدارجة الآن تطلق عليه اسم «المناقشات البيزنطية» .

اتسعت فروع المعرفة وتفصيلاتها اتساعا كبيرا . ولما كانت القاعدة الفقهية تقول إن العلم بالشيء فرع عن تصوره ، ولما كان من المقطوع به في زماننا أن عقلية الفقيه الفرد أصبحت لا تستوعب هذه الأمور العلمية المعقدة ، فقد ارتادت مؤسسات مثل «المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية» بالكويت و «المجمع الفقهي» بالمملكة السعودية وغيرهما إقامة حلقات علمية تدعو لها أساتذة الفقه وأهل الاختصاص من أساتذة الطب للبحث والفهم والتمحيص بغية الوصول إلى أحكام فقهية يطمئن إليها العقل المسلم وتنير الطريق لجماهير المسلمين .

ونعرض هنا بعون الله لطائفة من ثمرات هذا الجهد المشكور حتى تكون الأمة على بينة من الأمر وتكون بمعزل عن الآراء الفطيرة والنزعات الغوغائية التي تغشى أحيانا هذه الأمور .

ورغم أن هذا الباب تغلب عليه الصفة العلمية (الباردة) فقد رأينا أن نضمنه هذا الكتاب لاحقا بالحديث عن الرجل والمرأة والأسرة . أولا لأن كثيرا من مواده هو مما

يشغل اهتمام الأسر (والأفراد) ، وثانيا لما لاحظته من أن المطبوعات القيمة التي تصدر عن تلك الهيئات الموقرة لا تنال ما هي جديرة به من الانتشار الشعبي الواسع ، فقلت لعل نشره هنا إسهام في ذلك وفي إعطاء القارئ لمحة عن بعض الإنجازات الحديثة المبهرة و احتمالات ما وراءها .

ولا تزال طائفة من الموضوعات المطروحة هنا في انتظار حلول دينية وأخلاقية شافية حتى في بلاد المنشأ . . ويدور حولها جدل وتكتنفها حيرة كبيرة . ولعلها فرصة للمسلمين ـ وواجب كذلك ـ أن يقدموا للعالم رأي الإسلام في هذه الأمور . فهم يجدون في البحث دون شريعة يستندون إليها . بينما شريعة الإسلام بمقاصدها الكلية الخمسة ومايتفرع عن كل منها من فروع وعن الفروع من فروع وهكذا ، ونضج علم أصول الفقه وعلم الفقه ، بجانب الفهم الواعي والعقل المتفتح الذي يقدر المصالح (ومصالح الناس في معاشهم ومعادهم هي غاية غايات الشريعة) ، كل ذلك رسم للمسلمين خريطة تهديهم ومفتاحا لكل باب ، ومكنهم أن يجدوا الهدي الإسلامي المناسب ، وأن يثبتوا للعالم أن الشريعة الإسلامية لا تبلى على الزمان ولا تضيق عن الجديد غير المسبوق ، وأن في صلب بنائها العناصر التي تمكن لها أن تكون شريعة متطورة تواكب كل زمان ومكان .

وتجربتنا في الغرب مصداق على ذلك . وأصبحنا عملة مرغوبة في مؤتمرات الأخلاقيات الطبية ، فإذا شرحنا الأساس الشرعي وركبنا عليه الحكم الفقهي ، فغرت أفواه الناس عجبا وإعجابا وكأنما جئنا بسبق صحفي .

أبواب من الأخلاقيات الطبية

أ ـ في التكاثر البشري

* تحديد الخصوبة :
  منع الحمل
  الرضاع
  اللولب
  الإجهاض
  التعقيم

* علاج العقم :
  التلقيح الصناعي
  طفل الأنبوب
  الرحم الظئر (المستأجرة)

ب ـ زراعة الأعضاء

* نقل الأعضاء
* النسيج العصبي
* الوليد عديم الدماغ
* زرع الغدد الجنسية

جـ ـ تحديد الموت

د ـ قتل الرحمة

هـ ـ محدثات علم الوراثة

* الهندسة الوراثية والجزيئية ـ قراءة الجينوم البشري
* الاستنساخ

أ ـ في التكاثر البشري

الحد من الخصوبة

منع الحمل :

يجيز الإسلام منع الحمل طالما أنه لا يجرد الزواج البتة من وظيفة الإنجاب مع القدرة عليه . ويجب أن يكون منع الحمل برأي الزوجين معا لقول النبي عليه الصلاة والسلام : «لا يعزل عن الحرة إلا بإذنها» . ويشترط أن تكون الطريقة المستخدمة في منع الحمل غير مؤذية ولا تقتل جنينا حيا عالقا . وقد أوصى النبي عليه الصلاة والسلام بالتكاثر فقال : «تناكحوا تكاثروا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة» ، لكنه نبه إلى أن النوعية أهم من الكثرة في قوله : «توشك أن تتداعى عليكم الأمم تداعي الأكلة إلى قصعتها ، ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة منكم وليجعلن في قلوبكم المهابة منهم . وليلقين في قلوبكم الوهن» . وسأله أصحابه : «أمن قلة نحن يا رسول الله؟» ، قال : «أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل» ، قالوا : وما الوهن يا رسول الله؟ قال : «حب الدنيا وكراهية الموت» . ويجوز لدوافع صحية أو اقتصادية أو اجتماعية بل إن الغزالي يوافق عليه بسبب حرص المرأة على استبقاء جمال جسمها وصيانته من الترهل . وللأسرة التحكم في عدد أبنائها وفي الفاصل الزمني بينهم شرط أن تفعل ذلك مختارة بغير ضغط من الحكومة أو غيرها .

ولمنع الحمل علائق خارج النطاق الطبي وقد ترجحه . . فما ننصح الشعب الفلسطيني بالاستجابة لدعاواه لأن الشعب الذي فقد كل شيء إلا عدده لا ينبغي أن يفرط فيه . وسننبه في باب آت إلى الأوجه المتعددة لقضية منع الحمل .

الإرضاع الطبيعي : ويدل السياق القرآني على أن مدته الطبيعية سنتان لمن أراد أن يستوفيه ، كما في قوله تعالى : «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة» (البقرة : ٢٣٣) . وفي الغالبية من المرضعات ينقطع التبويض لمدد متراوحة فيمتنع الحمل . والإرضاع كوسيلة لمنع الحمل لا يعطي الضمان الكافي لأسرة

بذاتها إذ لا يعلم إلى متى ينقطع التبويض وفي أي وقت يعود . ولكنه للأعداد الكبيرة أو المجتمعات التي تحرص عليه يؤدي إلى خفض معدلات الإنجاب في المجتمع بكفاءة كبيرة تفوق كل وسائل منع الحمل الأخرى . ولعل الدول التي تسعى إلى خفض معدلات الإنجاب تلجأ إلى تلك الطريقة بتأمين حضانات في تجمعات المرأة العاملة موظفة أو عاملة (ولو بأجر) تودعها السيدة رضيعها فيلقى الرعاية وتتمكن من إرضاعه على فترات . وفي هذا المزيد من الفوائد النفسية والصحية للوالدة وللطفل . . فحليب الأم أوفى غذاء وأمنع للأمراض من الحليب الصناعي أضعافا مضاعفة . ومن الجوانب الإسلامية للرضاع كذلك أمومة الرضاعة ، وهي تكريم للمرأة المرضع يجعلها أما للطفل وأبناءها إخوة له ويعتمد هذا في أمور الزواج فيحرم من الرضاع ما يحرم من النسب .

اللولب : هو أداة صغيرة تودع داخل الرحم لتمنع الحمل . وقد كان العربي القديم يضع في رحم ناقته حصوة صغيرة ليحول بينها وبين الحمل خلال رحلة مثلا . وقد ثار نقاش حول كيفية عمل اللولب وهل هو يمنع الحمل فعلا أو يسقط الجنين الباكر (جدا) . واللوالب الحديثة تحمل سلكا نحاسيا ملفوفا عليها أو تحمل في مادتها هرمون البروجسترون الذي ييبس إفراز قناة عنق الرحم فلا تقدر المنويات أن تمر خلاله صعدا إلى الرحم وقناته لتلتقي البويضة ، كما أن أيونات النحاس قتالة للمنويات ، ولهذا أدرجتها منظمة الصحة العالمية بين الموانع وليس بين المجهضات .

الإجهاض :

تثير مسألة الإجهاض صراعا كبيرا في الغرب بين حركات «أنصار الحياة» وحركات «أنصار حرية الاختيار» . الأولى تشفق على الجنين أن تسلب حياته والثانية تشفق على المرأة أن تنتقص حريتها في التصرف في جسمها . . وما زال القانون حتى الآن في صف الثانية .

وأمر الإجهاض في الإسلام من شئون الفقه ولهذا وردت فيه على مدى التاريخ

آراء متعددة . ومن يتتبع الموضوع تاريخيا في المدارس الفقهية يجد أن الفقهاء لم يختلفوا على حرمة الحياة الإنسانية لقوله تعالى : «من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعا» (المائدة : ٣٢) . لكن الاختلاف كان على سؤال : متى تبدأ الحياة ، فإن لم تكن هناك حياة فليس هناك قتل . . ولم يكن بين يديهم من الوسائل العلمية ما يهيئ إجابة قاطعة على هذا السؤال العويص .

إحدى المدارس الفقهية اعتبرت أن دبيب الحياة يكون عند شعور المرأة الحامل بحركة الجنين في رحمها وهو عادة في آخر الشهر الرابع من الحمل . واستندوا في ذلك إلى حديث الأربعينات الذي يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد» . وواضح أنهم جانبوا الصواب إذ ظنوا أن الروح والحياة شيء واحد ، فمن القطعي الآن أن الحياة موجودة قبل هذا الموعد بوقت كبير . . فضلا عن أن الروح بالنسبة لنا أمر غيبي لا يعلمه إلا الله ، «يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي» (الإسراء : ٨٥) .

ومدرسة فقهية أخرى قالت إن الحياة تبدأ فور تخلق الجنين واتخاذه هيئة إنسان . وفيما كانت تشهده النسوة من الإسقاطات المجهضة تلقائيا وقتوا ذلك في تمام الأسابيع السبعة الأولى من الحمل ، وعن هذا التاريخ يروى حديث آخر يقول فيه عليه الصلاة والسلام : «يدخل الملك على النطفة بعدما تسقر في الرحم بأربعين او خمسة وأربعين ليلة ، فيقول : أي رب . . أشقي أم سعيد؟ . . فيكتبان . فيقول : أي رب ، أذكر أم أنثى؟ فيكتبان . ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه» . ونعلم الآن كذلك يقينا أن الجنين من قبل هذه المدة بزمان حي يرزق .

لكن الإمام الغزالي رحمه الله كان صاحب بصيرة نافذة صدقتها معارف أواخر القرن العشرين . فقد قال إن الحياة في الجنين تمر بطورين : فهي في الأول مستكنة لا

تحس بها السيدة ، وهي في الثاني ظاهرة تشعر فيها المرأة بحركته . ونعلم الآن أن ذلك يكون في آخر الشهر الرابع لأن الجنين حينئذ طالت ذراعاه وساقاه ونما حجمه فاستطاع أن يصيب جدار الرحم بلكماته وركلاته . وقال الغزالي إن الحياة تبدأ من البداية ، «عندما يخالط ماء (عنصر) الرجل ماء (عنصر) المرأة ويقع الشيء في المحل ، وإفساد ذلك جناية ، وتكون الجناية أفحش بعد نفخ الروح ، وتبلغ غاية التفاحش بعد الانفصال حيا بالميلاد ، وهو ما كانت تقترفه عرب الجاهلية من وأد البنات» .

والعلم الطبي الحديث يؤيد رأي الغزالي لكنه لا يفعل ذلك بالمنطق بل على التحقيق ، وفي الإمكان تشخيص حدوث الحمل هرمونيا بعد ساعات من التحام المنوي والبويضة .

وفيما بعد ذلك من مراحل حياتها بأجهزة التصوير فوق الصوتي .

وقد اطلع الفقهاء على معطيات العلم الطبي الحديث ، واعتبروا أشراطا خمسة تنهض لتحديد بداية الحياة . فهي أولا تنبغي أن تكون أمرا واضحا يشار إليه فيقال هنا بدأت الحياة . وثانيا ينبغي أن تتحقق فيه أمارة الحياة الأساسية وهي النمو بتكاثر الخلايا . وثالثا أن هذا النمو ما لم يعترضه عائق فهو يفضي إلى المراحل التالية من حياة الإنسان جنينا فوليدا فصغيرا فيافعا فشابا فكهلا . وهو رابعا يحتوي على الحصيلة الإرثية (المادة الوراثية) التي تميز جنس الإنسان كما تميز فردا بذاته لا يوجد له مثيل مطابق لا في السابق ولا في اللاحق . ثم هو خامسا غير مسبوق بأي دور تجتمع فيه الشرائط الأربع السالفة كلها .

وإلى ذلك خلصت ندوة «الحياة الإنسانية : بدايتها ونهايتها» التي عقدتها المنظمة الإسلامية المنعقدة بالكويت عام ١٩٨٥ ، وأوصت بأن الحياة الإنسانية محترمة في كافة أدوارها منذ التحام المنوي بالبويضة وعلوق البيضة في الرحم (لاحظ عبارة الغزالي «ووقع الشيء في المحل») ، وإن كان واحد من الفقهاء الحاضرين قد تحفظ على ذلك .

كذلك فإن الدلائل الشرعية في باب حقوق الجنين تؤيد هذا الرأي . فالجنين له

أهلية قبول الوصية أو المنحة ، ويحفظ حقه في الميراث حتى يولد حيا ، وإذا سقط في أي عمر وبدت عليه أمارة حياة ثم مات فإنه يرث ويورث ، والحامل التي يحكم عليها بالإعدام يؤجل تنفيذ الحكم فيها حتى تلد وترضع حتى لو كان الحمل من سفاح ، فضلا عن أن التسبب في إسقاط الجنين ولو عن غير قصد يستحق عقوبة مالية تدفع لورثة الجنين اسمها الغرة وهي نصف عشر دية البالغ ، فإذا كان الجنين قد جاوز تاريخ نفخ الروح اعتبر كالبالغ في بعض الأقوال .

على أن هناك مبيحات شرعية لإجراء عملية الإجهاض . كأن يكون لدى الحامل مرض يسبب الحمل تفاقمه مما يهدد حياتها . وهناك تعتبر الشريعة الأم هي الأصل والجنين هو الفرع فيضحى بالفرع من أجل إنقاذ الأصل .

ويجيز كثير من الفقهاء إسقاط الجنين المصاب بتشوهات خلقية جسيمة . . وسمعت من الفقهاء أكثر من رأي عن الجنين الناجم عن الاغتصاب ، وكان البحث في معرض حملة الاغتصاب التي شنها الجنود الصربيون على بنات البوسنة المسلمات ، منهم من قال إن الجنين هو الطرف البريء ، ومنهم من رآها ضرورة تبيح المحظور .

التعقيم :

وهو عملية يقصد بها قطع الطريق على المنويات كيلا تصل إلى البويضات . . إما في الرحم بقطع قناتي الرحم (مسالك البويضات) أو في الرجل بقطع القناة المنوية على كل جانب . وهي عملية ينظر إليها الفقيه والطبيب المسلم بحذر شديد .

هي جائزة إن وجد سبب «دائم» يضع المرأة في الخطر إذا حملت . وقد يتساهل فيها مع المرأة السليمة التي قاربت الإياس ولديها عدد من الأطفال . وتجرى العملية بقصد دوام أثرها ومن غير المضمون الرجوع عنها بعملية أخرى إن تغير الرأي أو الظرف . وفي تجربة كل طبيب نساء طلبن إجراءها ثم تغير الظرف بفقد الأولاد أو تغير الزوج ، فمن الحكمة إذن العدول عنها إلى وسيلة لمنع الحمل لها خط رجعة . وهناك دول كانت تجري هذه العملية للنساء أو للرجال عنوة أو بإغراء مالي كاف للضغط

على الفقير المعدم ، ويرفض الإسلام ذلك بتاتا بطبيعة الحال .

تشجيع الخصوبة

(علاج العقم)

طلب الذرية والسعي لها بالوسائل الطبية مشروع ما دام في نطاق المسموح الشرعي .

التلقيح الصناعي :

مسموح بشرط أن يكون بمنى الزوج وحال قيام الزوجية . فلا يجوز للمطلقة أو الأرملة التلقيح بمنى زوجها السابق (المحفوظ ببنك المنويات) ، كما لا يجوز إن كان المنى من شخص غريب كما هو منتشر الآن في الغرب .

تقنية أطفال الأنابيب :

جائزة كذلك ولكن بشرط أن تكون بين الزوج والزوجة حال قيام الزوجية . . بدون تدخل طرف غريب من مني أوبويضة أو جنين باكر أورحم . إن ممارسة الجنس والإنجاب لا يصح أن يخرجا عن نطاق عقد الزواج ، وعقد الزواج عقد بين اثنين لا يسع معهما طرفا ثالثا . .

الرحم الظئر :

كما أطلق عليه . وهو تسخير امرأة غير الزوجة لتحمل في رحمها لقيحة زوجين (جنين باكر هو طفل أنبوب إذ التحم منيّ الزوج ببويضة الزوجة خارج الجسم بالمختبر) لأن الزوجة ليس عندها رحم يصلح للحمل . وهو مرفوض إسلاميا إذ إن الناتج سيكون إسهاما من ثلاثة أفراد بينما الزواج بين اثنين فقط . ولا تزال المشكلة محيرة في بلاد الغرب إن غيرت الأم التي حملت وولدت رأيها فتمسكت بالطفل . وأكثر الحالات تكون استئجارا لقاء مبلغ من المال فلأول مرة في تاريخ الإنسان تحمل أنثى

الإنسان وهي تنوي سلفا التخلي عن وليدها لقاء أجر ، فتهبط بالأمومة من قيمة إلى ثمن .

ب ـ زراعة الأعضاء

الأصل في الشرع أن جسد الإنسان مكرم حيا وميتا فلا يصح قطعه أو أخذ عضو منه ، وصاحبه مؤتمن عليه من قبل خالقه للمحافظة عليه .

لكن هناك قواعد فقهية كفيلة بتجويز الاستثناء . فقاعدة «الضرورات تبيح المحظورات» ، وقاعدة «اختيار أخف الضررين» ، يمكن إعمالها إن احتاج مريض حاجة تحفظ عليه حياته إلى أن ينقل إليه عضو من ميت أو من حي يستطيع الاستغناء عن هذا العضو بغير مضرة تذكر . ولعل في هذا مثلا لإنفاذ الهدْي القرآني : «ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعا» .

وللموضوع جوانبه الشرعية التي تضمن عدم البيع وعدم القهر وعدم ضرر المعطي .

زراعة النسيج العصبي :

ظهر أن بعض الأمراض تشفى أوتخف بزراعة قدر من النسيج العصبي في المخ . ويجتلب هذا النسيج من الأجنة المسقطة . ولا غبار عليه إن كان الإسقاط تلقائيا ولكن لا يجوز إسقاط جنين عمدا للحصول على النسيج . أما ما يقال عن أن النسيج العصبي قد يحمل معه الإدراك والشعور والشخصية إلى متلقيه ، فهذا من باب الفولكلور ودغدغة الخيال ولا مكان له في هذه العملية .

الوليد عديم الدماغ :

وهو مولود يولد بغير فصي المخ نتيجة تشوه خلقي . وقد يولد حيا لكن مآله الموت لا محالة حتى ولو عاش أياما . ولا يجوز المساس به ما دام حيا لكن إن مات

تلقائيا جاز بإذن أهله الحصول على أعضاء منه . كما يجوز بعد موته استبقاؤه على ماكينة التنفس الصناعي لتأخير هلاك أعضائه خلال الإعداد لعملية النقل .

زرع الغدد الجنسية :

وهي الخصية في الرجل والمبيض للمرأة . وما داما محتفظين بوظيفة إنتاج المنويات أو البويضات فلا يجوز نقلهما من شخص لآخر ، فهذه العناصر على تسلسل أجيالها في جسم المنقول إليه ستظل تحمل مورثات المنقول منه ، وإن حدث حمل فسيكون من طرف غريب على عقد الزواج .

جـ ـ تحديد الموت

أفضى التقدم في تقنيات علم زراعة الأعضاء إلى الإمكانية الجراحية لنقل أعضاء حيوية مفردة مثل القلب . ولا تصلح للآن قلوب الحيوانات فلا بد من مصدر إنساني ، وهنا يقع الطب بين مأزقين :

فالقلب الميت من جسم ميت لا يصلح لأداء وظيفته . .

والقلب الحي من جسم حي لا يصلح لأن أخذه معناه قتل صاحبه . .

ونشأ حينئذ السؤال : هل في الممكن الحصول على قلب حي من جسد ميت؟

أفضى ذلك إلى إعادة النظر في التعريف التقليدي للموت ، وهو أمر كان يكله الفقهاء على تاريخ علم الفقه إلى الأطباء بوصفهم جهة الاختصاص .

كان التعريف التقليدي يعتمد في تشخيص الموت على توقف القلب والتنفس .

لكن وجد في العقود الأخيرة أن سمة الموت اللازمة هي موت جذع المخ وتوقفه عن العمل ، وهو المنطقة التي تشتمل على المراكز العصبية الحيوية للقلب والتنفس . . وحددوا الفحوص الطبية التشخيصية والتأكيدية التي تقطع بوفاة جذع المخ .

وقد يصاب الإنسان في مخه وقد يدخل في غيبوبة كاملة يمكن أن تمتد إلى

سنوات طوال ، لكن هذا لا يعني الموت ، ما ظل جذع المخ حيا .

وليست عملية الإعدام شنقا إلا تمزيق جذع المخ بعظمة ناتئة من الفقرة الثانية تخترقه إذ يدفعها إليه وزن الجسم في حركته المفاجئة بالشنق . ومن بعدها قد يبقى القلب ينبض دقائق وقد تبقى الكلوة حية قادرة على العمل أياما وتبقى خلايا الجلد وغيرها قادرة على النمو بتكاثر الخلايا وهكذا . . فلكل عضو حياته المحلية التي تبقى لأجل بعد وفاة الشخص وربما بعد دفنه .

بين وفاة الشخص ووفاة القلب إذن فترة . . وهي فترة يمكن استطالتها إلى حين بالوسائل الصناعية إذ يضخ الهواء في الرئتين ويشفط منهما على التوالي وكأن الشخص يتنفس ، ويجلب هذا النفس الأكسجين إلى الدم المار بالرئتين ، ويحمله هذا إلى القلب يمده به ، فيستمر إذن القلب في النبض وضخ الدورة الدموية في الجسم فتطول فترة حياة الأعضاء بعد موت صاحبها . وحياة الأعضاء لا تعني حياة صاحبها ، ومازلت أذكر أمي رحمها الله تذبح الأرنب وتسلخه وتقطعه إربا وأنظر إلى أفخاذه في الإناء فإذا عضلاتها لم تزل تنقبض وتختلج .

ومن الطريف أن لهذا المفهوم مماثلا فقهيا (مع الفارق) فيما كان يعرف منذ قرون «بحركة الذبيح» . قالوا : « لو أن معتديا طعن شخصا فبقر بطنه فخرجت أحشاؤه لاعتبرت هذه إصابة قاتلة حتى لو ظل الضحية يتحرك (حركة الذبيح) ، بحيث لو أجهز عليه معتد آخر فإن تهمة القتل لا تزال توجه إلى المعتدي الأول ويحاكم الثاني لكن بغير القتل» .

وفي ندوة «الحياة الإنسانية : بدايتها ونهايتها» (المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية ـ الكويت ، ١٩٨٥) اطمأن الفقهاء إلى هذا التعريف وأن ثبوت موت جذع المخ فيه السماح بإيقاف أجهزة الإنعاش الصناعي أو بشق الصدر وأخذ القلب الحي (من جسد الميت) ليودع صدر مريض فشل قلبه عن إمساك حياته .

وهذا هو اتجاه العالم والمعمول به في بلاد إسلامية على رأسها المملكة العربية

السعودية (بعد إقراره من المجمع الفقهي) ، وإن بقي الغبار مما ثار حول الصحوة الإسلامية (!) ممن يميل إلى تحريم الأشياء بدون بصيرة ينوش هذا الموضوع . . وفيهم أطباء وفيهم فقهاء !

د ـ قتل الرحمة

يفكر ناس أن الفرد إذا آده العجز أو الألم بمرض لا يرجى شفاؤه فإن من حقه أن يقرر إنهاء حياته ومن واجب الطب أن يهيىء له ذلك رحمة به .

ولا مكان لهذا على الإطلاق في شريعة الإسلام . . لقوله تعالى : «من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا» . وحق الانتحار غير موجود في الإسلام ولو للتخلص من الألم والشقاء ، لقول النبي عليه الصلاة والسلام : «كان فيمن قبلكم رجل به قرح فأخذ سكينا فحزّ يده فما رقأ الدم حتى مات . قال الله : بادرني عبدي بنفسه . . حرمت عليه الجنة !» .

والواقع ـ وفي المدى الطويل ـ أن من الخير أن تبقى المهنة الطبية في خدمة الحياة لا في إزالتها . ولا نعلم ألما لا يمكن معالجته بالأدوية (ولو تسريبا وريديا متواصلا) أوبالجراحة . وإزالة الألم حق إنساني . فإن بقي شيء منه لا محالة فالصبر عليه مندوب لعظم فضيلة الصبر ، ولقول النبي صلى الله عليه وسلم : «ماشتكى مؤمن من حمى أو مرض إلا حط الله عنه ذنوبه كما تحط الشجرة أوراقها» .

وهناك حالات تقرب فيها جرعة الدواء التي تزيل الألم الجرعة التي قد تقضي على المريض ، فالمرد هنا إلى نية الطبيب وهل ينوي قتل المريض أو لا . . والله هو المطلع على النوايا . ويقول المروجون لقتل الرحمة إنه لا بد من الموافقة الحرة الواعية من المريض بدون أي لون من ألوان الضغط عليه . وهذه مغالطة . فإن أي مريض في هذه الحال سيقرأ خطأ أو صوابا في أعين أسرته رسالة فحواها : ما دام لك مخرج يسمح به القانون فلماذا تتعب نفسك وتتعبنا معك فضلا عن هلكة الجهد والوقت والمال؟

ويموهون فيسمونه الموت بكرامة موفورة ، ويقشعر بدني كلما تخيلت أنني أدخل

المستشفى مريضا فيسألني كاتب السجل أتحب أن تموت موفور الكرامة أو غير موفور الكرامة .

ومن أقوى مايحتجون به العامل الاقتصادي والتكلفة الطبية العالية في الأسابيع الأخيرة من الحياة . والواقع أن المال موجود حسبما نرى من إنفاقه على الكماليات واللذائذ والموبقات والمخدرات والمسكرات والشهوات فضلا عن أسلحة الدمار ووسائل الخراب ، فالذنب ليس المال ولكن في وجوه إنفاقه .

إن رعاية العجوز والمريض والضعيف قيمة إسلامية مفروضة ، بدءا بالوالدين الكبيرين (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا . إمايبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ـ الإسراء : ٢٣ ـ ٢٤) .

وكما هو منطقي ومتوقع ، فإن الدعوى الخبيثة المطالبة بحق الموت تطورت في السنوات الأخيرة إلى المطالبة بواجب الموت . قائلة إن الماكينة البشرية إن جاوزت عمرها الإنتاجي وجب التخلص منها ، لأنه ليس من العدل أن تتولى الشريحة المنتجة في المجتمع الإنفاق على شريحة لاتنتج ولن تنتج .

وهو منطق مادي لا يؤمن بالقيم ، والحادي لا يؤمن بحياة بعد الحياة وحساب بعد الممات .

هـ ـ محدثات علم الوراثة

الفتوح الجديدة في علم الوراثة إيذان بعالم جديد . إنه علم المستقبل : ليس فقط لأنه سيتصدر العلوم الطبية في المستقبل (ولقد بدأ المستقبل) ، ولكن لما كشف عنه من أن مستقبل الناس لا يقرأ في النجوم والطوالع والأبراج ولكن في الجينوم والجينات والمورثات .

على مدى التاريخ لمعت ومضات معرفية غيرت وجه العالم فلم يعد بعدها لسابق عهده قبلها . . الزراعة ، الصناعة ، التعدين ، البخار ، الكهرباء ، الإشعاع ، الكمبيوتر ، ونحسب أن علم الوراثة سيبزها جميعا وسيفضي إلى طور من الإنسانية

جديد ما كان للخيال به عهد ، لأن مجال عمله ليس ما حول الإنسان ولكن مجال عمله الإنسان نفسه .

من أجل ذلك أرى أن أتخلى عن أسلوب الإيجاز والتلخيص الذي اتبعته حتى الآن في هذا الباب إلى شيء من البسط والإسهاب في حدود المعقول ، لما ظهر من نهم الناس إلى إلمامة مبسطة عامة بهذه الموضوعات ، وما أثارت فيهم من انتباه وحب استطلاع .

قراءة الجينوم البشري

الهندسة الوراثية

نهجنا في تعلم اللغة على البدء بتعلم الحروف ، ثم من هذه الحروف نصوغ الكلمات ، ومن الكلمات نشكل الجمل ، وهذه تتوالى لتكون سطورا تملأ الصفحات لتفضي إلى الفصول التي تجمع فتكون كتابا كاملا . والكتاب لا يعني شيئا في يد من لا يقرأ . فإذا تناوله القارئ فلا بد أن يجتاز هذه الأدوار جميعا بدءا بالحروف وانتهاء باستيعاب الكتاب جميعه والإحاطة بكل ما فيه مبنى ومعنى .

لكن الكتب قد تشتمل فيما تشتمل أخطاء مطبعية ليست من أصله لكن تتسرب إليه أثناء الطباعة على الماكينة أو عملية رص الحروف . . ومن هذه الأخطاء ما يقلب معنى الكلمة ويصرفه إلى معنى مغاير تماما ، فالأمل والهمل والعمل والجمل والأجل كلمات لم تختلف إلا في حرف واحد على تفاوت معانيها جميعا ، بل قد يكون الاختلاف في حركة نفس الحرف كهذا الذي أراد أن يقرأ «إن الله بريء من المشركين ورسولُه» (برفع اللام) فجعلها «بريء من المشركين ورسولِه» بكسر اللام فما أفظع الفرق بين المعنيين .

والأبجدية التي نستعملها في كتابتنا العادية مكونة من بضعة وعشرين حرفا ، لكننا نعلم أن من الممكن اختزالها دون قصور عن أداء المعنى ،فنحن نعلم أن أبجدية إرسال البرقيات مكونة من الشرطة والنقطة فقط ، لكن على ترتيب يمكننا من أن نكتب بهما الحروف الأبجدية العادية . وكذلك لغة الكمبيوتر فقوامها الواحد والصفر لكن بتواليات وترتيب يحيلها إلى حروف عادية فكتابة مقروءة .

وبهذه المقدمة نرجو أن نكون ضربنا مثلا يعيننا على الموضوع الذي نتصدى لبيانه فيجعله أيسر فهما وأقرب منالا .

مفارقة

قضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يميز الإنسان على سائر الخلق بالعقل الذي هو مفتاح المعرفة ، وأن يحفز هذا العقل إلى قراءة الكون المخلوق فيزداد تعظيما للخالق . وراح عقل الإنسان على مدى التاريخ يدرس ويبحث ويميط كل يوم لثاما ويكشف كل يوم سرا ، حتى تحصل للإنسانية بمرور الدهور تراث ضخم من المعرفة ، امتاز في العقود الأخيرة بالتسارع لدرجة مذهلة ، فقد حصلت الإنسانية في القرن الأخير قدر ما حصلته في تاريخها الطويل ، واليوم يقيسون أن المعرفة الإنسانية تتضاعف كل خمس سنوات ، ويتراخى عصر الثورة الصناعية ليفضي إلى عصر الثورة المعلوماتية الذي دخله العالم منذ عقود وإن ظلت بعد شعوب لم تستيقظ من رقدة العدم فمآلهم في حظيرة المستقبل تحتلب ألبانهم وتمتص دماؤهم وتنتهب خيراتهم ويقتصر دورهم على تحقيق مطامع السادة أصحاب السيادة .

لكن العجيب أن استقراء الإنسان للكون لم يبدأ بالحروف فالكلمات فالجمل كما ذكرنا في تمثيلنا بتعلم اللغة . لكن العملية سارت في الاتجاه المضاد . فقد فتح الإنسان عينيه على الكون فوجده كتابا كاملا وإنجازا جاهزا لايعرف أصله ولا يدري فصله ، على المعنى الذي ذكره الله تعالى في كتابه الكريم «ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم» (الكهف ٥١) . . وعلى مدى تاريخ العلم كان التقدم يقاس بمدى قدرة العقل على أن يعود القهقري في تفحص الأشياء والتسلسل إلى أصولها ، والأمثلة على ذلك عديدة مثلما فكك علم الكيمياء الأجسام إلى الجزيئات فالذرات ، ورد علم الطبيعة المادة إلى الطاقة ، ورد علم الكون الكون إلى نظرية الإنفجار الأولى العظيم (ألم تر أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ـ الأنبياء ٣٠) ، وأصل كل شيء حي إلى الماء ، فهو يسير من الكل إلى أجزائه ومن المجمل إلى تفصيلاته ومن المركب إلى مكوناته ، ولم تشذ عن ذلك دراسة الإنسان للإنسان ، فهو

يعود بالإنسان كتابا إلى الإنسان حروفا إن اهتدى إليها فقد استطاع أن يقرأ الإنسان قراءة جديدة وستكون قراءة فريدة .

تعرف الإنسان على الإنسان

أول ما عرف الإنسان عن نفسه صورة ظاهرة ويدنا ذكرا أو أنثى وملامح تميز فردا عن الآخرين . ثم كانت الإصابات في السلم أو الحرب نافذة له على الأعضاء الداخلية خاصة لما نشأت فكرة التحنيط بعد الموت . . وزادت الدراسة تفصيلا لما قام علم التشريح والتشريح المقارن . واخترع المجهر فبيّن أن أنسجة الجسم جميعا تتكون من خلايا وفي كل خلية نواة هي المسئولة عن حياتها ووظيفتها .

وتقدمت الدراسات فأبانت أن نواة كل خلية تشتمل على الحصيلة الإرثية سواء ما كان منها منوطا بالخواص المشتركة بين البشر جميعا أو بين السلالات المتقاربة ، لغاية التفصيلات التي تميز شخصا بعينه فتدل عليه فردا بذاته لا يطابقه فرد آخر من الناس منذ بداية الإنسانية وحتى نهايتها .

وهذه المادة الإرثية معبأة في نواة الخلية في صورة ثلاثة وعشرين زوجا (فرد من الأب وفرد من الأم) من أجسام صغيرة اسمها الكروموزومات . وأمكن التعرف عليها وترتيبها حسب تسلسلها من الزوج الأول حتى الزوج الثالث والعشرين . ثم اكتشفت العلاقة بين طائفة من الأمراض (الوراثية) وبين اختلالات تصيب الكروموزومات . وكان أول ما اكتشف بطبيعة الحال الاختلالات في العدد ، فإذا زاد كروموزوم واحد على الكروموزومين اللذين يحملان رقما معينا في سلم الترتيب نتج عن ذلك مرض كذا من الأمراض الوراثية . وإذا نقص كروموزوم فبقي من الزوج فرد واحد فهي أمارة مرض كذا ، مثال ذلك مرض الطفل المغولي فسببه أن هناك كروموزوم رقم ٢٢ إضافيا (أي ثلاثة لا اثنان) ومثل مرض تيرنر حيث يختفي أحد الكروموزومين المؤنثين . لكن الخلل قد يكون غير نقصان العدد أو زيادته ، فإن غياب قطعة من كروموزوم أو حتى انقلابها عاليها سافلها يسبب أمراضا ، فلما أمكن تقسيم الكروموزوم إلى مناطق كما ترسم خطوط التدريج على المسطرة (وإن تكن المناطق على الكروموزوم غير متساوية) أمكن رد كثير من الأمراض ليس فقط إلى كروموزوم عموما بل إلى منطقة صغيرة منه .

والمعلوم أن الكروموزومات تقبع في النواة وقد اختصرت طولها بأخذ شكل لولبي محكم إذا فردناه وجدناه سلسلة من مركبات أدق تعرف بالجينات وهي وحدات الوراثة كما أنها تقرر أداء الخلية لوظائفها الحيوية . فإن استطعنا ربط مرض بعينه بمنطقة ضيقة من الكروموزوم ، فإن هذه المنطقة على قصرها تشتمل على ألوف من الجينات ولا يزال علينا أن نجد أي واحد منها هو المسئول أي هو المعيب ، وذلك إذا أردنا أن نحدد التشخيص الدقيق الذي هو أساس العلاج المجدي .

ويتكون الجين بدوره من حمض النوويك ، وهو بدوره يتركب من زوجين من القواعد كل منهما حمضان أمينيان متعاشقان ، لا يتعاشق كل إلا مع رصيفه ، وهذه الأربعة في الواقع حروف لغة الحياة وبطريقة تكرار القواعد تكون الرسالة . هذه الأحماض الأمينية الأربعة (أدنين ، ثايمين ، سيتوزين ، جوانين) ، هي النقطة والشرطة للتلغراف وهي الواحد والصفر للكمبيوتر . . وكل زوج منها يشبه درجة على سلم حلزوني طويل أو زنبرك مزدوج ، فهذا هو الشكل الفراغي لجزيء حمض النوويك الذي اكتشفه العالمان واطسن وكريك عام ١٩٥٣ وحصلا بذلك على جائزة نوبل .

وتحدث الغلطة المطبعية إن اختلف التركيب فحل محل أحد الأحماض الأمينية حمض أميني آخر من بين المائة ألف حمض التي يتركب منها جسم الإنسان ، ويترجم هذا الخطأ بحدوث مرض أو بوجود الاستعدادا لمرض معين ، إما في الحال أو في الاستقبال . . وينتج هذا الخطأ إما موروثا من جيل سابق وإما «طفرة» في أحد الجينات خلال التكوين .

إن في جسم الإنسان عدة تريليونات من الخلايا ، في نواة كل منها ستة وأربعون كروموزوما ، تنتظم نحو مئة ألف جين ، مؤلفة من نحو ثلاثة بلايين زوجا من القواعد التي أسلفناها ، فهذه هي التي يقصد العلماء قراءتها وترتيبها كما هي (واكتشاف المعيب منها) واستيفاء المعلومات الجينية التي لو كتبت لملأت عشرة مجلدات كل منها أكبر من دفتر التلفون ، لكن في التسجيل على الكمبيوتر تيسيرا . يريد العلم إذن أن يقرأ الإنسان على المستوى الجزيئي ، فيما يسمى بمشروع قراءة الجينوم البشري .

الجينوم البشري

كلمة جينوم مركب مزجي من كلمتي جين وكروموزوم . . ويعبر بها عن كتلة المادة الوراثية جميعا لكن مسجلة تفصيليا بحروف هجائها الأساسية التي ذكرناها . والمشروع طموح وضخم ، رصدت له أمريكا خمسة بلايين من الدولارات وقدرت أنه يستغرق السنوات الخمس عشرة القادمة . . لكنهم يقدرون للمشروع أن يتم قبل ذلك أولا لأن الدول التي لديها الإمكانيات قد تقاسمته فكل دولة تقرأ كروموزوما أو أقل أو أكثر .

وثانيا لأن تقنيات جديدة تخدم المشروع تبتكر كل يوم ، وجزءاً من الميزانية مرصود لابتكار هذه التقنيات الجديدة . وقد بدأ الأمر باكتشاف خمائر تستطيع أن تقطع شريط حامض النوويك في مناطق معينة وخمائر تستطيع أن تلحم في الشريط قطعة أخرى (القطع والوصل) . . ثم صار بالإمكان فصل جين بعينه واستزراعه للحصول على المركبات التي يفرزها أو حتى زرعه في مكان جين مثله معطوب . . والتقدم العلمي في هذا الباب يسير بسرعة مذهلة . . وقد تكون له آثار هامة على حياتنا كما ألفناها ، ولذلك خصصت ثلاثة بالمائة من الميزانية لدراسة النواحي الأخلاقية والآثار الاجتماعية والمحاذير المرتقبة عندما يتم هذا الإنجاز .

وللوصول إلى قراءة الجينوم البشري تجرى قراءة عينات من عدد كبير من الناس . . فالبشريشتركون في الجينوم الإنساني ، وجينات السمات المعينة كلون العين أو طول القامة أو غيرها تأخذ نفس الموقع على الكروموزوم وإن تباينت دلالاتها ، ورغم هذا التطابق الهائل بين جميع البشر فإن تفرد شخص بذاته بما يميزه عن سائر الخلق يكمن في حوالي ٢ إلى ١٠ ملايين من بين الثلاثة بلايين من الوحدات القاعدية التي تكون الجينوم ، والتي لو تسنى لنا أن نفردها لكانت خيطا طوله ستة أقدام محشود داخل النواة على هيئة الكروموزومات الستة والأربعين .

أما اكتشاف جين مرض بعينه فبالوصول إلى معرفة الجين الذي ينفرد به المرضى بهذا المرض مختلفا في تهجيته عن نفس الجين في الأسوياء .

ولا بد من التنويه هنا إلى أن حمض النوويك الذي يشكل أجسامنا هو بذاته حمض النوويك الذي يشكل أجسام بقية الكائنات الحية مكروبا أو حشرة أوطيرا أو حيوانا ، وإذن فليست طينتنا هي التي تجعلنا بشرا .

لماذا مشروع الجينوم

العلم لايقبل التوقف عند حد وعلى هذا جبل الإنسان . . وشهية الإنسان للمعرفة طاغية فكلما قيل لها : هل امتلأتْ قالت هل من مزيد .

واليوم يتصدى الإنسان لرد وظائفه الحيوية إلى أصولها الكيميائية ، ورد صفاته وسماته وصحته ومرضه إلى جيناته وجزيئاتها .

وبغير ذلك لن نصل إلى قرار ستة الآلاف من الأمراض الوراثية التي تصيب الإنسان بالمرض أو تسبب قابليته لمرض من الأمراض يعتريه في الحال أو في الاستقبال حتى بعد عقود من حياته . فهي الخطوة الأولى ربما لدرء هذه الأمراض أو التوقي لها أو على الأقل توقعها والأهبة لها ، وذلك على نطاق واسع من أمراض القلب وأنواع السرطان وغيرها وغيرها ، خاصة وقد تجاوز العلم عتبات العلاج الجيني ، سواء بالجراحة الجينية التي تزيح جينا معطوبا وتضع مكانه مثيلا سويا وكأنك تستبدل مسمارا بمسمار في ماكينة ضخمة ، أو باستخلاص جين سوي من إنسان سويّ وزرعه والحصول على إفرازاته وإعطائها كدواء لمريض جينه لا يفرز هذا الإفراز .

وسيتسنى كذلك دراسة العوامل البيئية المختلفة كالإشعاعات أو العقاقير والمواد الكيميائية على الجينات لنرى ماذا تفعل وكيف تفعل . ومنذ السبعينات فيما عرف «بالهندسة الوراثية» دخلت إلى حيز التنفيذ صناعة غرس جين ذي وظيفة معينة في كائن من جنس آخر ليؤدي نفس الوظيفة ، كما هو معلوم من زرع جين الإنسان الذي يسبب إفراز الإنسولين في نوع من البكتريا وتركه يتكاثر فينتج كميات كبيرة من الأنسولين البشري الذي يفوق بكثير الأنسولين ذا الأصل الحيواني في علاج مرضى السكر ، أو الحصول على هرمون النمو من الجين الذي يفرزه لعلاج الأطفال قاصري

النمو الذي يؤدي إلى قصر القامة ، أو تحضير المادة المفقودة في مرضى الهموفيليا الذي يعوق تجلط الدم فيؤدي إلى النزيف ، أو مادة الانترفيرون التي تستعمل في علاج بعض السرطانات . أما التطبيقات في عالم الزراعة أو تربية الحيوان فهي معنا كل يوم والمستقبل أسخى من الحاضر .

مخاوف ومحاذير

هل في صالح الإنسان أن يعلم عن نفسه أمورا نعتبرها الآن في حوزة المستقبل؟ وما شعوره إن علم أنه سيموت حوالي سن الأربعين أو أنه سيصاب بمرض شلل العضلات الذي يظهر في حوالي الخمسين؟ ليس هذا رجما بالغيب بطبيعة الحال ولا ادعاء بمعرفة المستقبل ، ولكنه كما ترى الهلال في أول الشهر فتقول : إنه سيكون بدرا بعد اسبوعين .

فقراءة الجين حاضر معلوم ينبئ بقادم محتوم . فما مذاق الحياة إن علم المرء ذلك وخاض حياته يترقب مصيره المعلوم ، ووقوع البلاء خير من انتظاره كما تقول الحكمة العربية . ومن غير المتوقع في القريب أن يدبر لكل من هذه الأمراض علاج ، ويظل الطب عالما بالتشخيص ولكنه عاجز عن العلاج . ويظل المريض حائرا أيتزوج أم يحجم ، وينجب أم يمتنع ، ويهلع أم يطمئن .

وماذا لو شاءت الحكومة أو جهات العمل الأخرى أن يكون من بين إجراءات الكشف الطبي عند التعيين قراءة جينوم الشخص طالب الوظيفة فوجدت عنده جينا ينبئ عن القابلية لمرض القلب أو السرطان أو غير ذلك؟ أترفض تعيينه فيكون هناك تعصب ضد هؤلاء الناس أشبه بالتمييز العنصري وإن يكن على أساس الصحة لا على أساس الجنس أو اللون؟ وهل ذلك عدل؟

ومثل ذلك أن تشترط شركات التأمين الصحي أو التأمين على الحياة أن تطلع على الجينوم فترفض أو تقبل على أساس الاحتمالات الصحية في المستقبل ، علما بأنه ليس من اللازم أن يصاب كل ذي جين معيب بالمرض ، ففي حالات كثيرة يحدث المرض

بسبب تفاعل هذا الجين مع مؤثرات خارجية (بيئية) قد لا تصادف المريض فينجو بذلك من المرض .

وما مدى إمكان صيانة المعلومات الجينية وهي من خصوصيات الشخص الداخلة في نطاق حفظ سر المهنة ، وهي مسجلة على قرص الكمبيوتر تتناولها أياد غير طبية ويسطو عليها المتطفلون من الناس أو الهيئات أو الشركات أو الحكومات؟ فهو تجسس لا يجوز .

فإذا تسربت المعلومات فهل يفضي ذلك إلى دمغ هؤلاء الناس بآفاتهم ووسمهم بعلاّتهم حتى لو كانت مجرد احتمالات قد لا تجيء أبدا؟

وإذا أظهر الفحص أن هناك آفة من الآفات التي تسري في العائلات وأريد التحقق من وجودها ـ أو عدم وجودها ـ في الأقارب ، فهل يعتبر ذلك مسوغا للإفضاء بسر هذا الشخص إلى أقاربه لفحصهم؟ وهل تسمح الأخلاقيات الطبية بإبلاغهم علما بأنهم قد يفضلون ألا تفتح عليهم هذه الجبهة ويختارون أن تسير حياتهم في مسارها العادي الذي قسمه الله دون أن يضيفوا إليها هما جديدا؟

وفي مجال التطبيق ستبدأ قراءة الجينوم في الحالات موضع الشبهة بحكم تاريخها الأسري الوراثي مثل السيدات اللاتي أصيبت أمهاتهن أو جداتهن أو أخواتهن بمرض سرطان الثدي على سبيل المثال ، لمعرفة وجود جين هذا المرض في جينومهن . . وهو جين تم العثور عليه حديثا . فإذا اكتشفت السيدات المرشحات لهذا المرض نصحهن الطب بأن يكنّ تحت المراقبة الطبية والفحص بالأشعة لاكتشاف المرض إن ظهر في أبكر أدواره وأرجاها للعلاج الناجع ، إذ لا يوجد علاج جيني لهذا المرض بعد . فإن قلنا إن عشرة بالمائة منهن سيصيبهن المرض في المقبل من الحياة ، فلا بأس أن تظل المائة تحت الملاحظة من أجل صالح العشر . ولكن ماذا إذا انزعجت السيدات فطالبن جميعا بعملية استئصال الثدي تحسبا وتوقيا ، فمعنى ذلك أن تسعين من كل مائة عملية ستجرى من غير حاجة إليها . فهل هذا السرف في جراحة كبيرة يكون مقبولا؟ وهل هو من الصالح العام والطبابة الحكيمة؟

أما في مجال التكاثر البشري فستتيح قراءة جينوم الجنين معرفة عاهات الجنين الحالية ومعرفة آفاته التي تنتظره في مستقبله القريب أو البعيد ولو بعد عشرات السنين . وسيزيد بذلك زيادة كبيرة جدا إجراء الإجهاض في البلاد التي تسمح بالإجهاض . . حتى لو كانت العلة هينة ، وحتى لو كانت ستظهر في سن الأربعين أو ما فوقها ، مع أن حياة طولها أربعون أو خمسون سنة يمكن أن تكون حياة مفيدة وخصبة ومجدية .

ومع استكمال قراءة الجينات وإمكانيات إبدالها فماذا لو رغب الوالدان في طفل يحمل سمة معينة مثل طول القامة فهل هو مسوغ مقبول؟ وإذا انتشر ذلك فهل يؤدي إلى تغير المقاييس الحيوية السوية في المجتمع بحيث تصبح الأقلية غير طويلة القامة خارج النطاق السوي وينظر إليهم على أنهم ذوو عاهة ويتعرضون للتمييز ضدهم في العمل أو في الزواج أو في الاعتبار الاجتماعي؟

وهل في صالح المجتمع أن ينجب أطفاله حسب المطلوب لا حسب المقسوم ، وأن تكون سماتهم صناعة لا طبيعة؟ أفلا يزري ذلك إذن بهذه المواليد فكأنها مصنوعات تحضر عمولة وحسب المواصفات وربما من الكتالوج لا عطية من الله حسب حكمته ونواميسه ومشيئته للإنسان على المدى الطويل والبعيد الذي لا يمتد إليه بصر الإنسان ولايدركه العلم بعد؟ حسب سنة لله في خلقه إذا اختلت فقد تؤدي إلى هلاك ودمار ما له من فوت .

ولقد بدأ الحديث من الآن عن الجينات السلوكية . قال باحثون إن هناك جينا يدفع لإدمان الخمر وإن هناك جينا للانحراف الجنسي اللواطي . . وهي مزاعم لم تثبت للآن ولكن إذا ثبتت فهل تصلح شافعا لأصحابها يدفع عنهم اللوم أوالتجريم؟ في منظورنا أن الأمر على عكس ذلك فمن كان لديه جين الخمر وجب أن يبتعد عنها وألا يقع فيها وأن يجتنب مجالسها بادئ ذي بدء حتى لا يتكون لديه الإدمان أصلا . ومن كان لديه جين اللواطية وجب أن يعالج العلاج النفسي المناسب وهو ما كان عليه الحال حتى عام ١٩٧٦ حين أعلنت الجمعية الأميركية لأطباء الأمراض النفسية أن الانحراف الجنسي اتجاه طبيعي عند أهله ولايعد مرضا يعالج أو عيبا يشين ، فكان ذلك من المؤشرات

المبكرة على تغلغل هذه الطائفة في دروب المجتمع وطرائقه حتى أصبحت موجة سياسية يعمل لها ألف حساب . وهي عندنا مسألة محسومة لأن الإسلام يقضي بكبح جماح النفس ونهيها عن الهوى وليست المسألة كما يتنادون كن ما أنت ولكن كن مايجب أن تكون .

ويمتد الحديث كذلك إلى تحسين السلالة البشرية بزرع جينات شيم مرغوبة فيزرع في الجبان جين الشجاعة وفي العنيف جين الوداعة وهكذا ، وحتى يومنا هذا يعتبر ذلك من قبيل الاستقراء العلمي لا الواقع العملي ، ولو جاء فهو منزلق خطير إذ يكون العلم قد جاوز التحكم في الطبيعة إلى التحكم في الإنسان . .

وأساس تفرد الإنسان هو أنه حر الاختيار وهو لهذا مسؤول عما يختار ، وأي عبث بشخصية الإنسان يغير من أهليته للمسؤولية الفردية هو إهدار للإنسانية ذاتها لا يجيزه الإسلام بحال من الأحوال .

كل هذه أسئلة تشغل بال العلماء والأطباء والمفكرين والأخلاقيين والمشرعين من الآن . ومهما اشتدت الحيرة واضطرم القلق فلن يحاول أحد أو يقدر على إيقاف التقدم العلمي . لكن المطلوب هو إيجاد الضوابط والتشريعات والأخلاقيات التي تنظم المنجزات الآتية لا محالة من قبل أن تحل بنا فإذا المحظور قد وقع وليس إلى دفعه من سبيل ، وأن المارد قد خرج من القمقم وهيهات هيهات أن يعود إليه .

الاستنساخ البشري

الاستنساخ عمل نسخة طبق الأصل من إنسان . وهي طبق الأصل لأنها تحمل نفس المادة الوراثية (الجينات) متطابقة مع الأصل ، كالصفحة التي تنسخ منها عددا من النسخ فتجيء كلها على نسق واحد .

في سنة ١٩٩٣ أعلن عالمان عن تجربتهما الناجحة في عمل نسخة بطريقة سمياها «الاستتآم» . وهو حفز البيضة الملقحة إلى إنتاج توأمين متشابهين (أي صادرين عن بيضة واحدة فموروثاتهما منها لكل منهما النصف) فحالما تبدأ البيضة إلى الانقسام بقصد إنتاج جنين ، وعندما يحدث الانقسام إلى خليتين هما جيلها الأول ، تتدخل التقنية العلمية إلى الفصل بين الخليتين وحفز كل منهما أن تعتبر أنها خلية أصلية من جديد فتشرع في الانقسام بدءا لإعطاء جنين ، ويكون الجنينان متطابقين . والجديد هنا هو إمكان الوصول إلى طريقة تحاكي الطبيعة في إنتاجها توأمين متشابهين ، وهو ما يحدث في التكاثر البشري تلقائيا بصدفة مقدارها حمل من كل ثلاثمئة حمل (التوأمة متوسطها حمل من تسعين حملا ، أقل من ثلثها توأمة متشابهة أي من نفس البيضة) .

وبطبيعة الحال لا يوجد تقنيا ما يمنع تكرار العملية على أجيال الخلايا مكررا بحيث تصطنع من البيضة الأولى أعداد من التوائم المتشابهة .

ولكن في سنة ١٩٩٧ أعلن عن نجاح الطريقة الأخرى للاستنساخ في الثدييات فكانت الضجة التي أثارتها النعجة «دوللي» في اسكتلندا (كانت الطريقة من قبل ممكنة في حيوانات أدنى كالضفادع وبعض البحريات الصغيرة) . والجديد المهم في هذه الطريقة أن الإنجاب يستغني عن التقاء حيوان منوي وبويضة في عملية التلقيح . إن الحيوان المنوي الناضج والبويضة الناضجة تختزل نواة كل منهما نفسها إلى نصف نواة (بنصف المادة الوراثية) فإذا تلاقحا التحما إلى بيضة ملقحة تتكاثر أجيال خلاياها لتعطي جنينا .

أما خلايا الجسم العادية (غير المنوي والبويضة) ففيها المادة الإرثية كاملة ولكنها إذا تكاثرت أعطت أجيالا من الخلايا الشبيهة بها لكنها لا تتطور إلى جنين : فخلايا الجلد

مثلا لا تعطي إلا خلايا جلد ، وقد استفيد من تلك الخاصية في صنع رقائق من خلايا الجلد تزرع كغطاء للحروق في المساحات التي هلك جلدها بالاحتراق .

ولكن هل يمكن لخلية جلدية أن تتكاثر لتعطي جنينا؟

بالطبع لا . . !!

إلا إذا نزعنا نواة الخلية الجلدية فأودعناها غلاف بويضة منزوعة النواة . . آنذاك يتجه التكاثر إلى جنين : غير صادر عن ذكر وأنثى !!

وهو ما فعله العلماء في اسكتلندا حين أخذوا خلية من ضرع نعجة واستخرجا نواتها فأودعاها غلاف بيضة منزوعة النواة .

فجاءت النعجة دوللي نسخة وراثية مطابقة من النعجة التي أخذت منها الخلية . . وأودعت دوللي وهي جنين رحما آخر لتنمو فيه حتى ولدت ، ولم تولد من ذكر وأنثى ، وإنما خلقت من خلية جسدية من جسد واحد .

وقامت الدنيا وقعدت . لماذا؟ لأن نفس التقنية تستطيع أن تقوم بنفس الإنجاز في الإنسان . فخلية من ذكر ستفضي إلى نسخة طبق الأصل منه . وخلية من أنثى ستفضي إلى نسخة منها . ولا حد لعدد النسخ التي يمكن تخليقها تماما كآلة النسخ بالنسبة للصفحة المنسوخة .

وبعد أشهر أعلن في أمريكا عن تخليق بقرة وتخليق قرد بدون التحام عنصري الذكورة والأنوثة ، لكن بخلية جسدية واحدة تعطي نسخة طبق الأصل من الحيوان الذي أخذت منه . (ملحوظة : لاحظ أنه لا يستغنى عن السائل الذي في خلية البويضة إنما يستغنى عن نواتها وهي التي تحمل المادة الوراثية) . أما في الإنسان؟ فقد سارعت الحكومات التي تجرى لديها هذه البحوث وأمثالها إلى فرض حظر مؤقت عليها ريثما تتم دراسة ما يمكن أن تؤدي إليه من تطبيقات . إن التشريعات الدينية والأخلاقية أبطأ من أن تلاحق التقدم العلمي فوجب إعطاؤهما فرصة للتدبر . .

وعندما بحث الموضوع في الندوة التي أقامتها المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية في الدار البيضاء بالمغرب في يونيو ١٩٩٧ بالاشتراك مع مؤسسة الحسن الثاني للأبحاث الطبية والعلمية عن رمضان ، والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، ومجمع الفقه الإسلامي ، والمكتب الإقليمي لمنظمة الهيئة الصحية لشرق البحر الأبيض المتوسط ، نوقش الموضوع ، وقدمت عدة احتمالات مفترضة للتكاثر البشري ، لعل منها ما يقبل ومنها ما يرفض ومنها ما يحتاج إلى الضوابط الشرعية التي تحدد له المسار فلا يزيغ ولا يميل . ولما كان الأمر محدثا لم يرد في كتب الأئمة السالفين ، فليس له إلا أن تنقدح أذهان إخوتنا الفقهاء بالاجتهاد والابتكار في حدود القواعد الكلية للشريعة .

السيناريو الأول :

لنفترض أن إحدى خلايا جسدي (من الجلد مثلا) أخذت وعولجت بقصد إصدار نسخة وراثية طبق الأصل مني . وحفظت في دور مبكر بالتبريد لمدة مائة سنة أو أكثر ، وبعد ذلك استمر استنباتها وزراعتها (في رحم) وولادتها ونماؤها إلى رجل بالغ . ثم راح هذا «الأنا» الجديد ـ النسخة طبق الأصل ـ إلى الأحفاد أو أبنائهم أو أحفادهم يطالب بالميراث الذي آل إليهم متخطيا له وكان له فيه حق . فما التشريع أوالرأي الفقهي المقترح لمجابهة هذه الحالة؟

السيناريو الثاني :

تتيح التقنية الجديدة للمرة الأولى في التاريخ أن يتم التكاثر البشري «لا تزاوجيا» (كما في المكروبات) فلا يتخلق المولود وراثيا من المادتين الوراثيتين لذكر وأنثى بل لواحد منهما . وفي نطاق الأسرة لن يسمى الأولاد «أولادنا» لكن الذكور نسخ الزوج والإناث نسخ الزوجة من جهة التركيب الوراثي حتى لو كانت زريعة الزوج قد اتخذت من رحم الزوجة مسكنا (رحما ظئرا) لحين الميلاد .

السيناريو الثالث :

زواج عقيم لأن الزوجة ليس لها مبيض يفرز بويضات . أخذت خلية من زوجها

أو منها لتكون نسخة وراثية ، وعولجت ثم أودعت رحمها لحين الميلاد . طرف منهما سيحس أن المولود هو فعلا لا يحوي في تركيبه أيا من جيناته . وفي نفس الوقت لم يقحم على عملية الإنجاب طرف غريب على عقد الزواج (كما قد يحدث في تقنية أطفال الأنابيب إن دخلها مني غريب أو بويضة غريبة أورحم غريب) .

يبدوأن هذه الطريقة مخرج من مأزق العقم . فما الرأي فيها؟

السيناريو الرابع :

عدد من الأشخاص كلهم نسخة طبق الأصل من إنسان واحد . وقعت جريمة قتل وكان الدليل فيها بصمات الأصابع وتركيب حمض النوويك : وهو دليل يفي بتحديد شخص واحد تماما . . حتى الآن . ولكن هذا الدليل آنذاك سينطبق على عدد من الأشخاص كلهم . متماثلون لأنهم نسخة طبق الأصل . هل تنضوي التقنية الجديدة إذا على احتمال تعطيل العدالة؟ أو تمييع المعاملات مع الناس إن تعاملوا مع أكثر من نسخة في شؤون متفرقة من بيع أو دَيْن أو وعد أو عهد؟

السيناريو الخامس :

مسألة حملة العذراء . عذراء صنعت نسخة لها من إحدى خلاياها ثم أودعت الزريعة رحمها لتنمو حتى الميلاد . هل هذا الحمل شرعي وهي لا زوج لها؟ أو مقبول إذ لم يمسسها بشر؟

وعندما تضع : هل ولدت نسختها أو توأمها أو ابنتها؟ وإذا مات أبوهافهل خلف بنتين أو بنتا وحفيدة؟

السيناريو السادس :

شركات الاستنساخ وحملاتها الإعلانية عن صنع نسخ من ذوي المواهب الخارقة في الرياضة أو العلم أو الموسيقى . . رياضي كبير أوصى على خمس نسخ منه . . وكبرت النسخ لكن لم يكن منها واحد بارع في الرياضة . السبب؟ أنها لم تجتز مراحل

التدريب والتمرين اللازمة . وقد يكون فيها النحيف والبدين والصحيح والعليل نتيجة عوامل التغذية والبيئة والرعاية الصحية .

هل تتهم تلك الشركات بالتدليس لأنها لم تبين ذلك بوضوح من قبل؟

السيناريو السابع :

أسرة صنعت لولدها نسخة وحفظتها بالتبريد لتكون احتياطا فإذا مات الولد استنبتوا النسخة ليستعيضوه بذاته . أمن الجائز تخليق إنسان ليكون وسيلة لغاية وليس غاية في ذاته؟

أو مات الولد فعلا فسارعوا بأخذ خلاياه لعمل نسخة ثانية فكأنه لم يمت؟

أو احتاج الولد في المقبل من الأيام إلى زرع عضو فإذن تستخدم النسخة في الحصول على هذا العضو ضامنين أن الجسم سيقبلها ولن يطردها .

السيناريو الثامن :

كبر الطفل سنوات ، ولكن نسخا باكرة منه محفوظة بالتبريد متاحة للنساء اللائي يرغبن في الحمل بتقنية أطفال الأنابيب . ففي وسع السيدة أن ترى كيف ستكون النسخة بعد سنوات فتنتقي من مجموعة أو ربما من كتالوج وتشتري ما يروق لها . هل مثل هذه السوق نافعة أو ضارة على المدى القريب والبعيد؟

السيناريو التاسع :

شخص في الخمسين ونسخته في الخامسة . وأصيبت النسخة الكبيرة بأحد السرطانات الخطيرة الناجمة عن الوراثة . ويعلم الصغير أن هذا هو مصيره ، وقد يشهد النسخة الأولى تعاني العذاب والألم الذي ينتظره في مقبل أيامه .

أيعتبر ذلك تعذيبا للصغير؟ علما بأن بعض الحالات (لا كلها) يمكن تلافيها بإزالة العضو المماثل قبل أن يتكون به السرطان (أقول البعض فقط لعدم إمكان تحديد : أنزيل

الكلوة اليمنى أم اليسرى؟ الثدي الأيمن أم الأيسر؟) . ومن مواطن السرطان ما لا تجدي إزالته وقائيا بالجراحة كسرطان الدم مثلا . وقد لا يحدث السرطان طيلة حياة الصغير فيكون عاش في هلع لا مبرر له . . أو أجرى عملية كبرى بغير داع .

السيناريو العاشر :

الأمراض الوراثيةالناجمة عن خلل في أحد الچينات والقابلة للتوارث . قد يصبح : في المقدر إزالة الچين السقيم من الخلية النسخة وإبداله بچين صحيح . فنكون قد بدأنا سلالة نظيفة تتكاثر مستقبلا بمأمن من الچين المريض إذ تخلو منه .

السيناريو الحادي عشر :

من الثابت أن بقاء النوع في صور الحياة الراقية ومنها الثدييات يعتمد على التكاثر التزاوجي بين ذكر وأنثى . إن چيناتنا عرضة طول الوقت لحدوث ما يسميه علم الوراثة «طفرات» يحول معها الجين السوي إلى جين مريض . .

ومن أنجع الوسائل للتخلص من تلك الجينات المرضية ما يحدث للخلية الجنسية (البويضة أوالخلية المنوية) من أنها تطرد نصف حصيلتها الإرثية إذ تنضج وتصبح قابلة للتلقيح (فإذا التحم النصفان الذكري والأنثوي تكونت بيضة ملحقة كاملة) . فإن بقيت جينات مرضية في النصف الذي سيلقح فلعل رصيفاتها القادمة من الزوج الآخر تغلبها وتكبحها عن إحداث المرض .

أما إن كان التكاثر «لا تزاوجيا» فستبقى الجينات المرضية . فإن تم صنع نسخة عن نسخة عن نسخة لأجيال عديدة فستتراكم الجينات المرضية مع حدوث طفرات جديدة حتى تصاب الأجنة بالتشوهات الخلقية أو الموت .

هل هذا الاع تبار يكفي لمصادرة الموضوع من أساسه؟

هل يشرع أن يسمح بالاستنساخ أفقيا فقط (جميع النسخ مأخوذة من الأصل) لا عموديا (نسخة عن نسخة عن نسخة عبر أجيال)؟

لعل التجارب الحيوانية تجيب عن هذا التساؤل . لكن يبقى سؤال آخر :

هل من المأمون أن تؤكل تلك الحيوانات إذا تراكمت فيها طفرات ولكن قبل الدرجة التي تنشيء تشوهات أو أمراضا ظاهرة؟

كل هذا وفوقه وستطول القائمة دوما بفضل «الأرأييتين» العلميين كلما تقدم البحث العلمي على هذه الجبهة .

وربما كان السيناريو الثالث والسيناريو العاشر جديرين بالاعتبار . . إلا أن الباب إن فتح فلن يمكن التحكم فيه . .

لهذا رأي الفقهاء إغلاق هذا الباب بتاتا في نطاق الإنسان ، ولا بأس به في نطاق الحيوان . وحذروا من أن منع هذه التجارب في بلادها قد يدفع رأس المال الأجنبي إلى استئنافها في دول العالم الثالث ، وناشدوا الحكومات الإسلامية أن تسد الأبواب المباشرة أو غير المباشرة أمام هذا الخطر ، الذي يهدد بنسف العلائق الاجتماعية والأسرية والقرابات وصلات الأرحام والمواريث وغيرها مما استقر عليه تاريخ الإنسانية .

الصحوة

الصحوة

ومن منا لم ينشرح صدره ويطب خاطره لبوادر الصحوة الإسلامية التي نبتت في العقدين الأخيرين ، تتويجا لجهود مخلصة وعزائم دائبة منذ أوائل القرن وخاصة في أواسطه .

وربما كانت هزيمة ١٩٦٧ ذات أثر كبير في فرار الأمة إلى ربها بعد أن اتبعت السبل فتفرقت بها ، وبعد أن أفاقت على الواقع الأليم ، فبعد أن كانت تتصور أنها أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط ، تصنع الإبرة والصاروخ ، وتسيطر على البر والبحر والجو ، وتتنمر لإسرائيل وتستأسد في وجه أمريكا ، ومن اعترض فليشرب من البحر وأمامه البحران من لم يعجبه البحر الأبيض فليشرب من البحر الأحمر ، رأت الأمة أن تلك القوة الضاربة أصبحت مضروبة خلال ساعات ومهزومة خلال أيام . . وذاقت الأمة فجأة طعم الهزيمة المر لا يخفف من مرارته أنها سميت أول الأمر نكسة ، أو أن نائبا في البرلمان المصري أخذ يرقص لأن العدو كان يستهدف تغيير النظام لكن النظام لم يتغير فوا فرحتاهُ ووافرحتاه !

وأدركت الأمة أن الهزيمة لم يكن مبعثها قلة السلاح والعتاد ، ولا تقاعس الضباط والجنود عن البذل والفداء ، ولا فتورالجماهيرعن الصبر والاحتمال وتقبل الضراء واللأواء وشد الأحزمة على البطون والسكوت عن شكاوى كثيرة لأنه لا صوت يعلو فوق صوت المعركة . . إنما كان السبب اهتراء النظام من الداخل وإن بدا قويا من الخارج ، ودبيب السم فيه وإن بدا للناظر إليه لذيذا شهيا ، وتَقْزيمه الرؤوس حتى عاشت الأمة برأس واحد يفكر لها ولا تفكر معه ، وقضاءه على روح المبادرة حتى لصالح الوطن ، وحسبنا أن نعلم أنه لما هجمت الطائرات الإسرائيلية لم يستطع مسؤول أن يأمر المدفعية المضادة للطائرات بالرد عليها فقد كانت طائرة المشير في الجو في رحلة تفقدية وأصاب الجميع الشلل خشية أن تصاب طائرة المشير .

ولا نقول بطبيعة الحال إن الهزيمة هي التي صنعت الصحوة . . ومن الجحود أن

ينكر دور الحركة الإسلامية في مصر في هذا القرن وانسياحها في البلاد العربية ، مما بعث مدا إسلاميا ترجم الأفكار إلى رجال . والحق أنه حقق في ذلك نجاحا كبيرا ، واستطاع أن يمحو الهوة العتيدة بين الأقوال والأفعال ، فإذا الإسلام ناس تسعى على قدمين وليس صحائف في بطون الكتب ، كما استطاع أن يبصر الأمة بالمدى الشامل للإسلام وأن الشعائر والعبادات باب من أبوابه ، لكنه كذلك يسوس الحياة كلها بكافة مرافقها للفرد وللأمة وللدولة ، وأن من شؤونه نصرة الحق وإبطال الظلم وتأمين العدالة وكفالة الحرية وتحقيق الاستقلال ، فانفتحت عيون الأمة على هذا التصور الواسع الذي ظلت مطبقة الجفون دونه طيلة قرون وقرون .

ولا بد أن أقول إن الاتجاه إلى الإسلام كان له دائما أعداء . . وأن هذه العداوة كانت تزداد نموا بتزايد نمو الاتجاه الإسلامي ، وأن هؤلاء الأعداء كان منهم دائما الأشخاص الذين يجلسون في دست الحكم ومقعد السلطة سواء أكان الحكم ملكيا أم جمهوريا ، وأن القوى الخارجية الاستعمارية أو الشيوعية أوالصهيونية كانت في خندق واحد مع أعداء الداخل بل كانت هي صاحبة الخندق والمتصرفة فيه . . كانت تدرك خطر الإسلام على الظلم وقدرته على التصدي للعدوان ، ولا أحسب أنه كان من باب الصدفة أن كل اصطدام مع إسرائيل كان مقترنا بضرب الاتجاه الإسلامي وتنحيته عن المعركة ، أثناء ١٩٤٨ عندما بدأت إسرائيل ، وقبيل ١٩٥٦ لما تآمرت إسرائيل وبريطانيا وفرنسا على العدوان الثلاثي ، وقبيل ١٩٦٧ وأثناءها . . (وربما شذت عن ذلك ١٩٧٣ فإن السادات أعد لها بحملة مكثفة من التعبئة الدينية للقوات المسلحة ، ظهر أثرها جليا خلال تلك المعركة التي شارك فيها لأول مرة سلاح الإيمان) ، ومن الطريف المؤلم أنه قبيل كارثة ١٩٦٧ طلب الإسلاميون في معتقلاتهم استعدادهم للمشاركة في القتال مع الوعد والعهد بأن يعودوا من أنفسهم إلى معتقلاتهم بعد المعركة ، وبطبيعة الحال رفض هذا الطلب . فطلبوا إرسال أكياس للتبرع بالدم ومنهم الأطباء الذين كانوا سيتولون العملية ، ولما رفض هذا الطلب أرادوا أن يتبرعوا بما لهم من مال محفوظ عند إدارات المعتقلات ولكن حتى هذا العرض رفض كذلك . كان هناك حرص شديد على عدم تلويث الموقف بأي عطاء إسلامي .

كان الزمان زمان القومية العربية والمناهج الاشتراكية مع كبت كامل وقاهر لأية أفكار أو أصوات إسلامية . واستجاب الشعب العربي في كل مكان مظاهرا ومؤيدا ، ملتفا حول الأمل الجديد والزعامة الواعدة ، والتهبت الجماهير حماسا إذ أحبت ما كانت تسمع وما كانت ترى . كانت القومية العربية بمثابة الدين لدى الكثيرين . في حديث مع صديق لي كان وكيل إحدى الوزارات في بلد عربي قال لي : «ترى أنا عربي . وعربي عنصري . . وأفضل أن أتعاون مع مسيحي لبناني على أن أتعامل مع مسلم إيراني» . وهو نفسه الذي كلفني في مناسبة لاحقة أن أكتب بيانا يذاع في الراديو قبل نكبة ١٩٦٧ بأيام ، وأعطيته البيان لمراجعته فتناول القلم ولم يشطب إلا «بسم الله الرحمن الرحيم» ! ! خشى أن أكون وضعتها بقصد إلقاء ظل إسلامي . . قلت له «لقد جعلتني أتشاءم» . . وبعد أيام قليلة كنا معا نبكي على ما صار ونندب سوء العثار . لقد كانت السقطة من شاهق . . وأصابت الأمة صدمة أنكى من الصدمة الكهربائية ، وبين تلاطم اليأس واللوعة والغضب راحت الأمة بضميرها تبحث عن مخرج مأمول وطريق مفتوح فلم تجد إلا الطريق إلى الله .

أزيح الستار عن صحوة إسلامية لا تخفى على أحد ظواهرها ومظاهرها . . وتجاوزت البلاد العربية إلى باقي الأمة الإسلامية . لقد زرت تركيا من قبل سائحا ودخلت المساجد في اسطنبول كما يدخل السواح يطالعون الفن ويطالعون التاريخ ، وصليت ركعتين في أحد المساجد وكأنما أردت أن أضفي عليه هويته الإسلامية وأنه مسجد وليس متحفا فقط ، وأن أرضه أعدت للراكعين والساجدين وليس فقط لجمهور المتفرجين وكدت أبكي على هذا الخواء . ثم زرت تركيا بعدها بسنوات فإذا المساجد مكتظة بالمصلين مزدحمة بالشباب وإذا نسبة عالية من النساء يرتدين الحجاب في بلد لا يرحب الحكم فيه بالحجاب . . أحسست أن أمة الإسلام كانت فقط نائمة لا ميتة ، وأنها تستيقظ بعد طول رقاد ، وأن قلبها ينبض ودماء الإيمان تسري في عروقها .

ولا شك أنها كانت ولا تزال صحوة مباركة . . وأنها سائرة إلى الأمام باطراد وأن المستقبل لها . وأن تيارا إسلاميا ناضجا ومستنيرا وعاقلا ومفكرا وليس قصرا على

حزب أو جماعة قد شق مجراه بهدوء ولكن بثبات ، وهو أعمق مما يدور على سطح الأحداث من كر وفر وضجيج وعجيج وصراع بين أجهزة الأمن وبين من تقاتلهم من أجل الحفاظ على الأمن . هذا التيار هو ضمير الأمة كما أنه طوق النجاة وطريق الخلاص . هو تيار خير حبذا لو التف حول منهاجه كل من يهدفون إلى الخير من حاكمين ومن محكومين : لكن هذا لم يحدث حتى الآن لأن من طبيعة البشر أن الظالم يخاف من العدل وأن المعوج تؤلمه الاستقامة وأن من قال «أنا ربكم الأعلى» في السابق وفي اللاحق يأبى أن يُشْرك به .

هذا التيار مرهوب في الخارج ولهذا هو محظور في الداخل في البلاد التي لا تملك مقدراتها أو التي يدين حكامها للسادة الأجانب أكثر مما يدينون لله سبحانه وتعالى .

هذا التيار مسالم ومتعلم ومتحضر ، لكن هذه الحسنات بالذات هي سيئاته الكبرى في أعين المعسكر الآخر ، الذي قرر أن يحاربه بلاهوادة وأن يشوه صورته وأن يلصق به ما ليس منه وأن يستعدي عليه الناس لأنه الخطر الداهم والشر الماحق والتهديد الأكبر . ولهم - من وجهة نظرهم - ما يبرر ذلك ، فإن الإسلام على وجهه الصحيح أعصى على المصادرة وأقدر على الاجتذاب وأقوى في الإقناع وأصلح لعمارة الحياة وهداية البشر ، وهم لذلك كارهون ومنه محاذرون .

في مجلس الشيوخ الأمريكي لجنة اسمها لجنة مراقبة الإرهاب للحزب الجمهوري ، تصدرنشرات تسميها دراسات تقطر سما على الإسلام والمسلمين ، رئيسها يهودي كان ضابطا في المخابرات الإسرائيلية ، ما يترك شاردة ولا واردة من دواعي السوء إلا نسبها للإسلام ، واختزل مأساة البوسنة إلى أن متطوعي المسلمين يحتشدون تمهيدا للزحف على أوروبا ، وما ترك من عمل من أعمال الإرهاب ارتكبه مسلم إلا جعله من صلب الديانة وتعاليمها ، وهذه التقارير للأسف توزع على أعضاء البرلمان فهي زادهم ومرجعهم ، وقد بدأ المسلمون أخيرا في دخول هذا المضمار - مضمار الساسة والسياسة - بداية مبشرة بالخير إن شاء الله . لكن المؤلم أن نشهد على

التلفزيون في أمريكا حاكما عربيا في لقاء وسألته المذيعة : «المعروف أن هناك إسلاميين معتدلين وإسلاميين متطرفين . .» وقاطعها سيادته بحدة : «لا . كلهم ملة واحدة» ! .

لكن ليس الصدق أن نقول بعض الحقيقة ونسكت عن بعض . وعلينا أن نقر بأن حول الصحوة الإسلامية غبارا من المسلمين محسوبا عليها وعلى الإسلام . باسم الإسلام يأتون بتصرفات تسيء إليه وهم يتوهمون أنهم يخدمونه . مماجعل الصحوة تكتنفها سلبيات لابد من تشخيصها وجلائها ودعوة أصحابها للإقلاع عنها وما هو بعسير إن توفر الفهم والإخلاص .

هناك أولا ظاهرة العنف وانتهاجه وسيلة للوصول إلى الحق المنشود . مع أن الغاية في الإسلام لا تبرر الوسيلة ،والهدف الشريف لا يوصل إليه بطريقة غير شريفة . لقد اطلعت على بعض منشورات هؤلاء الناس فهالني أن أقرأ ما يسمى «فقه العنف» . إنهم يحاولون أن يبتكروا أدلة شرعية تبرر ما يفعلون ، ومنهم من مر بدراسة إسلامية فكيف فاته أن حرمة الحياة الإنسانية مقررة في الإسلام ، وأن القرآن الكريم يقرر «أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا» ، والذي له حق الحكم بالإعدام سلطة قضائية في دولة قائمة وبمنهاج واضح وإثرمحاكمة عادلة ومحاولة لدرء الحدود بالشبهات ، وليس الباب مفتوحاأمام كل من أدان شخصا أن يذهب فيقتله ، أو يتوخى في قتله مصلحة فيقتله لتحصيل المصلحة . وفي فقههم أن الاغتيال مشروع بدعوى أن النبي عليه الصلاة والسلام أرسل إلى كعب بن الأشرف اليهودي زعيم بني النضير من يقتله . وينسون أن النبي عليه الصلاة والسلام كان بجانب نبوته رئيس دولة شرعية تملك أن تصدرالأحكام الشرعية ، فضلا عن أن كعب ابن الأشرف قد ارتكب جريمة نقض العهد وجريمة الخيانة العظمى ، فبعد أن كان العهد ألا يكون على المسلمين إذا به عقيب غزوة أحد يذهب إلى مكة على رأس أربعين فارسا ويعقد معاهدة عسكرية مع قريش بأن ينصرها ضد المسلمين . . الذي أصدره النبي كان «حكم محكمة» وتصرف حكومة شرعية مسؤولة ، ولوأن أحدا من المسلمين سبق أمرالرسول وذهب من تلقاء نفسه بغير إذن فقتل الرجل لما أقره الرسول على ذلك .

ويزيد الطين بلة أن يتسع نطاق القتل فيشمل الأبرياء الذين لا ذنب لهم ولا جريرة ومنهم النساء والأطفال والسواح الأجانب الذين لا دخل لهم أصلا بالخصومة المحتدمة بينهم وبين الحكم . وأسخف السخف أن يدعوا في مصر أنهم سيخربون موسم السياحة من باب الضغط على الحكومة ، وينسون أنهم يعملون على إيجاد مصر ضعيفة فقيرة مشغولة بجبهتها الداخلية إزاء إسرائيل قوية غنية تتلمظ شوقا إلى التهام المزيد على الجبهة الخارجية .

ليس لدينا لهذا الانحراف إلا الإنكار والاستنكار . . لكن يحزننا أن تؤخذ بجريرته العناصر الإسلامية الشريفة المسالمة بدعوى أن هذا خرج من عباءة ذاك . والواقع أنه ما خرج إلا تبرما بالاعتدال وتمردا على المسالمة . ليس هذا من الإنصاف . .

من هدي النبي عليه الصلاة والسلام أن المرء إذا خرج من الغائط قال : «الحمد لله الذي أذهب عنا الخبث» . . فخروج هذا الجنس الرديء ، من الوعاء الطيب هو نفي للخبث يحمد الله عليه وليس تهمة ولا جريرة .

إن ما تفعله هذه الفئة يدخل في باب الإجرام ومن الجهل المعيب أن يصنف ضمن الصحوة الإسلامية . ليس هناك ما يسمى «الإجرام الإسلامي» فإنه مستحيل .

وهناك مشكلة غرور الجاهل وجهل المغرور . . كل يحسب نفسه شيخ الإسلام وافتقاره إلى المعلومة الإسلامية والبصر بالدين واضح وضوح الشمس . . ورب شاب منهم في مثل سن حفيدي لو اختلفت معه في الرأي لما كان لذلك من تفسير لديه إلا أنني غربي الثقافة أوأنني أميّع الدين أوأنه جاءه من العلم ما لم يأتني فينبغي عليّ أن أتبعه ليهديني صراطا سويا . وهذا النموذج واسع الانتشارفي الشرق والغرب . ولقد يختلط عليه الأمر فيحسب أن من سمات التدين قلة الذوق أو قلة الأدب . حضرت مرة مؤتمرا عربيا إسلاميا في أمريكا (وقلما أفعل) ، وشاركت على المنصة الكاتب الكبير الأستاذ/ فهمي هويدي ، وتحدث وتحدثت وجاء دور الأسئلة ترسل مكتوبة على أوراق . ولمحت عيني في يد مقرر الجلسة سؤالا غفلا من الإمضاء يقول : «هل نفد العلماء والفقهاء جميعا من الشرق الأوسط فأتيتم بنا لنستمع إلى فهمي هويدي

وحسان حتحوت؟» . . فرحت بالسؤال وخطفته خطفا لأتولى الإجابة عنه لعل سائله يطالع نموذجا جديدا عليه لنفسية المسلم . قلت : لن أسمح للشيطان أن يغير من نفسي تجاه أخي في الله كاتب السؤال (أو لعله إبني أوحفيدي) وإلا أعنته على إفساد ذات البين بين مسلمين وفساد ذات البين هي الحالقة التي لا تحلق الشعر ولكن تحلق الدين كما يقول النبي عليه الصلاة والسلام . وكنت أتمنى لو ضَمَّن ضمن ورقته أمرا محددا أخذه علينا واختلف معنا فيه لعله يرشدنا إلى خطأ أتيناه فنرجع عنه ونستغفر عليه الله فيكون نصح ـ والدين النصيحة ـ فيحوز ثوابا ونحوزه معه . ولقد أظهرت العقود الأخيرة أن الشيطان قد أحرز انتصارات كبيرة في الوقيعة بين المسلمين ولست أدري أألومه أم ألوم المسلمين ، وعلى الحالين أنا حريص ألا أزيده نصرا آخر . ولقد أتيحت لي في حياتي دروس قيمة ربما كان هذا أوان تذكرها والاستفادة منها . عندما شكلت جماعة الإخوان المسلمين بمصر فريقا للجوالة في النصف الأول من هذا القرن وكان أفراده يلبسون البنطال القصير ، خيل لأحد الورعين أن هذا كفر أو قريب من الكفر فاقتحم الباب على مرشدها الراحل حسن البنا رحمه الله وناداه «يا حسن أفندي» فأجابه «نعم سيدي» . قال «إني أكرهك !» قال «وأنا والله أحبك» . قال «ولكني أكرهك في الله» ، فأجابه «هذا يزيدني حبا فيك» . نموذجان للتفاعل والتبادل والتعامل ولا يساورني شك أي النموذجين أختار . وعلى كل حال فالحكمة كما يقول الرسول عليه السلام ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها ، فلا بأس على ولدي أن يستمع إلى أمثال فهمي هويدي وحسان حتحوت فإن وجد خيرا حصله وإلا فلم يخسر شيئا . .

فإنما القول ممدود وما نسأله من الله أن نكون ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه !

كان لهذه الكلمات فعل السحر في الآلاف التي كانت تشهد المؤتمر بل كانت نقطة تحول فيه كما ظهر في باقي التعليقات وفي اللقاءات بعد الجلسة وفي زيارات كريمة لبيتي في المساء . لكن حز في نفسي أن أجد ـ على وجه العموم ـ أن أعدادا كبيرة من شباب الصحوة (إن جاز التعبير) تدور نفسياتهم على ضرورة الكره والغضب

والهجوم كعناصر لا بد منها في تركيبة الجهاد في سبيل الله ، وسهل عليهم بعد ذلك أن يصيبوا قوما بجهالة . ولا ألوم الشباب الصغار على ذلك وحدهم فإن هذا هو الزاد الذي يغذوهم عليه قادة وأساتذة ومعلمون .

إن مقياس الحلال والحرام والصواب والخطأ والجائز وغير الجائز لدى كثير من شباب الصحوة (! !) مقياس عاطفي وهو قد يخطئ مهما كانت العاطفة جياشة بالانحياز للإسلام والتحمس لخدمته . إن هذا أمر بالغ الخطورة لأنه قد يحول التدين إلى هوى ، وبدلا من أن أكون حريصا على طاعة الدين إذا بي أنزلق فأريد أن أجعل الدين في طاعتي . وبدلا من أن أقف عند العدل الشرعي أكلف العدل أن يكون كما أريد ! كنت مرة في زيارة لمدينة أسيوط في مصر أجدد ذكريات قديمة إذ كنت في سالف الأيام أستاذا بجامعتها ولم تزل في قلبي حتى الآن . . وصحبني في جولتي طبيب شاب ومررنا على جمعية الشبان المسيحيين فلفت نظري كتابة على جدارها بالخط الأسود العريض تعلن عن مكان وزمان إقامة صلاة عيد الفطر وتدعو المسلمين لشهودها . وسألته ـ ليطمئن قلبي ـ إذ توسمت أنهم ولا شك قد استأذنوا أصحاب الدار قبل أن يصبغوها بتلك الإعلانات . . كان مؤدبا غاية الأدب ولكن بسمة على ثغره ونظرة في عينه أنبأتني أن هيهات هيهات .

ويختلط الترتيب لدى كثير منا حتى لنهمل سلّم الأولويات ونفقد الإحساس بالمهم فالأهم . أثناء مأساة البوسنة والهرسك وعندما تفشى الجوع والعرى والمرض وعندما استحرَّ القتل في المسلمين العزل وعندما كانت بنات المسلمين تنتهك أعراضهن ليحملن أجنة من رجال الأعداء ، أرادت جماعة من السيدات الفضليات في بلد عربي مسلم أن يمددن يد المساعدة . فماذا كانت المساعدة؟

كمية كبيرة من الأحجبة (جمع حجاب) ، إذ لا يجوز أن تكون نساء البوسنة غير محجبات .

وبالمناسبة ، أذكر أنني في طفولتي تلقيت درسا لا أنساه لفت ذهني من وقتها إلى مفهوم الأولويات هذا . كنا نعيش في منزل كان ثلث بيت كبير لجد أمي فلما مات

تقاسمه الأبناء . وأصابنا هجوم متكرر من لص كان يسطو على الواحد من تلك المنازل فإذا لمحه أحد وثبت بخفة من سطح المنزل إلى السطح المجاور فإلى الطريق وقصارى دفاع السكان أن يلمحوا جانبا منه ويرتفع الصراخ لكن في الهواء ويكتشفوا ضياع أشياء من الملابس المنشورة أو آنية النحاس المخزونة .

كنت في الخامسة من عمري ، واقفا مع أمي تطبخ في مطبخها وعليها ثياب لا تصلح إلا لداخل البيت . وسُمع الصراخ من جديد فهرولت إلى سلم البيت فإذا اللص لدى باب الخروج . . وثبت السلم إلى الباب وراحت تجري وراءه في الشوارع والحواري بينما انطلقت صفارات البوليس وأدركتها بعد مدة جمهرة بشرية فقالت لهم لقد دخل هذا البيت ، وضبطوه فوق السطح مختبئا في عشة الدجاج .

كان عليها أن تقرر الأولوية في الحال : الزي المناسب أم القبض على اللص ، كانت الأولوية ضبط اللص فلم يفتها ذلك ولم تحجم عنه .

ولقد نهتم بالسفاسف ونعمى عن العظائم بصورة تبعث على الحزن والأسى . كنت مرة أحاضر عن مؤتمر القاهرة للسكان الذي انعقد منذ سنوات وأتيح لي أن أطلع على مسودة أجندته قبل تنقيحها وتصليحها وتلطيفها ، وأشرت إلى بعض النقاط التي وردت بخصوص الحقوق الجنسية للمراهقين والمراهقات وحمايتهم من تدخل الوالدين وكفالة الوسائل الطبية لهم ، وكذلك إباحة الإجهاض قانونا كحق من حقوق الأنثى أيا كانت ، وقلت لو نجحوا في تمرير هذه الأشياء فلعل ذلك من أخطر ما مر على المسلمين في تاريخهم الطويل . وفيما تهيأت للانصراف بعد المحاضرة هرول ورائي أحد الإخوة وعلى وجهه دلائل اهتمام عظيم . . لقد جاء ليسألني لماذا ألبس رباط عنق مثل الكفار ! !؟ وسألت الله الصبر والسكينة .

حدثنا المرحوم الشيخ / محمد الغزالي الرجل المؤمن والداعية الدؤوب والمصلح الإسلامي الكبير جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرا ، ولعله كتبه في بعض كتبه ، أنه كان يحاضر في الشمال الإفريقي وبعد المحاضرة رفع أحد الشباب يده ليسأل : ما حكم الشرع في الخل؟ وبعد أيام كان يحاضر في إحدى دول الخليج فرفع شاب يده

يسأل كذلك عن حكم الشرع في الخل . ولم تعد المسألة إذن مجرد الاهتمام بسفاسف الأمور . ليس من الصدفة أن يسأل السائلان نفس السؤال رغم هذه المسافة الشاسعة بينهما . إنما وجب الشك في أن هناك محركا مشتركا حريصا على شغل الوقت والطاقة لدى شباب المسلمين بهذه الأمور التي لا طائل وراءها ليصرفهم عن مهمات الأمور التي ينبغي أن تكون شغلهم الشاغل وأن يكون موقعها في بؤرة اهتمامهم .

وإذا كان سوء الظن أحيان من حسن الفطن ، وإذا كانت للمؤمن فراسة تؤخذ بعين الاعتبار ، فإنني قد وقر في نفسي أن الصحوة قد اخْتُرقت ، وأن شبابها ـ سواء في حمأة التطرف أو في متاهات السفسطة ـ ربما كانت تحركه أصابع خفية تمسك بالأطراف البعيدة من الخيوط ، وتزيف له المنطق الذي يوقعه في الحبائل وإن كان مخلصا ، وليس في يدي الدليل المادي ولكني أشم في الأمر رائحة مخابرات دولية معادية .

هذا العنصر الخارجي لم يدر في خاطري من فراغ أو من خيال . . فلقد صدرت في الخارج كتب تصف خططا لتقويض الإسلام من داخله وعلى يد أبنائه . . والوقيعة بين المسلمين لدرجة أن يكفر البعض منهم البعض الآخر . . والأدهى من ذلك إذكاء روح التعصب الديني ضد الأقليات الدينية في البلاد الإسلامية . وأقول إنهم حققوا في ذلك نجاحا لا لأن جماهير المسلمين اتجهت لهذا التعصب ، ولكن لأن الأقلية الشاذة هي التي تتلقف أنباءها وسائل الإعلام الدولية وتجد صداها في الأروقة السياسية . وإذا أخذنا بلدا مثل مصر مثالا فإن الشعب المصري في مجموعه شعب متحاب عاش فيه المسلمون والأقباط طيلة القرون في أخوة ومحبة ومشاركة في الجهاد الوطني والدفاع عن الوطن . . حتى نبتت هذه الجماعات شذوذا على المجتمع كله وسقطت في هوة التعصب . ومن غير المعروف في العالم أن ضحايا هذه الجماعات من المسلمين أضعاف ضحاياها من الأقباط (كما أخبرنا البابا شنودة في زيارة له للمركز الإسلامي لجنوب كاليفورنيا) ، لكن جزءا من الصورة يؤخذ ويكبر وهو الذي يعرض في الخارج . . فهل أصابنا الجهل أو العمى عن الصلة بين هذه الأحداث وبين قول الصهيوني « إسرائيل شاهاك » في كتابه (الخطة الصهيونية للشرق الأوسط ـ ١٩٨٢) :

«إن مصر في حالتها الراهنة أصبحت جثة بالفعل ، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار الهوة المتزايدة بين المسلمين والمسيحيين . إن تقسيم مصر هو غاية سياسية لإسرائيل . وستضطر إسرائيل إلى التدخل المباشر أو غير المباشر لاستعادة السيطرة على سيناء لأهميتها الاستراتيجية كاحتياطي للاقتصاد وللطاقة على المدى الطويل . إن مصر لا تشكل لإسرائيل مشكلة حربية نظرا لتناقضاتها الداخلية ، وفي الإمكان دفعها إلى ما وراء مواقع ١٩٦٧ في يوم واحد» .

لا غرو إذن أن تمتد بصيرة رجل كالمفكر الفرنسي المسلم «روجيه جارودي» (مهما اختلفت فيه آراء) إلى ما يدور في العالم من حولنا فيكتب : «هناك خطة لتقسيم مصر إلى دولتين في التسعينات» .

ومن قبل مصر بزمان كانت لبنان . . خطط ومؤامرات تدبر بنفس العقلية ولو كنا نقرأ الكتب لاكتشفناها وفهمناها من زمان طويل ، ولكننا للأسف في غالبيتنا محدودو القراءة لدرجة التقصير في حق الإسلام من جراء جهلنا بما يدور في العالم من حولنا . في عام ١٩٨٠ نشر المدعو «ليفا روكاك» كتابه المسمى «الإرهاب الإسرائيلي المقدس» (دار نشر بلمونت ـ ماساتشوستس ـ الولايات المتحدة) . في صفحة ٢٨ ينقل عن مذكرات «موشى شاريت» في ١٦ مايو ١٩٥٤ ، وهو الذي كان رئيسا لوزراء إسرائيل ، خطابا مرفوعا إليه من «موشى دايان» الذي كان رئيسا للأركان يقول فيه : «إن كل الذي يلزمنا هو العثور على ضابط لبناني ولو برتبة رائد ، نكسب وده أو نشتريه ، فيعلن نفسه منقذ الموارنة المسيحيين ، ثم يدخل الجيش الإسرائيلي إلى لبنان لاحتلال الأرض اللازمة ، ويقوم نظام مسيحي يتحالف مع إسرائيل . ثم تضم الأرض جنوب نهر الليطاني إلى إسرائيل نهائيا» . .

وبعد صفحة واحدة (ص٢٩) ينقل من مذكرات «شاريت» ليوم ٢٨ مايو ١٩٥٤ : «إن رئيس الأركان يتبنى خطة لتأجير ضابط لبناني يرضى أن يكون صنيعة في أيدينا حتى يبدو الجيش الإسرائيلي بمظهر الداخل إلى لبنان استجابة لندائه بتخليص لبنان من جبروت المسلمين» .

على زماننا وزمان من قبلنا فهمنا في مصر لعبة «فرّق تسد» هذه التي كان يتقنها المحتل البريطاني ، فإذا شب حريق في كنيسة أدرك الجميع في الحال أنه ملعوب استعماري ولم يزد ذلك المسلمين والقباط إلا وحدة والتحاما . . هل كان الناس في الماضي أذكى مما هم عليه في الحاضر؟ أو أنه الالتهاب الشامل الذي يحدثه القهر والتضييق طغى على جوانب الحياة حتى الجانب الديني؟ أو أنها السطحية في تناول الأمور وأحيانا يكون الجهل خيرا من علم ناقص .

إن الحسنى والمودة والإقساط هي من أمور الدين التي يفرضها الإسلام .

وهي من الأمور الإنسانية التي يفرضها المنطق السليم ، وهي بعد ذلك من أمور الحكمة وحسن البصر . والمسلمون لكل هذه الأسباب أحرى الناس برعايتها والالتزام بها ولو استعانوا عليها بالصبر والصلاة . إن حوالي ثلث المسلمين يعيشون كأقليات في بلاد غير إسلامية هم من رعاياها . وعلى الشعوب الإسلامية أن تقدم المثل والقدوة في احترام مواطنيها من غير المسلمين ، لأن هذا هو الواجب الإسلامي ، وحتى تسد الطريق على الذين يحاولون استعداء المواطنين النصارى على المواطنين المسلمين كما هو واقع في بعض البلاد بدرجات متفاوتة .

إن الشعوب طيبة بطبيعتها على وجه العموم ، لكن الذين جمعوا بين سوء النية وفقر الضمير والضغن على الإسلام لا يدعون حتى سم خياط إلا وحاولوا ولوجه .

في أمريكا وقت كتابة هذه السطور حملة كبيرة أشعل نارها اليمين المسيحي المتطرف بشأن اضطهاد الأقليات المسيحية في البلاد غير المسيحية . وورد ذكر عدد من الدول العربية والإسلامية مثل مصر والسعودية والسودان وإيران وأندونيسيا وغيرها ، بجانب بلاد أخرى غير إسلامية (ضمن ٤٢ دولة) مثل الصين وروسيا التي أظهرت تبرما ملموسا بالحركة التبشيرية النصرانية الضارية من خارج مذهب كنيستها الأرثوذكسية .

والأقلام الكارهة ولغت في هذا الموضوع فأوردت ما لا يعقل ولا يتصور . هل يصدق أحد منا أن تخطف بنت مسيحية في بلادنا ثم تجبر على اعتناق الإسلام والنطق

بالشهادتين وتجبر على الصلاة في وقتها ثم هي في خلال ذلك ينهتك عرضها عددا من المرات من قبل رجال متعددين؟ التركيبة نفسها غير متسقة ومن له أدنى علم ببلادنا خيرها وشرها لا يمكن أن يصدق ذلك ، ولكن ماذا عن الجهلة والبسطاء والذين يتصيدون تلك الغرائب فتصادف في نفوسهم الهوى الذي يحب أن يصدقها فلا يحاول تثبتا ولا تمحيصا؟

ووجد الموضوع أصداءه في مجلس الشيوخ الأمريكي ، وارتفعت أصوات تدعو إلى حجب المعونات وإلى المقاطعة الاقتصادية على ضوء معاملة كل بلد لمسيحييه . وأخيرا رفع الموضوع إلى البيت الأبيض ، الذي تفادى الإحراج بإحالته إلى لجنة من مختلف الأديان . . ويشاء السميع العليم أن يصل إلى اللجنة صوت الإسلام ممثلا في أحد قادة المركز الإسلامي لجنوب كاليفورنيا وواحد من شبابنا النابهين يعلم القانون في جامعة تكساس . وعقدت اللجنة وكأنها مجلس عزاء يبكي على ما يحل بالمسيحيين في العالم من اضطهاد . وطال الكلام حتى أتى دور الإسلام فقال :

أولا : سمعنا الكثير ولكننا لم نسمع عن طريقة التحقق من تلك الأخبار .

ثانيا : إننا ندين الاضطهاد الديني والتعصب الطائفي على نطاق الأديان كلها مهما كان الظالم ومهما كان المظلوم . وقصر الموضوع على المسيحيين هو بداية التعصب بالفعل .

ثالثا : إن الدعوة لتدخل أمريكا بحسب المقترحات التي وردت لا تذكرنا إلا بأيام الاستعمار القديم الذي كان يبعث بالأسطول إلى الشواطئ فتطيع الحكومة أو تسقط .

رابعا : إن هناك حساسيات قد لا يحس بها الناس هنا ولكنها من حقائق الحياة التي لا يمكن إغفالها . . وهي أن جيش الاحتلال أيام الاستعمار كان من أهم أسلحته سلاح المبشرين بجانب المشاة والمدفعية والمدرعات ، وارتبط التبشير بالاحتلال في أذهان الناس .

خامسا : حاول عضوان في مجلس الشيوخ التظاهر بعدم التعصب للمسيحية

فاقترحا عقوبة الدول التي تضطهد اليهود والمسيحيين والبهائيين والبوذيين ! فماذا عن سائر الأديان هداكم الله؟ وهل فكرتما كيف ستبدو الأقلية في عين الأغلبية إن جاءت دولة أجنبي لحماية الأقلية؟

سادسا : إننا في مقام إدانة الاضطهاد الديني على إطلاقه نتوقع أن يضم الملف أيضا دراسة وافية عن اضطهاد المسلمين في أنحاء العالم وعلى سبيل المثال الهند وكشمير والفلبين والبوسنة ودول الاتحاد السوفييتي من قبل ومن بعد والصين وأوروبا بل وفي أمريكا نفسها .

سابعا : ويجب أن يمتد البحث كذلك إلى اضطهاد المسلمين بسبب إسلامهم في بعض بلاد الأغلبيات المسلمة ، فهم في الحقيقة الهدف الأول للاضطهاد الديني ، وتصور تطلعاتهم الديمقراطية بأنها تطرف وإجرام .

ثامنا : ثم أننا نلاحظ أن النقاش كله لم يرد فيه ذكر إسرائيل بكلمة واحدة ، مع أن الكل يعلم أن كلا من المسيحيين والمسلمين يعانون الاضطهاد الديني هناك لدرجة أن الجالية المسيحية قد رحل أكثرها . فبماذا نبرر هذا الصمت الناطق؟

ولا ندري ونحن نكتب هذه السطور إلام ينتهي الموضوع .

إننا نبذل الجهد الجهيد ونحرز تقدما ملموسا والحمد لله ، ولكن خلال الرحلة نلقى سهاما تجرحنا أحيانا هي من صنع مسلمين مع الأسف الشديد . . إصابات من «نيران صديقة» على حد التعبير الذي سمعناه وقت حرب الخليج .

نشرح الإسلام فيحترمونه ويعجبون به . ثم يجيء دور الأسئلة والإجابات .

من الأسئلة المكررة :تقولون إن الإسلام دين السلام . . فلماذا يتقاتل المسلمون ولا تكاد رحى الحرب تقف بينهم؟ والتهمة صحيحة ولا شك . ومن مآسي هذا القرن أن تهاجم العراق إيران وتستمر الحرب بينهما سنوات تأكل الأخضر واليابس ويموت الملايين ويخرب العمران وتصب أموال النفط في خزائن الذين يضمرون الشر لإيران والعراق ويبيعون السلاح للطرفين جميعا . . وينتكئ الجرح البليغ الذي أصاب جسم

الإسلام منذ الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية ، والذي كنا نؤمل أن يندمل لأنه جرح في جسد الإسلام .

ومن المآسي أيضا هجوم العراق على الكويت وما جره من آثار لم يكن من الصعب التكهن بها . . بل لقد اجتمعنا ـ خمسين مركزا إسلاميا ـ في نيويورك وبعثنا إلى الرئيس العراقي برقية تقول إن شخصا واحدا فقط يملك أن يمنع الوجود العسكري الأجنبي في الجزيرة العربية ، هذا الشخص هو أنت إذا بادرت بالانسحاب من الكويت على الفور .

لكنها طبائع الأمور . لقد كان من السهل على المسلمين في العهد الأول أن يقدموا النصيحة للرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته الكبار رضي الله عنهم ، ولكن من أعسر العسير تقديم النصيحة للدكتاتور ، فشأنه أن يتأله ويعتقد لنفسه العصمة ، ثم يورد شعبه العراقي وشعبه العربي وأمته الإسلامية موارد الهلاك والفقر والفرقة والعداوة وتعطيل المسيرة العربية والإسلامية قرنا على الأقل من الزمان .

ونجيب الناس بأن ما رأوه لا ذنب للإسلام فيه ، كما أنه لا ذنب للمسيحية إن ظهر فيها هتلر .

ويقولون إذا كان الإسلام كما تزعمون دين التراحم والتآخي والتعاون فلماذا هذه الهوة الفلكية بين الذين لديهم والذين ليس لديهم في العالم الإسلامي على نطاق الأفراد وعلى نطاق الدول على السواء؟ والحق أنه لغز محير .

العالم العربي وحده ـ ومن باب أولى العالم الإسلامي ـ لديه من الموارد المادية والبشرية والاستراتيجية ما يكفل له الاكتفاء بل الثراء ويهيىء له القوة الاقتصادية والعسكرية التي تعصمه من أن يحني رأسه أو يمد يده . . ولا تفسير عندي لذلك إلا عطب الإيمان وضحالة الصلة بالله .

أحيانا يمتد خيالي ـ وخيالي واسع ـ فأتصور أننا يوم القيامة وقد قيل : «إن الدين عند الله الإسلام» . . وسئل ناس لماذا لستم مسلمين؟

فأجاب البعض لم نسمع بالإسلام وأجاب البعض لم نسمع عنه خيرا وأجاب البعض نظرنا إلى المسلمين فلم نجد ما يغرينا بأن نكون مثلهم . فأخاف آنذاك أن تغير أصابع الاتهام اتجاهها إلينا نحن . . وأننا نحن إذن في قفص الاتهام .

ينبغي أن نعرف أن الدنيا كلها دار دعوة .

وينبغي أن نذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن مهمته أن يجعل الناس مسلمين ، ولكن أن يبلغ الإسلام إلى الناس ويعرفهم به . إن الله سبحانه وتعالى يحدد له مهمته في قوله : «ما على الرسول إلى البلاغ» . . وقوله : «فذكّر . إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر» . . وقوله : «فإما نرينّك بعض الذي نعدهم اونتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب» . ولقد مرت بالنبي عليه الصلاة والسلام لحظات كان يشعر فيها بالأسى لعدم استجابة الناس له ، فيوجهه الله بقوله : «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا . أفأنت تُكرهُ الناس حتى يكونوا مؤمنين؟» .

على أن الله سبحانه وتعالى لم يقصر مهمة البلاغ على شخص النبي عليه السلام ، وتوجيهه في ذلك صريح بقوله : «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني» . وأود أن أعلق مصباحا على «ومن اتبعني» هذه . .

لكي يصارح كل مسلم نفسه بأمانة وصدق فيسألها إن كان حقا قرر هل هو من الذين يتبعون محمدا أو الأمر غير ذلك ، فإن كان من الذين يتبعون محمدافمن مهماته الإسلامية ألا يظل هذا الدين مجهولا أو مجهولا عليه . إن مما يفرضه الدين علينا أن نخرج به إلى الناس . لا ينبغي أن نجعل من الإسلام كنزا في صندوق مغلق أومصباحا يحجب نوره عن الناس . الدنيا كلها دار دعوة ، وإلا فكيف سنكون شهداء على الناس إن انزوينا وزوينا إسلامنا عن الناس .

لكنني ألفت نظر إخوتي المسلمين ـ ونظر شباب الصحوة بالذات ـ إلى أن الدعوة ليست خطابة لكنها أعمال . وأن الناس لا تقرأالإسلام في الكتب ولكن تقرؤه في المسلمين . وأن تعاملا إيجابيا مع مسلم هو خير من ألف خطبة ، وفي اعتباري أن كلمة «إسلام» ليست اسما ولكنها فعل .

ولقد أتيح لي أن أطلع على نماذج مبهجة لهذه الدعوة العملية الصامتة . شاب مسلم تقدم للعمل مديرا لفرع شركة تملك سلسلة من البقالات . أثناء اللقاء الشخصي بادرالسيدة التي كانت تختبر المتقدمين بادئ ذي بدء بأن من شروطه إذاوقع الاختيار عليه أن يعطى يوم الجمعة الوقت الكافي لأداء الصلاة في المسجد لأنه مسلم . وشاءت الظروف أن يوظفوه ولأول مرة من أشهر عديدة يحقق هذا الفرع أرباحا ملموسة نتيجة لأمانته وإخلاصه في العمل . وبعد أشهرلقيته نفس السيدة فروت له أنها كانت في بلد آخر تجري اللقاء الشفهي لعدد من المتقدمين لشغل وظيفة مماثلة .

دخل المتقدم الأول ففتح الجلسة بأن قال عليّ أن أشترط بادئ ذي بدء أنه إن وقع عليّ الاختيار فلا بد من ذهابي للمسجد يوم الجمعة لأداء الصلاة» . . قالت له على الفور : «لقد حصلت على الوظيفة» . . ولم تكمل اللقاء مع الآخرين .

وفي مدينة «سياتل» على ساحل أمريكا الغربي كانت تعيش سيدة عجوز ـ رحمها الله ـ من سنوات ، اتخذت أخطر قرار في حياتها وهي في السادسة والثمانين من عمرها ، وكان قرارها باعتناق الإسلام . كانت مقعدة لا تسمح لها مفاصلها بالحراك . ورزقها الله بجارة طبيبة باكستانية كانت تتطوع بزيارتها في وقتها الخاص وأخذتها بالتشجيع والدواء والتدليك في دأب ومثابرة حتى استطاعت المشي من جديد . استغربت أن تتطوع طبيبة بكل هذا الجهد وبلا أجر . سألتها فأجابت بأني مسلمة وأن دينهايفرض عليها رعاية الجار ورعاية المسن ورعاية المريض والضعيف . وقالت إنها لم تضيع وقتا ولا جهدا ولكنها كسبت من الله أجرا وثوابا لا يعدله شيء . .

واستفسرت السيدة ، وأسلمت ، وبعد قليل ماتت فكانت من الفائزين .

وأذكر أني دعيت لندوة إسلامية بمدينة الرياض . جلس جواري على المنصة شاب حسبته سورياً ولفت نظري أن لغته العربية سليمة الأداء خالية من الأخطاء ، وعندما هنأته على ذلك إذا به أمريكي من الولايات المتحدة كان أبواه مدمنين للخمر ولم يدخر وسعا ولا علاجا طبيا أو نفسيا أو اجتماعيا لإنقاذهما من تلك اللعنة التي حطمت

حياتهما الأسرية . وجمعته الظروف بشاب في مناسبة اجتماعية ، وأخبره الشاب أنه لا يشرب الخمر لأنه مسلم والإسلام يحرم شربها البتة . كان النبأ جديدا عليه ولكن اشتعلت في نفسه الرغبة في التعرف على هذا الدين . .

وعرفه ، واعتنقه ، وتعلم من أجله العربية حتى أتقنها .

ودعواتي لشباب الصحوة من الله بهداه ورضاه .

وكما تعبر قطعة السكر عن نفسها بحلاوة الوعاء الذي توضع فيه ، أتمنى أن نرى أثر الصحوة في رفع المستوى الأخلاقي للمجتمع والتزامه بالأمانة في التعامل واستتباب المحبة بين المواطنين على اختلاف العقائد والمذاهب والحد من الرشوة والفساد وتزكية النفس ووصل الضمير بالله .

تلك هي المؤشرات التي تقاس بها الصحوة ، وتبقى القلوب من قبل ومن بعد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء .

والأديان

والأديـان

لعل أنسب ما نفتتح به هذا الباب قوله تعالى : «ولقد كرمنا بني آدم . وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» (الإسراء : ٧٠) .

الإنسان مكرم بحكم أنه إنسان .

وهو شرف يسبغه الله سبحانه وتعالى على كل بني آدم ، حتى على الرغم من علمه تعالى ـ وعلم الملائكة ـ أن منهم من سيفسد في الأرض ويسفك الدماء .

والانتساب لآدم وحواء وشيجة وقربى ورحم تجعل من الناس جميعا أسرة واحدة في شبكة واسعة من أبناء العمومة والخؤولة ، ومن هذا المنطلق لا بد أن تصاغ العلائق بين الناس والناس .

وكل إنسان ـ على اختلاف الشيم والصفات والأوصاف ـ يحمل في داخله نفخة من روح الله التي أودعها الله آدم ، لا يستأثر بها بعض ويحرم آخرون .

وتتشعب الأسرة الإنسانية وتنساح في أرجاء الأرض ، فلا يني خالقها سبحانه وتعالى يذكرها في قوله : «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» (الحجرات : ١٣) . وكلمة «لتعارفوا» في الآية تحمل معنيين : الأول أن يعرف بعضكم بعضا والثاني أن تتعاملوا فيما بينكم بالمعروف .

ولم تقض خطة الله سبحانه وتعالى أن يجعل الناس على لسان واحد أو لون واحد أو شكل واحد أو دين واحد . فهو يذكر نبيه الكريم : «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا» (يونس : ٩٩) ، ويقول عز من قائل : «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة» (المادة : ٤٨) ، وكذلك : «ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة» (الشورى : ٨) .

وجاء الإنسان إلى الأرض وتبعه الشيطان . وآتاه الله الهدى الذي يحصنه من

الاستجابة للشر لكنه تركه حرا في اختياره ليكون مسئولا عما يختار ولتنعقد أهليته للحسابين : حساب الدنيا وحساب الآخرة ، والثاني آكد وأبقى ولا فكاك منه .

والهدى الإلهي جاء عبر سلسلة طويلة من الرسالات والنبوات آخر حلقاتها اليهودية فالمسيحية فالإسلام . وبين مئات الأديان الموجودة في العالم تبقى هذه السلسلة هي المرتكزة على الاعتقاد بالخالق الواحد ، وبالنبوات والرسالات ، وبالحساب والجزاء ثوابا وعقابا ، وبيوم الحساب والدار الآخرة . فمن الطبيعي إذن أن تكون هذه الأديان الثلاثة أقرب إلى بعضها البعض منها إلى سائر الأديان ، ويسمي القرآن المسيحيين واليهود «أهل الكتاب» لأن الله سبحانه وتعالى أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى عليهما السلام ، قبل أن يتلقى محمد عليه الصلاة والسلام الرسالة في اكتمالها مصدقة لما بين يديها ومصوبة ومصححة ومفصلة أمور الشريعة والقانون بجانب العبادات والأخلاق ، فنزل القرآن الكريم وهو الوحيد الباقي على أصله الذي نزل به في لغته الأصلية كلمة بكلمة وحرفا بحرف .

وإلى هذا الأصل المشترك يلفت الله سبحانه وتعالى أنظارنا في قوله : «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» (الشورى : ١٣) .

والمساحة المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب مساحة واسعة ، وإذا كان الإسلام قد جعل في قلوب المسلمين متسعا للتعايش مع كافة بني الإنسان ففيه من باب أولى متسع للتعايش بين المؤمنين بالله .

ولا يعني هذا التعايش السلمي أننا متفقون في كل شيء . وإذا اشترطت ألا أبذل الحسنى إلا لمن كان مثلي تماما (مسلما أم غير مسلم) فمعنى ذلك أنني لا أحب إلا نفسي ، وأن الاختلاف معناه العداوة ، وهي غلطة يقع فيها نفر من المسلمين حتى في اختلافهم فيما بين بعضهم وبعض .

ولعل من المفيد بجانب العلم بالمشترك أن يعلم الجميع ـ وأهل الكتاب بخاصة ـ

نقاط الاختلاف بشيء من التحديد ولو بإيجاز ، حي يحددوا موقفهم من الإسلام والمسلمين بشيء من الدقة العلمية ، بدلا من الخضوع لعملية غسل المخ التي صورت لهم أن الإسلام شر كله وخطأ كله في عمومية لا مكان فيها لتمحيص أو لتخصيص ، وأن المسلمين كفار وأعداء المسيح ، ولطالما سئلت في محاضراتي بالغرب : إذا كنتم تعبدون God فمن هو «الله» هذا؟ فأجيبهم بأنه هو يهوه Yahweh في اللغة العبرية وديو Dieu في اللغة الفرنسية وثيوس Theos في اللغة اللاتينية وخودا Khoda في اللغة الفارسية وهكذا وهكذا ، لكن اللغة الإنجليزية ليس ليها اسم له فقصاراهم أن يكتبوه God بدلا من god ! .

وأول الاختلافات بين أتباع اليهودية والمسيحية (الأتباع وليس الدين) وبين المسلمين هو ذلك الاختلاف العمومي الجذري . فسلسلة الرسالات عند اليهود انتهت باليهودية . . وعند المسيحيين انتهت بالمسيحية ، ويؤمن المسلمون أنها امتدت إلى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، التي قال عنها المولى سبحانه وتعالى «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا» (المائدة : ٣) .

ويعتبر الإسلام اليهود والنصارى أهل ديانة سماوية حتى إن لم يكن هذا الاعتبار متبادلا . إن عدم الإيمان بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام هو عندنا أمر عظيم وشأن خطير . . بل هو أمر فارق . ومع ذلك فظاهر أن الإسلام استوعب هذا الخلاف لا بالتهوين من أمره أو المهادنة العقيدية له ، ولكن بما رسمه في باب المعاملات من تعاليم تسمح بالتواصل والتراحم رغم خلاف المعتقد .

فإذا جاوزنا هذا الخلاف الجذري ووقفنا خارج نطاقهم لننظر في أمورهم العقيدية الأخرى على ضوء ما بين أيديهم من كتب يعتبرونها كتبا مقدسة ، وجدنا أمورا غريبة عنا نحن المسلمين لا تتقبلها فطرتنا بل تنبو عنها مسامعنا .

إننا إن ذكرنا الله أو تحدثنا عنه فإدراكنا كامل بأنه هو المطلق الأزلي الذي لا يحده حد ، وهو القدوس الذي نختار للحديث عنه لغة التوقير والإجلال والتقديس على أقصى ما تستطيع اللغة أن تعبر . ولهذا نستغرب عندما نطالع عنه في العهد القديم

عبارات تتحدث بأنه سبحانه وتعالى كان يتمشى في جنة عدن ، أو أنه جمع الملائكة وقال لهم انظروا إلى آدم إنه يريد أن يكون واحدا منا ، أو أنه أمر بالطوفان ثم ندم وقال وددت لو لم أفعل هذا ، أو أن يعقوب صارع الرب فصرعه أو أن الله اشتغل بالخلق ستة أيام فاستراح اليوم السابع . هذه عبارات لا نعتقد أن الله ـ تعالى عما يقولون ـ قد أوحى بها . ولا تأويل لدينا إلا أن اليد البشرية هي التي أقحمتها على التوراة .

وعندما نذكر الأنبياء فهم لدينا خيرة الله من خلقه ، الذين اصطفاهم ليحملوا رسالته للناس وليكونوا لهم الأسوة والقدوة . فليس مما يعلمه ديننا أن الأنبياء يرتكبون مثلا الغش والاحتيال مثلما نقرأ لديهم أن يعقوب (إسرائيل) تدثر بفروة خروف ليكون ملمسه غزير الشعر وحمل طعاما إلى أبيه اسحق الذي قارب العمى وأوهمه أنه عيسو أخوه ليعطيه البركة التي كانت من حق عيسو . وليس من ديننا أن الأنبياء ترتكب الفاحشة مثلماجاء في عهدهم القديم من أن لوطا عليه السلام سكر فواقع بنتيه .

إن المسلم ليرتعد لقراءة ذلك ، ولا يمكن أن يكون هذا حدث ، ولا يمكن أن يكون قد أوحى به الله سبحانه وتعالى في التوراة ، ولا تفسير له إلا أن يد إنسان شرير هي التي زيفته على التوراة .

ثم نذكر اليهود بالذات ، لا سيرتهم وتصرفاتهم فلهذا مكان آخر ، لكن في ما يعتقدون وما يدينون به ، فنجد اختلافين رئيسيين . الأول أن الإسلام لا يتبنى مفهوم الجنس المختار . هم يعتقدون أن الله قسم البشرية إلى شعبه المختار أي اليهود وإلى الباقين وهم الجوييم أو الأمميون . الناس في القرآن ذرية «ذكر وأنثى» هما آدم وحواء ، والناس في الحديث «سواسية كأسنان المشط» ، و«كلكم لآدم وآدم من تراب» كما يقول النبي عليه الصلاة والسلام ، وإنما يتفاضل الناس بتقوى الله «إن أكركم عند الله أتقاكم» ، لا بالانتساب إلى سلالة بيولوجية معينة . واختلافنا الثاني مع اليهود هو الموقف تجاه عيسى عليه السلام وأمه العذراء مريم . كان عيسى واحدا من اليهود أرسله الله لهم برسالة الحب والورع والتسامي على المطامع المادية ونوازع الأنانية ، ومذكرا بلباب الدين وروحه بعد أن أغرقوه في الشكليات والمراسم الجوفاء ، ومحلا لهم بعض الذي

حرم عليهم ، ومبشرا برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، ومبلغا للإنجيل الذي أنزله الله عليه . وقد صدق به فريق منهم فأصبحوا النصارى أو المسيحيين ، أما الباقون الذين كفروا به ولا يزالون فبقوا يهودا يعتقدون أن عيسى كاذب ومدع وأن أمه لم تكن شريفة عذراء كما تزعم لكن زانية جاءت شيئا فريا .

وإزاء اتهامات اليهود وما رموا به عيسى وأمه وما تآمروا عليه وكادوا له يتصدى القرآن للدفاع عن عيسى وبيان وجه الحق فيه وفي أمه وفي رسالته وفي المعجزات التي أيده بها الله فوصفها اليهود بأنها سحر مبين .

ولن نتقصى بالحصر ذكر ذلك في القرآن الكريم إذ ذكر عيسى في ثلاث عشرة سورة وثلاث وثلاثين آية ذكرته تسعا وخمسين مرة ،خمس وعشرون منها باسم عيسى وثلاث وعشرون بابن مريم وإحدى عشرة بلفظ المسيح . أما والدته مريم فذكرها القرآن اثنتي عشرة مرة منها واحدة بوصف «التي أحصنت فرجها» .

وإنما نقتبس أمثلة مثل قوله تعالى : «إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه» (النساء : ١٧١) ، وقوله : «وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين» (المائدة : ٤٦) .

أما العذراء البتول مريم فيقول عنها القرآن : «وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين» (آل عمران : ٤٢) ، ويقول : «إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين» (آل عمران : ٤٥) .

ونؤمن أن الله سبحانه وتعالى أيد عيسى بروح القدس ، «وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القُدس» (البقرة : ٨٧ ، ٢٥٣) . وأن الله أجرى على يديه معجزات : «ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن

كنتم مؤمنين» (آل عمران : ٤٩) . بل إن القرآن الكريم زاد على المعجزات معجزة أخرى لم تذكرها الأناجيل .

وعندنا أنها معجزة بالغة الأهمية . تلك هي كلام عيسى وهو في المهد صبي . ووجه الأهمية فيها أن مريم لما ولدت عيسى أشفقت من التهمة التي ستواجهها وقالت «يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا» . وحشها الصغير أن تأتي به قومها ولا تتكلم فهي نذرت صوما بعدم الكلام . «فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا» (مريم : ٢٧ ـ ٢٨) . هذه تهمة الزنا سافرة صريحة . وكانت مريم حسب التوراة (التثنية ٢٢ : ١٣ ـ ٢٧) تستحق عقوبة القتل ، فما الذي نجاها من ذلك إلا أن تفاجئهم آية تذهلهم ، فكانت كلام عيسى في المهد . «فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا . قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا . والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا» (مريم : ٣٠ ـ ٣٣) . لطالما حاضرت التجمعات المسيحية في أمريكا في الكنائس وفصول الجامعات والمؤتمرات والجمعيات وقرأت عليهم قصة ميلاد عيسى كما أوردتها سورة مريم ، فرأيت دموعا تسح من المآقي ذكرتني بدموع النجاشي حين سمعها من جعفر بن أبي طالب ، ورسم بعصاه خطا على الأرض قائلا والله ما بين ديننا ودينكم أكثر من هذا الخط . إنهما يصدران عن مشكاة واحدة .

ولكن !

لئن كان المسلمون إزاء اليهود ينحازون لعيسى عليه السلام هذا الانحياز الكامل ، لقد ظل الرأي في عيسى خلافا أساسيا بين المسلمين وأغلبية المسيحيين منذ القرن الرابع الميلادي إلى الآن . فلقد كانت سنة ٣٢٥ بعد الميلاد هي السنة التي عقد فيها مجمع نيقيه ، وهو الذي قرر «التثليث» عقيدة للإمبراطورية الرومانية . لم يكن المسيحيون الأوائل يعرفون تلك العقيدة ، ولا علّمها الأنبياء قبل عيسى عليه السلام ، وكما تقول الانسيكلوبيديا البريطانية الجديدة : «لم يرد التثليث نصا ولا معنى في

العهد الجديد» ، ويقول الأستاذ إ . واشبورن من جامعة ييل «ويظهر أن عقيدة التثليث لم تكن معروفة عند عيسى أو پول فلم يذكرا عنها شيئا» (كتابه أصل وتطور الدين) ، وتقول الانسيكلوبيديا الكاثوليكية إن تعبير التثليث لا يوجد في الكتاب المقدس . . وأن التثليث جاء أمرا لاحقا في المسيحية في القرن الرابع الميلادي . كان من الطبيعي أن تظهر معارضة قوية من آباء الكنيسة لهذا التطور الجديد ، ولكن الامبراطور قسطنطين عندما دعا إلى مجمع نيقية استبعد المعارضين فلم تحضر سوى أقلية ، ولم يكن قسطنطين نفسه حتى ذلك التاريخ قد تنصر . . . ، ولم تكن فكرة تعيين إنسان إلها فكرة مستغربة لديه فقد اعتُمد أبوه إلها وكان هو يتوقع أن يكون إلها بعد موته .

أما تاريخيا فقد عرفت البشرية تثليثات سابقة في مقام الألوهية مثل ثلاثي براهما ـ سيڤا ـ فيزنو في الهند أو أوزيريس ـ ايزيس ـ حورس في مصر .

ومن يتتبع ما كتب عن تاريخ المسيحية يجد نقاشا مستفيضا بين علماء الدين المسيحي والمؤرخين وغيرهم حول هذا الموضوع . وخلاصة التثليث أن الإله الواحد يتجلى في أقانيم ثلاثة هي الأب والابن وروح القدس . . ثلاثة في واحد . . وواحد في ثلاثة (وإن كان ترفيع الروح القدس لمرتبة الألوهية لم يتم إلا في عام ٣٨١ ميلادية في مجمع القسطنطينية الذي عقده الامبراطور ثيودوزيوس) .

وعامة أصدقائي المسيحيين يؤمنون بالثالوث المقدس ، وقد نتناقش (في غير عداوة) فيقولون إنها «دوجما» تؤخذ إيمانيا كما هي ولا تخضع للمنطق أو الجدل .

ولن أحاول أن أنقل حلبة الصراع بين الآراء المتعددة داخل المسيحية عن التثليث إلى صفحات هذا الكتاب . ولن أحاول كذلك أن أفتح نقاشا جديدا في محاولة لتسفيه الفكرة أو ازدرائها ، وما دام الإخوة المسيحيون الذين يؤمنون بها مستريحين إليها فهذا شأنهم هم ، و«لا إكراه في الدين» (البقرة : ٢٥٦) .

إنما أود أن أذكر أنها فكرة غير واردة في الإسلام (ولا في اليهودية أو العهد القديم) ، وأن الإسلام حين يعبر عن الله تعبيرا رقميا فإنه لا يستعمل إلا لفظ

«الواحد» . . وأن الله فوق إدراكنا لا ندرك كنهه إنما نتعرف عليه في آثاره ، وأنه لا نهائي ولا نقدر أن نقسم اللانهائية إلى أقسام أوأقانيم .

وعيسى عند المسلمين نبي كريم ورسول أمين ولكنه بشر خلقه الله ولم يلده ، ويقول القرآن : «قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد» . وفكرة الخلاص عند المسلمين تدور حول الصلة المباشرة بين الخالق والمخلوق . وبينما يرى المسيحيون أن عيسى قتل على الصليب ليكون دمه كفارة عن خطايا الناس يؤمن المسلمون أن المسؤولية فردية وأن الله يعاقب أو يعفو ولكنه لا يقتل أحدا للتكفير عن خطايا الآخرين . . بل إن عيسى طبقا للقرآن ما قتل ولا صلب ، «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما» (النساء : ١٥٧ ـ ١٥٨) .

لسنا معصومين من الخطأ ولا قصد بنا ذلك . ويقع المسلم في الخطأ أو الخطيئة فيرفع وجهه إلى الله تائبا ومعتذرا ومؤملا في المغفرة في غير حاجة لقربان بشري (أو إلهي كما يعتقد إخوتنا المسيحيون) ، ولا حتى للذهاب إلى قسيس من البشر يعترف له فيقول اذهب يا بنيّ فقد غُفر لك .

الله عند المسلمين هو العدل المطلق لكنه له كذلك الرحمة المطلقة . وأملنا فيه لا ينبني على فضلنا ولكن على فضله هو ، ودعاؤنا إياه اللهم لا تعاملنا بعدلك ولكن برحمتك ومغفرتك ، وهو يقول في حديثه القدسي : «يا بن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني ، غفرت لك ما كان منك ولا أبالي . يا ابن آدم : لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك . يا ابن آدم : إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة» (الترمذي وأحمد عن أنس) . فهذا الحديث وأمثاله كثير يعطينا الأمل فلا ييأس خاطئ ،وآيات التحذير وأحاديثه تخوفنا لكي لا نستهين ، ويبقى القرار لله سبحانه وتعالى فهو في نطاقه الذي لا يقدر بشر أن يتطرق إليه . نحن نعيش بين الخوف فلا نفجر وبين الرجاء فلا نيأس ، وليس الحال

كماقال لي صديق مسيحي في دعابة ما بين صديقين : أما أنا فأذنبت وأذنب وسأذنب لكن خطاياي مدفوع ثمنها سلفا بدم المسيح فأنا أضمن مصيري وأنت تعيش في قلق . قلت له وأناأداعبه كذلك يا بختك ! فالمسؤولية عندنا فردية والقرآن يقول : «ولا تزر وازرة وزر أخرى» (فاطر : ١٨ ـ الأنعام : ١٦٤ ـ الإسراء : ١٥ ـ الزمر : ٧) ، ويقول : «كل نفس بما كسبت رهينة» (المدثر : ٣٨) ، ويقول : «ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه» (النساء : ١١١ ـ البقرة ١١١) وأمثاله في القرآن كثير . والنبي نفسه يقول لأهله : «اعملوا آل محمد فإني لا أغني عنكم من الله شيئا» ، وأبو بكر الصديق صاحبه الأول يقول : «لو وضعت إحدى قدميّ في الجنة ، لا آمن مكر الله» . ويقوي عقيدتنا في نفوسنا أن يجتمع عليها الإيمان والعقل والمنطق ، فإذا ارتكب ابن لي خطأ فإما أن أسامحه وإما أن أعاقبه ، أما أن أعاقب ابنا آخر ليكفر عن ذنب أخيه فهي فكرة غريبة علينا .

تلك ولا شك خلافات ، وقد سبقت الإشارة إلى مفهوم الخطيئة الأولى وبعثة الإنسان إلى الأرض . فماذا بعد هذا؟

ما الذي نفعله إزاء تلك الخلافات؟ يذبح بعضنا بعضا أم نحتمل اختلافاتنا ونتفق على أننا غير متفقين وقد نتبادل وجهات النظر ويكون كلٌ قد أبرأ ذمته ومن بعد ذلك يسير ركب الإنسانية في انسجام ووئام؟

يدلنا التاريخ الإنساني للأسف أن المسلك الأول كان هو الخيار في كثير من الحالات .

وكان قادة تلك الحروب من رجال الدين الذين يزعمون الهيمنة عليه والحديث باسمه .

كان ذلك بين دين ودين آخر مثل المذابح التي تعرض لها اليهود في أوروبا المسيحية على مدى تاريخها أو المسلمون في محاكم التفتيش والحروب الصليبية وجمهورية البوسنة في التاريخ الحديث . كما حدث حتى بين أتباع الدين الواحد مثلما حدث بين الكاثوليك والبروتستنت في السابق واللاحق .

ويجابهنا سؤال بسيط : هل نعتقد حقا أن الله سبحانه وتعالى يسره ويرضيه أن يهب عباده «من أجله» فيقتل بعضهم بعضا وتجري دماؤهم أنهارا ويتيتم صغارهم وتترمل نساؤهم ويحل الخراب بديارهم؟ نعتقد أن إجابة أي إنسان سويّ العقل سويّ الإيمان سيقول لا . ولهذا نستغرب حين يقول قديس مثل «سانت برنارد» وهو من أقطاب دين «أحبوا أعداءكم» ، في تعليق على الحروب الصليبية : «إن المسيحي يشعر بالمجد لقتل مسلم لأن في ذلك تمجيدا للمسيح» (دانيال : الإسلام والغرب ، ١٩٦٠ ، ص١١٣) . . ولكن اليهود غير منسيين أيضا ، «إننا أرسلنا قواتنا لمسافة بعيدة لكي يحاربوا أعداء الله في المشرق ، فكيف وتحت عيوننا ألد أعدائه : اليهود . لا بد من تدبير أمرهم أولا» (كاهن : «أحوال الألف سنة» ، ١٩٥٧ ، ص٧٠) .

ونستغرب كذلك لحادث مثل مذبحة باريس التي ذبح فيها الكاثوليك أربعين ألفا من البروتستانت بعد أن دعوهم للقدوم لهم وأمنوهم . . وهو عداء لم يغسله مرور القرون فما زال مستعرا في إيرلندا حتى الآن .

إن الإسلام قدم الحل العاقل والناضج والسلمي . . ولم يأمر المسلمين بأن يحاربوا الناس لمجرد أنهم يعتنقون دينا آخر .

وذكر المسلمين بأنهم ليسوا القضاة في هذه الاختلافات العقائدية ولكن الحكم فيها هو الله سبحانه وتعالى : «إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون» (المائدة : ٤٨) .

أما عن القتل والقتال فللدفاع فقط : «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين» (البقرة : ١٩٠) .

أما الذين لم يقاتلونا : «لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين» (الممتحنة : ٨) .

والكلام عن أهل الكتاب كلام مودة وسلام .

ويزعم لي بعض المتحمسين أن المقصود أهل الكتاب الذين عاشوا في زمن النبي عليه الصلاة والسلام إذ كانت عقيدتهم سليمة كعقيدتنا . فلا والله . وإلا لما أورد القرآن ذلك اللوم والتقريع والدعوة إلى التصويب وصارحهم بالتهمة وحثهم أن ينتهوا خيرا لهم .

وقال لي أيضا متحمس من أبنائي إن الله يقول : «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم» (المائدة : ١٧) . . قلت نعم . ولكن ينبغي أن نطالع المدى القرآني كله فيما ذكر عن أهل الكتاب ، وإلا كنا كمن يضرب القرآن بالقرآن . فلكل آية ظرفها الذي نزلت فيه ، والقرآن متن والسنة بعد ذلك شرح ، ويستوعب ذلك علم الفقه فيدلنا على الأحكام . ومن يطالع القرآن الكريم غير مجتزئ بالآية أو الآيتين يدرك تعدد لهجة القرآن في كلامه عن أهل الكتاب ، ونورد على سبيل المثال لا الحصر طائفة من الآيات :

«قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» . (آل عمران : ٦٤) .

«ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إليناوأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» . (القصص : ٤٦) .

«فمن حاجك من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» . (آل عمران : ٦١) .

«ليسوا سواء . من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين» . (آل عمران : ١١٣) .

«وإذا سمعوا ما أنزل على الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق» (المائدة : ٨٣) .

«إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون» . (البقرة : ٦٢) .

«لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا . ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون» (المائدة : ٨٢) .

«وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان» (المائدة : ٥) .

وبجانب ذلك يفيض القرآن في ذكر ما هم عليه من خطأ ويعنفهم على أخطاء ارتكبوها في حق الله أو حق أنبيائهم أو حق أنفسهم أو حق الإسلام .

ولنا تعقيب من قبيل الاستطراد على الآية الأخيرة التي تبيح للمسلم زواج الكتابية مع كفالة حريتها الدينية حسب معتقدها وإن لم يتفق مع عقيدة الزوج المسلم .

غير معقول في نظري أن يحل الله لمسلم زواج امرأة بشرط ألا يحبها . إن الزواج أوثق رباط بين اثنين وهو عقدة وميثاق غليظ كما يذكر القرآن الكريم . أقول هذا لنفر يحسبون أن من حسن الإسلام أن يكرهوا أهل الكتاب . أنا لا أشاركهم هذا الرأي ، وأنا إنسان لا يكره . وفي تجربتي أن القلب العامر بحب الله ليس فيه مكان للكره . . قد أكره الشر لكن لا أكره الشرير . وقد أحارب بدافع العدل لا بدافع البغض . وإذا تمنيت لكل الناس أن يسلموافهذا عندي دليل حب لا دليل بغض .

والاستطرادة الثانية في مجال هذه الآية هي أنها كانت المناسبة التي لجأ فيها عمر ابن الخطاب رضي الله عنه إلى فقه «تضييق المباح» ، حين تزوج أحد عماله في

الأمصار نصرانية رومية في بلاد الشام ، وسمع بذلك عمر فكتب إليه أن إذا وصل إليك كتابي هذا فطلقها . وأراد الرجل أن يفحم عمر فرد عليه بكتاب يسأله أهذا الذي فعلته حرام؟ ورد عمر : لا . ليس بحرام . ولكن إذا افتتنت أنت وأمثالك بنساء الروم وحسنهن فتزوجتموهن فمن سيتزوج نساء العرب؟

وقد لا يحس الناس في بلاد المسلمين أن هذه مشكلة . ولكن لها أبعادها في بلاد الأقليات الإسلامية . يسألنا الشاب إن كان زواجه من كتابية حراما (وهو عادة يريد الإجابة ليفحم به والديه المعترضين) ، فنقول لا . ليس حراما ولكنه ليس أفضل الحلال . لأن مما يفرضه الإسلام على المسلم الذي يزمع الزواج أن يفكر في مصير أبنائه وهل سيكونون مسلمين أو يضيعون من الإسلام ، وواضح أن فرصتهم أقل كثيرا إن كانت أمهم غير مسلمة . كما أننا أقلية ولا نبيح للفتاة المسلمة أن تتزوج غير مسلم ، فكل شاب تأخذه كتابية فإنما حرمت منه فتاة مسلمة . ويستجيب البعض لهذا النصح .

كذلك تسألنا الشابات المسلمات ـ ونحن في عصر التبرم والتحرر والمساواة ـ لماذا يباح للرجل أن يتزوج كتابية ولا يحل للمسلمة أن تتزوج من كتابي؟ وكيف يستقيم هذا مع ما تقولون من أن الإسلام أنصف النساء وجعلهن شقائق الرجال؟

ونقول ، إن الإسلام كالمسيحية واليهودية يعتبر الرجل رأس الأسرة (والمرأة قلبها) في غير ما إخلال بالمساواة والشورى وكمال الاحترام وحسن العشرة . لا بد من رئيس كما أوضحنا في فصل سابق . فإذا كان الرئيس مسلما فإن دينه يعترف بدين الزوجة ويأمره باحترامه وبأن يكفل لها حريتها فيه فلا يمكن أن يقع عليها ظلم . أما إذا كان الرئيس يعتبر الإسلام فرية ومحمدا مدعيا فهنا يُخشى أن يقع على الزوجة الظلم . ولنضرب مثلا بنهار رمضان والزوجة المسلمة صائمة لأنه حق الإسلام والزوج غير المسلم شبق يريد قضاء شهوته وهذا حقه ، هنا يختلف الولاءان ، ولاؤها لله وولاؤها للزوج . . والزوج لا يؤمن بالاسلام .

ونعود إلى موضوع العلاقة مع أهل الكتاب في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . إنه يقول : «من آذى ذميا فقد آذاني» . . ويقول : «أوصيكم بأقباط مصر خيرا

فإن لكم فيهم مودة وصهرا» . وهو قد استقبل وفد نصارى نجران في مسجده وأذن لهم بالصلاة فيه . كل هذا وهو يعلم أنهم لا يؤمنون به نبيا وأنهم يقولون بألوهية عيسى ويقولون بالتثليث . ولم يكن موقفه وتعاليمه عليه الصلاة والسلام بسبب أنه يقرهم على عقائدهم أو استعداده للمهادنة بشأن التوحيد . . ولكنه المنهاج الذي يرسمه الإسلام لمعاملة غير المسلمين .

ثم ننظر إلى أحوال الصحابة رضي الله عنهم فنرى فيهم مصداق ذلك .

عمر يلطم عمروا وابنه لأنه ضرب قبطيا مصريا سابقه فسبقه . ويفرض لفقراء أهل الكتاب من بيت المال . ويدخل القدس لما سلمت له بعد حصارها فيدعوه البطرق «صفرونيوس» أن يؤدي صلاة العصر في كنيسة القيامة فيأبى حتى لايسوء فهم المسلمين من بعده فيتخذوها مصلى وصلى خارج الكنيسة .

وكتب لهم عهده الذي جاء فيه : «هذا ما أعطي عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل «إيلياء» من الأمان . أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم» . قارن هذا بفتح الصليبيين القدس عام ١٠٩٩ كما وصفه أحد قوادهم : «عاث رجالنا في المدينة شاهرين سيوفهم فما أبقوا على أحد حتى الذين جأروا بطلب الرحمة . وخاضت الأقدام في الدم حتى الكعبين . لم نبق على أحد حتى النساء والأطفال . وتجلى حكم الله عادلا ومبهجا» (كاهن ونومان في كتاب أخبار الألف سنة ، عام ١٩٥٧ ، ص٦٨) .

واستقر في الفقه أن القاعدة الشرعية بخصوص المواطنين اليهود والمسيحيين في الدولة الإسلامية كانت ولا تزال «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» . مواطنة غيرمنقوصة ولا ظالمة . في غير قهر على أن يتخلوا عن أي حكم ورد في كتبهم . . «وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه» (المائدة : ٤٧) . . «قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل» (المائدة : ٦٨) . بل كان سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه يحث المسيحيين أن يتبعوا المسيحية ، ويا ليت نصارى اليوم يتعبون المسيحية .

لكن يظل من العدل ومن المنطق بعد هذا أن أحكام الشريعة الإسلامية فيما ليس له بديل في كتبهم ولايصادر شيئا من معتقداتهم ، ينسدل في مساواة كاملة على جميع المواطنين من كل دين ، لا يُظلم أحد لأن الجميع أمام القانون سواء ، عملا بمقتضى الدين عند المسلمين وبمقتضى الديمقراطية عند غيرهم .

لقد قرأنا في الصحف منذ حين أن رمزا إسلاميا ورئيسا لإحدى الجماعات الإسلامية أدلى بحديث صحفي ذكر فيه أن المواطنين المسيحيين يعفون من الخدمة العسكرية لقاء دفع الجزية ، فإن كان ذلك حدث فعلا فهو رأي خطأ وأمر مؤسف ، وانبرت لتفنيد هذا الرأي أقلام إسلامية أخبر بالشريعة وأبصر بأحكامها ، كذلك سمعنا أن الرمز المذكور قد كذب ما نسب إليه فلم يعد الأمر سجالا بين رأيين ، خاصة وأن مؤسس تلك الجماعة رحمه الله قد أعلن في الأربعينات من هذا القرن أن مسألة الجزية هذه غير ذات موضوع ، ما دام كل المواطنين ينخرطون في الخدمة العسكرية ويدافعون عن الوطن سواء بسواء ليس منهم فريق يؤدي وحده ضريبة الدم فعلى الثاني أن يؤدي ضريبة المال .

لقد كان الإسلام والمسلمون على طول الخط جانحين إلى السلام وإلى المودة . ولم يحاربوا أحدا بسبب دينه أو لقسره على تغيير دينه .

ولم يطالب الإسلام أتباعه أن يصدروا الأحكام على مخالفيهم في العقيدة كما عرفت الكاثوليكية قرارات الحرمان من دخول الجنة أو منح صكوك الغفران لدخولها . .

تلك قضية لها قاضيها الذي لا يشرك في حكمه أحدا ، وفي القرآن أيتان لعلهما تُريان المسلم حَدَّه ليقف عنده . في سورة المائدة (١١٦ ـ ١١٨) يدور الحوار التالي بين رب العزة وبين عيسى عليه السلام : «وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال سبحانك . ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق . إن كنت قلته فقد علمته . تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم . وكنت عليهم

شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» . التهمة الشرك بالله ، والشرك ذنب لا يغتفر ، ويبين عيسى براءته وينفي أن يكون له دور في الجريمة ، لكنه لا يصدر حكما ويدع الحكم لصاحب الحكم يقضي فيه بما يشاء ، حسبه أن يقول : «إن تعذبهم فإنهم عبادك : وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» . . وفي سورة إبراهيم (٣٥ ـ ٣٦) يقول الله تعالى على لسان إبراهيم : «وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم» . . سبحان الله ! ! «ومن عصاني فإنك غفور رحيم» ! يا لحسن الأدب مع الله . وهذا ما هدى الله إليه أنبياءه فبهداهم اقتده . هذا هو حسن الذوق الذي نتوخاه في اعتبارنا لربنا جل وعلا ، ولن يكون أحد أغير على دين الله من الله وأنبيائه .

والآن ننتقل إلى التاريخ . فنطالع أن حروبا نشبت بين المسلمين والآخرين . ولكن ماكان خوض المسلمين تلك الحروب ليحاربوا دينا أويحاربوا الناس بسبب دينهم . حارب المسلمون لرد العدوان ودفع الظلم والذود عن الحق . وبين المسلمين والنصارى كانت الحروب الصليبية في القديم ومكافحة الاستعمار في الحديث . والمسيحية بريئة من كليهما .

وللأسف دخلت الحروب الصليبية في النفسية الأسطورية النصرانية كجهاد مجيد وحرب مقدسة . إن مصطلح «الحرب المقدسة» الذي يحاولون إلقاءه على المسلمين اليوم ليس مصطلحا إسلاميا ولكنها تسمية مسيحية ابتكرت في أوروبا للدلالة على الحروب الصليبية . ولا زال شبح الحروب الصليبية يخيم على العقلية الغربية لدرجة كبيرة إلى اليوم . . وإن كانت هناك بشائر بإمكانية تغيير ذلك .

في عام ١٠٩٥م أصدر البابا أوربان الثاني (وشهرته أوربان المبارك) أول من دعا إلى الحرب الصليبية تصريحه عن المسلين فكان من ضمن ما وصفهم به أنهم «قوم بلا إله ، كفرة ، عباد أصنام ، أعداء المسيح ، كلاب ، حطب أعد لنار جهنم خالداً فيها ، . . .» .

وفي فورة دينية عارمة بدأت الحرب الصليبية ، وقد أشرنا إلى وصف لأحد قوادها لمذبحة فتح القدس . ولم يلبث العالم المسيحي نفسه أن أدرك بعض منه الهوة العميقة بين الحروب الصليبية وبين المسيحية . من أمثلة ذلك ما وقع في الحملة الصليبية الرابعة حين تجمعت القوات الصليبية في مدينة القسطنطينية المسيحية على سبيل الترانزيت . . لكنهم نهبوا المدينة واستحلوا حرماتها لدرجة أن البابا الأرثوذكسي نفسه وجه إليهم رسالة يقول فيها : «لقد أشهرتم سيوفكم في وجه المسيحيين لا في وجه الكفار . إنكم لم تغزوا القدس بل القسطنطينية . لم يكن جزاء السماء هو ما قصدتم بل مغانم الأرض . لم ترعوا حرمة لأحد ، واغتصبتم زوجات وأرامل وحتى راهبات . لقد هتكتم أقداس الكنيسة وسرقتم ما فيها من نفائس . ليس بمستغرب إذن أن ترى فيكم الكنيسة الأرثوذكسية صنائع الشيطان . (كتاب : المسيحيون . تأليف بامبر جاكسون . نشر : كيب ، لندن ، ١٩٧٧ ، ص١١٩) .

ويوم استعاد صلاح الدين القدس أعطى الأمان للمغلوبين وللمنسحبين وللباقين ، ولم يرد الصاع صاعاً ودفع بالتي هي أحسن ، وكل إناء ينضح بما فيه .

وانتهت الحروب الصليبية . . ثم جاء عهد الاستعمار بنفس النية ولنفس الغاية : الاستغلال الاقتصادي وامتصاص الدماء وخطف اللقمة من أفواه الفقراء وإطباق جفون الشعوب لكيلا ترى وتنويم عقولها لكيلا تفهم .

لكن تململ الميت في رمسه ، ودق النبض بعد أن غاب ، ودب دبيب صحوة نحسبها إلى بقاء وازدياد ورشاد إن شاء الله ، وإن كانت جهود الساسة سادرة في محاولاتها أن تعيد عقارب الساعة إلى الوراء .

وبالمقابل فإن رياح التغيير هبت في اتجاهات أخرى . والأيام قد تدور ببطء ولكنها لا محالة تدور . وكان من الإيجابيات الحميدة أن تفحص الكنيسة الكاثوليكية موقفها التقليدي من الإسلام . . جد جديد منذ أيام أوربان الثاني في ١٠٩٥ ، لنقرأ موقف الكنيسة الكاثوليكية أصدره المجمع المسكوني الثاني على عهد البابا بولس السادس في عام ١٩٦٥ في وثيقته «نوسترا ايتاتي» عن موقف الكنيسة من غير المسيحيين ، جاء فيه

عن المسلمين : «إن الكنيسة تنظر كذلك بعين التقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد الحي القيوم الرحيم القادر على كل شيء . خالق السماء والأرض الذي خاطب البشر . والذين يدينون بالطاعة حتى لأوامر الله الخفية ، كما دان إبراهيم الذي ينتسب إليه إيمان المسلمين . وهم يجلون يسوع كنبي وإن لم يعترفوا به كإله ، ويبجلون أمه مريم العذراء في تقوى وضراعة . وهم فوق هذا ينتظرون يوم الدين عندما يبعث الله الناس ليحاسبهم ، ويعظمون الحياة الأخلاقية . ويؤدون العبادة لله خاصة بالصلاة والزكاة والصوم» .

نقلة كبيرة . . تدلني فيما تدلني على أن واحداً من الحبرين الأعظمين لم يكن معصوما من الخطأ كما يعتقد الكاثوليك في البابا ، فبين رأييهما في المسلمين بعد المشرق عن المغرب .

وهي نقلة طيبة بلا شك . وكانت بداية لحوار بين الطرفين في لقاءات ومؤتمرات متعددة . وللمرة الأولى منذ ألف سنة يخاطب كاردينال مسيحي «هو ف . كنج» علماء المسلمين في جامعة الأزهر أعرق الجامعات الإسلامية . وفي ١٩٧٤ زار سكرتير أمانة شئون غير المسلمين بالفاتيكان الكاردينال بينيدولي السعودية (وقابل الملك فهد) . . وعقدت مؤتمرات وندوات للحوار متعددة سواء على المستوى الرفيع أو دون ذلك . . ويبدو أن الشبكة تتسع ، وفي أمريكا حتى سنوات قليلة كنا إذا ذهبنا للمسيحيين نحدثهم عن الإسلام أو اشتركنا معهم في ندوة كان من المسلمين من ينكر ذلك كل الإنكار ، واليوم أصبح هذا الحوار أمراً عادياً ومنتشراً .

وقد كان واضحا أن العالم الإسلامي أقل حماسا لهذه البادرة من الكنيسة . فهناك سوء ظن بأنها مناورة من الكنيسة لاختراق جماهير المسلمين وإثارة البلبلة في نفوسهم . وهناك حساسيات منذ ارتبط الاستعمار في أذهاننا بالتبشير ، ومنها ازدياد النشاط التبشيري المسيحي بين المسلمين خاصة في الظروف الضاغطة كالمجاعات أو الحروب أو التهجير حيث الغذاء والكساء أو الحرمان منهما وسائل استراتيجية فعالة مسنودة بموارد مالية ضخمة ، ومنها المصارحة في أدبيات حركة التبشير بأن الإسلام

مستهدف وأنه «جاء دور المسلمين» . . وكلها عناصر تقف عقبة في سبيل التقارب وتلقى عليه ظلال الشك حتى لو كانت النية فيه خالصة كما هو الحال عند فريق من الجانب المسيحي على الأقل ، وقد تمنيت لو أن الكنيسة صرفت جهدها ومالها في التبشير بالمسيحية في أوروبا المسيحية ، حيث أرخت قبضتها وانحسرت ظلالها عن عامة المسيحيين فكان لذلك أثره في الأخلاق والسياسة والاقتصاد . . ولا يشرف الكنيسة أن يظهر أن مقدرتها على نشر الميسحية هي فقط عندما يكون الجمهور عاريا أو جائعا أو جاهلا . .

ثم من الصعب بعد ذلك نسيان الحروب الصليبية التي لم تتوقف منذ حدثت وحتى الآن وإن اتخذت أشكالا جديدة ، وإن كان من بين الإشارات الطيبة كذلك أن البابا الحالي يوحنا الثاني علق عام ١٩٩٥ عن الألف سنة الثانية منذ المسيح والتي آذنت بانتهاء ، فقال إن أبناء الكنيسة لديهم ما يستدعي التوبة في تلك الألف المنصرمة ، وحدد محاكم التفتيش والحروب الصليبية والهولوكوست الألماني في عهد هتلر . وإذن فقد أصبحت الحروب الصليبية إثما لا تعبدا ، وتأخذ الجماهير وقتا أطول في استيعاب ذلك لكنه ممكن في ظروف ثورة الاتصالات المعاصرة .

ومهما قيل في هذا الحوار الذي يهدف إلى التقارب فأنا من مؤيديه ومشجعيه .

أولا : لأن هناك احتمالاً (أقول احتمالا) بأن يكون خطوة على الطريق الطويل لنشر السلام في نهاية الأمر . وثانيا : لأن الإسلام ما زال مجهولا أو شائه الصورة لدى قطاعات كبيرة وهذه إحدى فرص التعريف به على حقيقته وهو علينا واجب شرعي . وثالثا : لأنني أومن أن إنقاذ العالم من الظلم والقهر والهلاك وكذلك من الانتحار عن طريق التفسخ الأخلاقي وانهيار القيم لن يكون إلا بتجميع قوى المؤمنين بالله في مواجهة معسكر الشيطان . . مهما كان هؤلاء المؤمنون بالله مختلفين فيما عدا ذلك .

وأتمنى أن يكون دعاة التقارب هؤلاء خالصي النية ، مرتفعين فوق البهلوانية السياسية أو المقاصد القبلية أو ستر الأنانية الداخلية برداء السلام والمحبة نفاقاً وتزييفاً . إن سياسات الدول في كثير من الأحيان قائمة على الظلم ، والمؤمنون بالله يجب أن يقفوا ضد الظالم ولو كان ذا قربى .

في العالم مسلمون ومسيحيون ويهود وغيرهم ، وعالم أول وعالم ثالث ، ومعتدون وضحايا ، وحكومات وتكتلات ، وجنس أبيض ، وجنس غير أبيض ، وشمال وجنوب ، وملحدون ومؤمنون ، ومتقدمون ومتخلفون ، وجياع ومتخمون ، ومحافظون وليبراليون .

لكن من وراء هذه القشرة تكمن القسمة الحقيقية؟

إن قسمة العالم الحقيقية هي إلى حق وباطل ، وعلى أهل الحق أن يحتشدوا من أجل الحق ، والحق وحده .

وابدأ بنفسك!!

ليس من المعقول ونحن نحث على هذا التقارب والتعاون وتوحيد الجهود بين الأديان الإبراهيمية الثلاثة أن نغض عن واجب الوحدة بين المؤمنين بديننا الإسلامي الواحد .

والواقع أن الفرقة والانقسام والتنابذ قد غزت نفوسنا لدرجة لا يجوز السكوت عليها . وهي فرقة نراها على جميع المستويات ، بين الأفراد وبين الجماعات ، وبين الأمم وبين الدول ، وبين العاملين للإسلام ، وبين إخوة السلاح ورفقة الجهاد .

ولا أستطيع أن أقول إننا ضحايا هذا التمزق فنحن الذين صنعناه ، ويبدو أننا أصبحنا في غاية الولع بالاختلاف فلا نستطيع عنه صبرا . وأصبحنا نتلمسه ونفتش عنه ونهش للعثور عليه ، وأعرف ناسا يحضرون المحاضرات لا للاستفادة ولا للإفادة ، ويتربصون بالمحاضر ، فإذا وردت في حديثه شبهة خطأ شعروا بالرضى ، ثم راحوا بعد ذلك يهرون فروته ، فلا هم نصحوه ، ولا هم تأولوا له سبعين مرة ، كما أوصى النبي عليه الصلاة والسلام .

ونتيجة لذلك لم نعد كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا كما وصف الرسول المؤمنين .

ولم تعد لنا قوة الحبل المجدول أو منعة العروة الوثقى ، لا انفصام لها . أصبحنا مثل الخرزات المفروطة ، وقد فقدت الخيط الذي ينتظمها فتصبح قلادة لها قيمتها أو مسبحة يذكر علهيا اسم الله .

ولهذا هُنّا واستهان بنا العالم وسهل عليه أن ينوشنا بالقطاعي لأنه يعجز أن ينوشنا بالجملة . . ومهدنا له ذلك واستجبنا لمكره فيه مع الأسف الشديد . .

إنني أشعر بالأسى كلما قيل في العالم بليون مسلم . .

فليس هذا بمنظر عالم فيه بليون مسلم . .

ولوكنا بليون ذبابة تطن معا لمنع طنينها العالم من النوم .

ولو كنا بليون بعوضة لما استطاع العالم أن يكف عن الهرش !

هذا كلام عام . لكنني في الواقع أكتب هذه السطور لأعلق على هذا الصدع الخطير الذي أصاب الإسلام بانقسام أتباعه إلى من يعرف بالشيعة ومن يعرف بأهل السنة .

لقد عرف المسلمون الخلاف المذهبي . . ورغم أن أصحاب المذاهب أنفسهم كانوا على الغاية من الاحترام المتبادل ورعاية أدب الاختلاف ، إلا أن الأتباع والأنصار في جهلهم بالإسلام وجهلهم برسوله وجهلهم بنفسيات أئمتهم جعلوا من الاختلاف عداوة وأوغلوا في ذلك لأشواط بعيدة وسخيفة .

روى لنا التاريخ أنه أثناء الصلاة رفع رجل سبابته وهو يقرأ التشهد فكسرها له جاره لأنه يرى فيها بدعة . وقرأنا عن الفقيه الشافعي الذي سئل عن الطعام وقعت فيه قطرة من النبيذ فأفتى بأنه يرمى لكلب أو حنفي ! !

وعن حنفي استفتى في زواج حنفي من شافعية ، فقال يجوز لكن ليس على أنها مؤمنة ولكن بقياسها على الكتابية (اليهودية أو النصرانية) التي تجوز للمسلم بالاتفاق . . ومن أفدح ما قرأت قول أحد مشاهير علماء الأحناف هو الشيخ أبو الحسن عبدالله الكرخي (توفي في ٣٤٠هـ) : كل آية أو حديث تخالف ما قرره علماء مذهبنا فهي إما منسوخة أو مؤولة ! وحدث في الماضي القريب في إحدى قرى مصر أن صلى الإمام بالناس في أحد المساجد ولم يجهر بقراءة البسملة . وانتهت الصلاة فصاح صائح من بين الصفوف أن تلك صلاة باطلة وأقام ثم أم صلاة أخرى وتبعه عدد من

الناس . وبعد الصلاة تجادل الإمامان فتجادل الفريقان فنشبت معركة بين المسلمين في بيت الله الكريم .

خبا ذلك أو كاد . لكن بقي جرح السنّة والشيعة فاغرا لا يندمل .

اصطلحت ألمانيا وفرنسا ، واصطلحت روسيا مع أمريكا ، واصطلح اليهود مع النصارى ، أفما آن للسنة والشيعة أن يضمهما رباط الإسلام وكلاهما يؤمن أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله؟

عشت عمري لا أشعر بهذا الخلاف حتى عشت في منطقة الخليج فتبين لي أنها مشكلة حقيقية ويبدو أنها لم تأخذ نصيبها العادل من العلاج طيلة هذا الزمن الطويل . . بل وجدت لدى بعض الناس حرصا وتمسكا بعدم العلاج .

ولمست بوضوح أن قادة من الجانبين لا يجرؤون على التفريط في هذه العداوة ، خوفا أن تهيج عليهم الجماهير التي تسير وراءهم وتستبقيهم في مكان الصدارة والقيادة .

وقلت أتخشونهم؟ فالله أحق أن تخشوه .

سألت نفسي سؤالين أدعو كل واحد من قرائي أن يوجههما لنفسه :

الأول : هل من صالح الإسلام أن يستمر هذا الصدع؟ كانت الإجابة : لا .

والثاني : هل من سبيل للشفاء أو أن الحالة ميئوس منها؟ كانت الإجابة : نعم .

عندما كنت أعيش في الكويت قرأت مرة في صحيفة يومية في ركن الفتاوى سؤالا من قارئ يسأل هل يجوز للمرأة السنية أن تتزوج من شيعي؟ ورأى الفقيه الجليل الذي أجاب السؤال أنه لا يجوز . معللا ذلك بأنه يهين شخصيات هي تحترمها فمن المحال أن تستقيم الحياة الزوجية بينهما . فإن صح ذلك فلا أدري كيف يجيز الفقه الزواج بين مسلم وكتابية ورأيها في الإسلام وفي محمد صلى الله عليه وسلم معروف .

وتلقيت مرة مكالمة هاتفية من رجل قال إنني لا أعرفه ولا يريد أن يعرفني بنفسه ،

لكنه يريد رأيي في مشكلة هي أن ابنته تقدم لخطبتها شاب شيعي والبنت تريده لكن أعمامها وأخوالها لا يوافقون . سألته أسئلة : هل يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله؟ هل يصلي ويصوم ويقيم أركان الإسلام؟ . . هل يكسب رزقه من وجه شريف؟ . . هل هو رضي الطبع حسن الأخلاق؟ . . وتقول إن البنت تريده؟ . . كانت الإجابة على كل تلك الأسئلة : نعم . قلت على حد علمي ليست هناك مشكلة ولو كانت بنتي لما رفضت هذا الزواج . وتزوجا فعلا لأنه اتصل بي بعد عام يوصيني بها إذ كانت تضع في مستشفى الولادة ، ويطمئنني على أنها سعيدة في حياتها الزوجية ، وأن أختها تقدم لها شاب شيعي كذلك ، وأنه لن يأخذ العصبية المذهبية في الاعتبار .

المهم أنني التقيت زوج البنت الأولى وسألته هل تؤمن أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين؟ قال نعم . قلت هل تعتقد أن جبريل قصد بالرسالة إلى علي بن أبي طالب فضلّ الطريق وحملها إلى محمد؟ قال معاذ الله أن أومن بهذا أو أصدقه . قلت فمن باعتقادك كان أولى بالخلافة علي أو معاوية؟ قال أعتقد أن عليا كان أولى بالخلافة ، قلت لعلي معك في هذا الرأي .

سألته أكان علي أولى بالخلافة من أبي بكر؟ قال هذا معتقد الشيعة وهو غير معتقد السنّة ولكن ألا ترى يا دكتور أن هذا الموضوع برمته أصبح في ذمة الماضي وليست له متعلقات عملية في حياتنا المعاصرة فلماذا لا نكله إلى الله تماما ونفرغ أنفسنا لأمور الحاضر والمستقبل وهي أمور بالغة الخطر والخطورة على مسيرة الإسلام والمسلمين؟

قلت فهل تسب أبا بكر وعمر؟ وهل عندكم مصحف غير الذي في أيدينا؟ وهل من المبرات عندكم تلويث مساجد أهل السنة أو الكعبة المشرفة؟ قال لا أسب أبا بكر وعمر ولا أذكر أيهما إلا قلت رضي الله عنه والمصحف الذي عندي هو المصحف الذي في يدك ولعلي اشتريته من نفس المكتبة ولا أحاول تلويث المسجد الحرام أو أي مسجد .

قلت والله إنه لشاب عاقل . ولعله شذوذ على إجماع الشيعة .

حتى تسنى لي أن أجتمع بكثير من علماء الشيعة في الشرق والغرب وأن أناقشهم وأن أستمع لمحاضراتهم وأن أشهدهم على شاشة التلفزيون عشرات المرات .

لا ينكرون أن فولكلورا كثيرا داخل جماهيرهم على مر القرون ، لكن يؤكدون أن تلك العظائم رواسب لم تزل باقية عند الجهلة من الناس وأنها إن شاء الله إلى زوال . وهذا في نظري على أقل تقدير من البوادر المشجعة التي تغري بالمتابعة وتصلح أن يبنى عليها ولو لبنة على لبنة .

لا أنادي أن يتخلى الشيعة عن مذاهبهم ولا أهل السنة عن مذاهبهم .

لكن أدعو ألا يكون اختلاف المذاهب اختلاف قلوب . وأرى أن أرضية الإسلام رحبة فسيحة تسع أن نعيش عليها جميعا في أخوّة وتعاون ولكل بعد ذلك أن يحتفظ بخصوصيته والمرد إلى الله .

وأدعو أن يرسم علماء السنة والشيعة وحكوماتهم الاستراتيجية التي تستل الضغائن وتحل محلها صلاح ذات البين . الوعظ والإعلام والتعليم والعمل المشترك جهود كفيلة بصياغة الناس صياغة جديدة أرضى لله ولرسوله وللمؤمنين .

لوجه الله ومن أجل الإسلام أدعو إلى التخلي عن العصبية والقبلية والكبرياء الشخصية .

بالله لا تقولوا لا تحاول علاج المريض يا دكتور فإنه لن يشفى وقد حكمنا عليه ألا يشفى !

إن من العجز والخطل أن نعيش في خلافاتنا وأن نحبس المستقبل في قفص الماضي .

إن من مخاطر الحياة في العالم الإسلامي أن الإنسان يتخيل أنه كل العالم . .

ويظل بمعزل عما يدور حولنا ويخطط لنا ويراد بنا من قوى هي أكثر منا مالا وسلاحا ودهاء وعلما وتقانة وإعلاماً وإعلاناً ، وليس لنا من فرصة في الوقوف أمامها إلا الإيمان . . والإيمان يتعارض مع الفرقة .

إن التدبير جاد ومحكم لاستئصال شأفة الإسلام من العالم . . والكثيرون منا لا

يدرون بذلك ، والذين يدرون به لا يأبهون له ويحسبون أنه لن يكون . . حتى يكون !

وعندما تنعقد النية على استئصال شأفة الإسلام من العالم فليس هناك فرق بين سنّة وشيعة ، لكن هما معا ، والخلاف بينهما معوان على ذلك .

تمنيت لو قرأ كل المسلمين كتاب «الإنجيل والإسلام» وفيه أعمال المؤتمر الذي عقد في مدينة «دنفر» بولاية «كولورادو» الأمريكية عام ١٩٧٨ . في ستمئة وثمان وثلاثين صفحة يفصل الكتاب خطة تنصير العالم الإسلامي (الناشر : مارك ـ كاليفورنيا ـ ١٩٧٩) . وقد نشرت ترجمة عربية للكتاب بعنوان : «التنصير ـ خطة لغزو العالم الإسلامي» .

ولكن من يقرأ؟ ومن يسمع؟

دراسات عميقة وخطط علمية ونوايا جادة وإجراءات هادفة .

وهو مثال من طوفان دافق من الكتابات والدراسات نتابعه فتأخذنا الصدمة من أن المسلمين مخدرون فحقائق العالم في واد وهم في واد آخر . . منكفئون على خلافاتهم وأضغانهم والوحش المفترس يتلمظ ليأكلهم فلا يغادر منهم أحدا .

ولعل من ضمن هذه الخطة تلك الحملة الضارية الناشبة في أمريكا على أوسع نطاق سياسي وإعلامي بعنوان «اضطهاد النصارى في بلاد العالم» . ونعتقد أنها لم تنشب بالصدفة فمن الواضح أن وراءها تدبيراً ومن المرتقب أن لها ما وراءها .

وما أكثر ما نقرأ ـ ولكننا لا ننفذ ـ قول الله تعالى :

«واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا . واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون» (آل عمران : ١٠٣) .

ترى أما زلنا مصرين على الوثوب إلى هذه الحفرة من النار؟ !

فلسطين

فلسطين

خاطران يطرقان فكري كلما عرض للقضية الفلسطينية . فلأبدأ بهما .

في سنة ١٩٤٧ صدر قرار هيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين إلى دولة لليهود ودولة لعرب فلسطين ، ورسم خط الحدود بينهما . وبعد انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين مباشرة (١٥ مايو ١٩٤٨) أعلن اليهود عن قيام دولة إسرائيل ، وفي الحال اعترفت بها الولايات المتحدة الأمريكية ، وتلاها خلال ساعات الاتحاد السوفييتي . وكان المفروض أن تقوم في نفس اللحظة الدولة الفلسطينية ، التي تبدأ العمل ـ بمساعدة الدول العربية ـ على دحض قرار التقسيم واسترداد كامل ترابها الوطني . وما كان الأمريتطلب استعدادا خاصا فقد كانت هناك بالفعل حكومة في المنفى اسمها حكومة عموم فلسطين يرأسها أحمد حلمي باشا . ولكن لم تقم دولة فلسطينية . ولم يكن الذي منع قيامها الأمريكان ولا الروس ولا اليهود ولاالإنجليزولا الفرنسيون .

الذي منع قيامها الدول العربية ،التي أعلنت عن دخول جيوشها بدءا من ١٥ مايو لأجل «تأديب العصابات اليهودية في فلسطين» كمانص البلاغ الرسمي .

وبهيمنة مصرعلى قطاع غزة والأردن على الضفة الغربية لم تسمح أي منهما بوجود «دولة داخل الدولة» ، ولم يكن وجود جيشيهما بطبيعة الحال يتفق مع بقاء قوات المناضلين الفلسطينيين التي كانت تتولى القتال من قبل .

أما الخاطر الثاني فأسطر قرأتها (بعيني) في كتاب للرئيس الأمريكي السابق «جيمي كارتر» اسمه «التمسك بالإيمان» (Keeping Faith) نشره بعد أن انتهت رئاسته بالهزيمة في الانتخابات . و«كارتر» هو الذي تم في عهده صلح «كامب داڤيد» في المفاوضات بين أنور السادات و«مناحيم بيجن» . يقول الرئيس «كارتر» إنه مسيحي متدين ، فكان أول ما شغل باله بعد الفوز في انتخابات الرياسة أمنيته أن يستطيع إحلال السلام في وطن السيد المسيح عليه السلام . وقرر أن يضع هذا الموضوع على

رأس أولوياته . وبدأ بأن أرسل مبعوثيه يتقصون الوضع والرأي في كل من البلاد العربية وإسرائيل . . ويكتب الرئيس «كارتر» أنه على الجانب العربي كان هناك إجماع على «نعم للاتحاد الفدرالي مع الأردن و«لا» للدولة الفلسطينية المستقلة» .

والمفروض أنه عندما يكتب رئيس أمريكي عنا أن تقرأ الجهات الرسمية ماكتب ، والمفروض أنه إن كذب ـ خاصة في هذا الأمر الخطير ـ فإن الجهات الرسمية تكذّب . . ولكن لم يصدر تكذيب من أية دولة عربية !

لكن أود بعد ذلك أن أضع هذين الخاطرين بين قوسين ، وألقي بعض الضوء على المسألة الفلسطينية خاصة ليعلم الشباب ، بعد أن أخبرني صاحب مطعم في «لوس انجيلوس» أن شابين فلسطينيين كانا يتعشيان في مطعمه وعلى المائدة المجاورة جلس زبون يهودي ، وسرعان ما فتح النقاش عن فلسطين فلاحظ صاحب المطعن أن الشابين لم يكونا يملكان المعلومات الكافية .

إن الجذور الأولى لمسألة فلسطين نبتت في أوروبا . ومنذ قرون ، وكانت تجميعا غريبا لآراء عدوين لم تهدأ العداوة بينهما قط .

على امتداد تاريخ أوروبا الميسحية كان اليهود هدفا للاضطهاد والمذابح والكراهية التي لاتعرف الهوادة . من الناحية الدينية كان المسيحيون يعتقدون أن اليهود قتلوا عيسى وعيسى في اعتقاد المسيحيين إله . وأنه لما تردد الحاكم الروماني« بيلاطس» في النطق بحكم الإعدام عليه (وكان القانون الروماني يحتفظ لليهود بالبت في شؤونهم الدينية) قالوا دمه علينا وعلى أولادنا إلى آخر الزمان . ومن الناحية المدنية كان المسيحيون يعتقدون أن اليهود قوم أنانيون يستثمرون مهاراتهم في شؤون المال في بناء مركز قوة لهم يؤثرون به على النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية حتى على حساب مصلحة الوطن الذي يعيشون فيه . حتى عندما كانت الحملات الصليبية تستهدف المسلمين في المشرق كانت كل واحدة منها تبدأ بمذبحة لليهود في أوروبا . وعندما أفضت الحرب في أسبانيا إلى هزيمة المسلمين على يد «فرديناند وإيزابللا» ، لم يقتصر الانتقام على المسلمين بل شمل اليهود كذلك ، فكانت حصتهما الخيار بين

التنصير أو الرحيل أو الموت . وفعلا هاجر أكثر اليهود إلى البلاد الإسلامية في الشمال الإفريقي أوعاصمة الخلافة الإسلامية في الآستانة ، حيث عاشوا في أمان ورفاه ، وكان السلطان يتهكم على «فرديناند وايزابللا» ويقول خربوا مملكتهم وعمروا مملكتي .

والجيوب التي بقيت في أوروبا بقيت في شقائها وعذابها . . حتى حاول «هتلر» في ألمانيا حل المشكلة اليهودية حلا جذريا بالتصفية الجسدية فيما عرف بالهولوكوست . . وكان شائعا إلى قريب في بريطانيا أن تقرأ على المحلات لافتات «ممنوع دخول الكلاب واليهود» . . وأصبح التخلص من اليهود أملاً قومياً في ضمير الجماهير في أوروبا .

سار هذا بطبيعة الحال مع سخط اليهود على هذا الظلم ، وانبثقت في أفكار بعض مفكريهم رؤية جديدة : أن يكون لليهود وطنهم الحر الذي لا يظلمهم فيه أحد .

واتفق الظالم والمظلوم إذن على هدف واحد .

وفي مؤتمر «بازل »في سويسرا عام ١٨٩٥ كشف «تيودورهرتزل» الستار عن مشروع إقامة دولة يهودية مستقلة . مستبدلا بالصهيونية الروحية التي كانت تتغشى الضمير اليهودي العام إلى ذلك الحين ، صهيونية سياسية تهدف إلى إقامة دولة في مكان لا يُشكل فيه أمر السكان المحليين عقبة تذكر . ولم تكن فلسطين هي المرشحة لهذا المشروع بادئ الأمر . لقد حاول هرتزل الحصول على مكان في موزمبيق ثم في الكنغو البلجيكي . كذلك كان زملاؤه في إنشاء الحركة الصهيونية السياسية ، فقد كان «ماكس نوردو» يلقب بالإفريقي ، و«حاييم وازيمان» بالأوغندي ، كما رشحت الأرجنتين عام ١٨٩٧ وقبرص عام ١٩٠١ ، وسيناء في ١٩٠٢ ثم أوغندا مرة أخرى في ١٩٠٣ بناء على اقتراح الحكومة البريطانية . وأصيب هرتزل بخيبة أمل كبيرة لأن اليهود في العالم لم ترق لهم فكرة دولة يهودية سياسية ، سواء لأسباب أديولوجية أو لأنهم كانوا عديمي الرغبة في النزوح عن البلاد التي استقروا فيها . بل إن مؤتمر الحاخامات الذي عقد في مدينة فيلادلفيا في أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر أصدر بيانا يقول إن الرسالة الروحية التي يحملها اليهود تتنافى مع إقامة وحدة سياسية

يهـودية منفصـلة . وإزاء هذا فكر «هرتزل» في طريقـة يواجـه بهـا هذا الـوضع ، وهداه تفكيره إلى أن يحـول الموضـوع إلى قضيـة دينية يلهب بهـا عواطف جمـاهير اليهـود . . ورأى أن فلسطين هي المكان الـوحـيـد الذي يناسـب هذه الدعـوة الجـديدة ، ولليـهـود بفلسطين عـلائق تاريخية ولهم فيهـا مقدسـات دينية ، وارتفعت راية الدين على سارية المشروع والتهبت العواطف ، وانتصر رأي «هرتزل» وإن يكن بعـد وفاته ، فقد احتضن المؤتمر اليهودي العالمي فكرة الوطن اليهودي في فلسطين عام ١٩٠٥ ، بعد موته بسنة .

ومن أجل تيـسـير بيع فكرتهم اختـرع الصـهـيـونيـون مطلبين لهم على فلسطين كـلاهما غـسلوا به أمـخاخ الناس في الغـرب وكـلاهما في الحـقيـقـة لا يثبت أمام النظرة الموضوعية العاقلة .

الحق الأول هو الحق التـاريخي . والواقـع أن اليـهـود فـعـلا أثناء تاريخهـم الطويل عاشوا في تلك المنطقة فترتين لا يجاوزمجموعها بضع مئات من السنين ، ومن ثم فهم يعتبرونها ملكا لهم . ولكن التاريخ كـذلك يسجل أنهم عندما ذهبوا إلى تلك البلاد لـم يجـدوها فـارغـة ، وعندمـا رحـلـوا عنـهـا لـم يتركوهـا فارغـة . . لقد سكن المنطقة أهلها «الفلسطينيون المذكورون في التوراة» قبل اليهود ومع اليهود وبعد اليهود . . وما زالوا فـيـهـا حتى الآن . . والحق التـاريخي إذن لا يقـوم على أسـاس والأجدر أن يسمى الزيف التاريخي .

أما الادعـاء الثاني فـهو الحق الديـني . . المبني على عهـد الله لإبراهيم عليه السـلام فيما تقول التوراة التي بين أيديهم : «لك ولبذرتك (ذريتك) أعطي هذه الأرض من نهر النيل إلى نهر الفـرات العظيـم» . ولعلنا نتـمـشى مـعـهـم في ذلك ولكـن من هم ذرية إبراهيم؟ من وجهة نظرهم هم نسل إسرائيل (يعقوب) . ونسألهم ما الحكم لو أن أحدا من ذرية إسرائيل صدق بالمسيح عيسى بن مريم وتحول إلى النصرانية؟

الرأي عندهم أنه يعـد مطرودا ليس من اليـهـودية فقط ولكن أيضـا من اعتبـاره من ذرية إسـرائيل . ثم تقـول لهـم (كمـا قلت مئات المرات) ألا تـعلمـون أن إبراهيم كـان له كـذلك ابن آخـر من قـبل اسـحق هو ابنه اسـمـاعـيل؟ أليس هو أيضـا وذريتـه من ذرية

إبراهيم؟ ويجادل المكارون فيقولون لا ! إن اسماعيل لا يعتبر ابنا لأن أمه هاجر كانت جارية ! ! ونفتح لهم التوراة على قصة إبراهيم في سفر التكوين فإذا به يطلق على اسماعيل لقب «ابنه» المرة بعد المرة بعد المرة !

ثم نسألهم عن أبناء إسرائيل الاثنى عشر . لقد تزوج إسرائيل ابنتي خالته راحيل وليئة وجاريتيهما زلبا ويلحا . . وستة من أبناء إسرائيل ولدتهما الجاريتان فهل اعتبرتموهم إذن ليسوا أبناء إسرائيل أو انتقصتم من تلك البنوة؟ !

وينهار الادعاء الديني . . ولا يجد اليهود جوابا . . وينظر الحضور المسيحيون إلى بعضهم البعض في دهشة وابتسام . . وبعد الندوة يقولون فتحت أعيننا ولم نكن نعرف .

إن في وسع المسلمين في أمريكا والغرب أن يقوموا بدور كبير في تثقيف الناس . .

وليس من الصعب على الإطلاق إطلاع المسيحيين على أن المسلمين أقرب أليهم من اليهود فنحن على الأقل نعترف بعيسى نبيا كريما ورسولا أمينا ولدته عذراء شريفة عفيفة . ومن المسلمين من يفعل ذلك . وبنجاح . لكن منهم نماذج أخرى تمنيت لو احتفظ بها الشرق الأوسط فلم يصدرها إلى الغرب . وليتصور القارئ مدى الغصة التي أحسست بها حين جاءني نفر من شباب المسلمين يتجادلون مجادلة حارة هل يجوز قبول الجزية من البلاد الملحدة مثل الشيوعيين؟ يرى بعضهم قبول الجزية من النصارى كالأمريكان والانجليز والفرنسيين لأنهم من أهل الكتاب ، أما الشيوعيون فكفرة لا تقبل منهم جزية أبدا . قلت يا أبنائي هل عميتم عن أننا نعيش في يوم يدفع فيه المسلمون الجزية للنصارى لكي يتولوا حمايتهم؟ وممن؟ : من بعضهم البعض مع الأسف الشديد (زفرة حارة ـ وما أكثر الزفرات ـ وجدت طريقها إلى هذه الصفحات على الرغم مني . وأستغفر الله : كان ينبغي أن أكظمها) .

وأعود إلى الصهاينة من جديد . لقد روجوا فرية أخرى ابتلعها الناس حتى الماضي القريب ، ابتكرها «زنجويل» سنة ١٩٠٥ ، وهي إعطاء «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» . . وظلت رائجة لدرجة أن «جولدا مائير» عام ١٩٦٩ سئلت في حديث

صحفي عن حقوق الفلسطينيين فأجابت : أي فلسطينيين؟ لا يوجد فلسطينيون . إنني لا أراهم» . وانتهت هذه الفرية بنشأة المقاومة الفلسطينية وخاصة الانتفاضة ، ورأى الناس شعبا يقاوم . . وقبلوا ـ على القياس ـ منطق : «أنا أقاوم . فأنا إذن موجود» .

وبطبيعة الحال كان سلاح المال عنصرا هاما في أيدي الصهاينة . وقد حاولوا إقناع السلطان/ عبدالحميد بقبول وطن لليهود في فلسطين بأن يسددوا ديون الدولة ويستثمروا له أمواله الخاصة ، لكن الرجل أبى أن يفرط في أرض الإسلام والمسلمين ، ويحس كثير من المحللين إلى أن ذلك كان ضمن أسباب عزله عن عرشه والقضاء على الخلافة الإسلامية .

وراح الصهيونيون يبنون لأنفسهم في الغرب مراكز قوة مؤثرة ، خاصة والغرب من زمن يدرك خطورة الامتداد الإسلامي في آسيا إلى إفريقيا (كانت سيناء حتى ثورة ١٩٥٢ محافظة منفصلة يحكمها محافظ إنجليزي ولا يمكن لمصري أن يدخلها إلا بتأشيرة وكأنها بلد أجنبي) نيما راح اليهود يقنعون الإنجليز بأنهم سيكونون حراس طريقهم إلى الهند التي كانت تسمى جوهرة التاج البريطاني . وبغسيل المخ تارة وبالمقدرة المالية تارة أخرى استطاعوا أن «يصهينوا» عدداً من كبار السياسيين في انجلترا .

ولما احتاج «دزرائيلي» رئيس الوزراء الانجليزي اليهودي فجأة إلى مال يشتري به حصة مصر من أسهم قناة السويس التي عرضها الخديوي للبيع لشدة حاجته إلى المال ، وكان عامل السرعة حيويا قبل أن تسمع فرنسا بالخبر ، أنقذ الموقف بيت «روتشلد» اليهودي فدفع المال في عطلة نهاية الأسبوع ، ودانت بريطانيا بجميل كبير لليهوديين «دزرائيلي وروتشلد» على هذه الصفقة التي كانت بحق ضربة معلم .

وقامت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) . . وبجانب المساعدات المالية استطاع الكيميائي اليهودي «حاييم وايزمان» (فيما بعد أول رئيس جمهورية لإسرائيل ووالد عزرا وايزمان الذي اصبح كذلك رئيسا لإسرائيل) أن يُصنّع مادة متفجرة تفوق قوتها ما كان معروفا في ذلك الوقت ، وأفضى باكتشافه إلى الحكومة البريطانية في

مقابل الوعد بمساعدة اليهود على إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين .

وخلال تلك الحرب كما هو معلوم تحرك العرب برئاسة الشريف حسين من الحجاز (والد الملك عبدالله جد الملك حسين ملك الأردن) فانضموا إلى بريطانيا وحلفائها ضد تركيا التي كانت في صف ألمانيا ، لقاء وعد من بريطانيا بإعطائه المملكة العربية المستقلة ليكون ملكا عليها . ودخلت في المفاوضات كذلك مسألة الوطن القومي اليهودي ، فوافق على إنشاء هذا الوطن إذا تكونت هذه المملكة العربية المستقلة (شاهدت تأشيرته بذلك وتوقيعه في فيلم وثائقي على إحدى شاشات التلفزيون بأوروبا) . لكن للأسف الشديد ، وفي قمة الآمال والوعود بالمملكة العربية ، كان وزيرا خارجية بريطانيا وفرنسا يقسمان بينهما العالم العربي فيما عرف بمعاهدة «سايكس - بيكو» . وانتهت الحرب بفوز الحلفاء ولحس الوعد المبذول وكانت مصر والسودان وفلسطين والعراق من حصة بريطانيا بينما سوريا ولبنان وتونس والجزائر من حصة فرنسا . ومن قبيل العزاء عينت بريطانيا الابن الأكبر للشريف حسين ، فيصل ، ملكا على العراق ، وابنه الأصغر عبدالله أميرا على إمارة شرق الأردن (وأصبح ملكا فيما بعد) .

وفي عام ١٩١٧ ، قبل نهاية الحرب ، أصدر وزير الخارجية البريطاني «بلفور» تصريحه المشهور بوعد بلفور ، ومؤداه «أن الحكومة البريطانية تنظر بالعطف إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ولكن مع عدم المساس بحقوق سكان البلاد الأصليين» .

ووضعت فلسطين بعد الحرب تحت الانتداب البريطاني . فعينت عليهامندوبا ساميا هو اليهودي الصهيوني «هربرت صمويل» ، الذي راح بإخلاص يعمل على إنضاج الطبخة .

وأنشئت الوكالة اليهودية والصندوق اليهودي ، لشراء الأرض العربية بأسعار بالغة الإغراء (للأسف الذين باعوا هم الأغنياء) ، ولبناء المستوطنات (المستعمرات) اليهودية ، وللعمل والإنفاق على هجرة متزايدة لليهود من الخارج إلى فلسطين .

وانزعج العرب الفلسطينيون لهذا التطور المتسارع المتزايد الذي يرونه تحت أعينهم ، فقرروا الثورة على الإنجليز ووقف هذا الطوفان اليهودي الدخيل . وكانت بطولات . . وأتوسم أن يكون قارئنا قد سمع بأسماء كالمجاهد/ عز الدين القسام ، أو الإضراب الشامل والثورة التي نشبت عام ١٩٣٦ بزعامة الحاج/ أمين الحسيني مفتي القدس .

وداخت بريطانيا فعلا ، وامتد الإضراب الشامل ستة أشهر . فما الحل؟؟

الدول العربية!!

الدول العربية هي التي تدخلت وضغطت على الفلسطينيين فأوقفوا الثورة . كانوا جميعا من صنائع الإنجليز . وكانت قوة ألمانيا العسكرية تتفاقم وتحركاتها الأوروبية بدأت بالفعل وظهر في الأفق جديا احتمال نشوب الحرب العالمية الثانية . وجاءت الدول العربية ترجو عدم إحراج الحليفة ، واعدة بالمساعدة في المستقبل .

وقامت الحرب العالمية الثانية في خريف ١٩٣٩ .

وتكون جزء من الجيش البريطاني على صورة جيش صغير اسمه الفيلق اليهودي (كان فيه موشى ديان وأبا إيبان على سبيل المثال لا الحصر) . وبلغ الذروة من التدريب والخبرة القتالية والتسليح الذي في اليد والتسليح المهرب إلى فلسطين .

وعلى الطرف الآخر كان القانون في فلسطين يقضي بأن الفلسطيني الذي توجد في حوزته رصاصة يعاقب بالسجن خمسة عشر عاما!!

وانتهت الحرب بهزيمة محور ألمانيا وإيطاليا واليابان ، وانتصر الحلفاء لما دخلت الولايات المتحدة الحرب إلى جانبهم بجيوشها وقاعدتها الصناعية الجبارة واتساع مواردها وقنابلها الذرية التي أرغمت اليابان على التسليم .

خرجت أوروبا محطمة مثخنة بالجراح في جسد الغالبين والمغلوبين . . كانت بريطانيا تلعق جراحها وكان واضحا لها أن أيامها في الهند معدودة مما خفض سعر فلسطين في نظرها . وتجددت الاضطرابات في فلسطين ثلاثية بين اليهود والفلسطينيين والانجليز . . كانت هذه هي الفترة التي أعلنت فيها بريطانيا أن «مناحيم

بيجن» إرهابي ورصدت جائزة لمن يدل عليه على إثر نسف فندق الملك داود مقر القيادة الانجليزية في القدس ، والتي أمطرت فيها العصابات اليهودية بالرشاشات المصلين في مسجد الأربعين في يافا فأبادتهم ، والتي جرت فيها مذبحة دير ياسين التي أفنى فيها اليهود البلدة إلا أفرادا ، وكانوايحبسون السكان في منازلهم ثم يشعلون فيها النار ، ويبقرون بطون الحوامل على رهان أفي رحمها ذكر أم أنثى ، ويمسكون بالطفل قائلين لأمه انظري فيذبحونه أمامها .

كان «هاري ترومان» رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وكان منحازا لليهود بالكامل .

وراجعه المسؤولون في وزارة خارجيته وكانت هناك مسكة من ضمير ، ويذكرونه بالحق العربي فيقول كم صوتا انتخابيا يملكون ، وماذا في أيديهم غير حزمة من الوثائق القانونية .

وحرك أجهزته السياسية لتضغط بكل ثقل أمريكا على الدول الصغيرة لتصوت بالموافقة على قرار تقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، الذي افتتحنا به هذا الباب ، فيما أعلنت بريطانيا أنها ستنهي انتدابها على فلسطين في ١٥ مايو ١٩٤٨ .

كان طبيعيا أن يرفض الفلسطينيون قسمة بيتهم بينهم وبين الأجنبي الغريب الدخيل . وبدأوا بالفعل المقاومة المسلحة التي كانت فعالة رغم الفقر الشديد في السلاح والذخيرة . وقدم «المناضلون» (الاسم الذي كان يطلق عليه آنذاك) ومن انضم إليهم من متطوعين من البلاد العربية مثل جماعة الإخوان المسلمين من مصر ومجموعة من ضباط الجيش المصري حصلوا على إجازات وذهبوا لفلسطين ، نماذج من البطولة والبسالة . ولو كانت الدول العربية أمدتهم ولو بالسلاح الخفيف والذخيرة لكان أكثر فائدة من دخول الجيوش العربية النظامية فيما بعد .

كنت شاهد عيان على هذه الفترة فقد كنت في مدينة الرملة على بعد أربعة كيلومترات من مدينة اللد ، ولولا أن المزارع بينهما كانت أوقافا لربما اندمجتا إلى مدينة واحدة ، ولا أدري ماذا آل إليه وضعهما الآن . ولم يكن العرب جبهة واحدة بعد

تفكك «جيش الإنقاذ» الذي كان يقوده ضابط موهوب اسمه/ فوزي القاوقجي بسبب قلة التسليح . وأخلى العرب يافا حتى قبل موعد إنهاء الانتداب البريطاني أيضا بسبب نفاد الذخيرة ، وفي الأيام السابقة ليوم ١٥ مايو كنت مثل المكوك في سيارة الإسعاف أنقل الجرحى من المناضلين من مستشفيات يافا إلى الرملة خشية أن يقتلهم اليهود عند دخولهم . . وكانت يافا تكاد تكون خالية من السكان في ذاك الوقت ، رغم أن يافا بحكم قرار التقسيم الذي أصدرته الأمم المتحدة كانت من نصيب العرب . . وكانت يافا قد استغاثت من قبل باللجنة العسكرية للجامعة العربية لإرسال سلاح ، لكن الاستغاثة تعثرت لأنه كان من أعضاء اللجنة من لا يحب يافا أو يقول إن فيها سلاحا كافيا ولكنها طماعة ، ولما تمت الموافقة كان الوقت قد فات .

دقت الساعة منتصف الليل ، وفي الثواني الأولى من ١٥ مايو ١٩٤٨ أعلن اليهود قيام دولة إسرائيل ، واعترفت بها أمريكا مباشرة سابقة الاعتراف السوفييتي بقليل .

كانت العصابات اليهودية الثلاث ، الهاجاناه والاسترن والأرجون زفاي ليومي بالغة التنظيم والتسليح والتنسيق . . تجاه العرب المبعثرين فكل بلدة تدافع عن نفسها بمن لديها من رجال وبنادق وقيادة من يسمى بالزعيم . وراحت الأرض العربية تنتقص من أطرافها وبعد أن كانت اللد والرملة آمنتين أحكم طوق الحصار حولهما .

كانت الجيوش العربية التي أعلن عن دخولها ما تزال بعيدة ودافعت الرملة عن نفسها باثنين وثمانين مناضلا تنكسر عليهم موجة الهجوم اليهودي كل ليلة متكبدا خسائر كبيرة . وجاءنا إلى المستشفى تسعة من جرحاهم أسرى فعاملناهم أحسن معاملة كما يقضي به الإسلام . وعندي ذخيرة من الحكايات المسلية عن تلك الفترة لا أختار أن أستطرد فيها وربما كان لذلك مجال آخر .

ومن الطريف البليغ الذي ذكره الأستاذ محمد حسنين هيكل في كتابه عن المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ، وكما كان معلوما للكثيرين من زمان ، أنه في يوم ١٢ مايو ١٩٤٨ دخلت «جولدا مائير» الأردن متنكرة في زي بدوي وقابلت

الملك/ عبدالله بن الحسين ملك الأردن (جد الملك حسين) ، وعرف من بعد أن المقابلة كانت لإقناعه بعدم دخول الحرب مع العرب ، فقال لها إن منظره يكون سيئا جدا إذا لم يفعل ولكنه طمأنها أن جيشه لن يتجاوز أبدا خط التقسيم . وفعلا دخل الجيش العربي (وهو اسم الجيش الأردني في ذلك الوقت ، وكان قائده ضابطاً انجليزيا اسمه جلوب باشا) إلى القدس القديمة . أماالجيش المصري فتقدم من الجنوب من جهة غزة ، ولكنه للأسف كان يلقى في طريقه مستعمرات يهودية فيتجاوزها لتحقيق التقدم بدلا من القضاء عليها ، وفيمابعد كانت هي الشوكات في جنبه ، التي عرقلت انسحابه وكبدته خسائر كبيرة وكادت تقضي عليه لما حوصر في الفالوجا (وكان بها جمال عبدالناصر وكمال الدين حسين ، معروف الحضري وغيرهم من الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة المصرية فيما بعد) .

كان القتال على وجه العموم لصالح العرب . . ولكنهم للأسف الشديد استجابوا لضغوط خارجية ثقيلة بقبول هدنة لمدة شهر . وتبين ـ فيما بعد طبعا وبعد فوات الأوان كالمعتاد ـ أن قبول الهدنة كان كارثة ، فقد تم فيها تسليح إسرائيل على نطاق واسع .

وخلال الهدنة جاء إلى الرملة فيلق أردني يملك مدرعات ومدفعية بقيادة ضابط اسمه ادريس بك . واستبشر الناس . . إذا كانت الرملة دافعت عن نفسها باثنين وثمانين بندقية فكيف بعد وصول الدبابات والمدافع والجنود المحترفين . وعاد إلى الرملة عشرات الألوف من الأسر التي كانت قد هاجرت منها مطمئنين إلى المظلة الأمنية المباركة . وأعيد توزيع الدفاع على المناضلين والقوة المنجدة . وانتهت الهدنة ، وبدأ القتال من جديد ، وفوجئ المناضلون بانسحاب القوات الأردنية .

وبسقوط اللد والرملة اختفى من مانشيتات الصحف المصرية والعربية عنوان «مشكلة التقسيم» ليحل محله عنوان آخر بالخط العريض اسمه «مشكلة اللاجئين» . .

فقد سمح اليهود للنساء والأطفال والعجزة بالرحيل بعد أن جردوهم من كل شيء وبعد أن قاموا بحملة إرهابية حملت الناس على أن يفروا بحياتهم . وشاء الحظ

أن أكون في مشوار فلم أستطع دخول الرملة في عودتي إليها ، فانضممت إلى مستشفانا الجديد بمدرسة «الفرندز» بمدينة رام الله ، لأكون في استقبال «مشكلة اللاجئين» بما اكتنفها من بؤس وشقاء وموت في مقامهم بالعراء تحت الشجر في رام الله وما حولها .

وعرض أحد قادة المناضلين واسمه كاظم على القيادة الأردنية استعداده لمهاجمة الرملة برجاله شرط أن يدخلها الجيش الأردني بعد استعادتها ، فرفض الضباط طلبه وهددوه إن فعل .

وتطورت الأمور إلى الأسوأ . وعلى الجبهة المصرية كان محور الاهتمام حسن الانسحاب . وأعلنت هدنة ثانية كانت لديها إسرائيل قد امتلكت أرضا تفوق بمراحل ما قرره لها التقسيم ، بل إن قواتها بعد موعد بدء الهدنة استمرت في التقدم فأخذت صحراء النقب والموضع الذي أقامت عليه فيما بعد مدينة إيلات فيكون لها منفذ على البحر الأحمر .

وفي مفاوضات الهدنة انفردت إسرائيل بالدول العربية واحدة واحدة لإبرام اتفاقيات رودس ، أما الفلسطينيون فلم يكن لهم وجود .

الجيش المهزوم جيش خطر . وتزداد الخطورة عندما يتبين أن أسباب الهزيمة كانت سياسية من جراء دخول حرب بغير أن يكون هناك استعداد لها كما نبه القادة العسكريون إليه في حينه . وتتفاقم الخطورة حين يكتشف الضباط والجنود في المعركة أن كثيرا من الأسلحة التي في أيديهم كانت أسلحة فاسدة تقتل من يحملها ، ويتبين أن هناك تفريطا كبيرا في المواصفات لأن الموردين ووكلاء الشركات كانوا أكثر اهتماما بالأرباح منهم بسلامة المقاتلين ، وكان على رأس هؤلاء ملك مصرثم من دونه من الأمراء والكبراء ، وكتب إحسان عبدالقدوس مقاله الشهير «إني أتهم» . .

واتهم وتحدى الدولة أن تحاكمه . . هذا بجانب ما تورط فيه الملك من طمع وجشع وفساد في الأخلاق الشخصية ولم يستطع أي من الأحزاب أن يقف أمامه فيه . . كل هذا أوجد الظروف إلى قيام ثورة ١٩٥٢ وإعلان الجمهورية وإلغاء حكم أسرة/ محمد على الذي استمر مائة وسبعة وأربعين عاما .

كان من أهداف الثورة الستة المعلنة استعادة فلسطين .وبعد فترة قصيرة تولى فيها اللواء محمد نجيب رئاسة الجمهورية استقر الحكم لجمال عبدالناصر .

وحديثي هنا عن القضية الفلسطينية فلا بد أن أقاوم الاستطراد في غير ذلك والحديث ذو شجون . كان من إيجابيات عهد عبدالناصر كسر احتكار السلاح بإقدامه على شراء السلاح من دول الكتلة الشيوعية ليستطيع أن يقوي الجيش كما يشاء . كذلك انتهى الاحتلال البريطاني لمصر . ولما أحجمت أمريكا عن تمويل بناء السد العالي أمم قناة السويس وقبل الاتحاد السوفييتي أن يحل محل أمريكا في بناء السد العالي فتم بناؤه .

على أن تأميم قناة السويس كان صفعة لبريطانيا وفرنسا فتواطأتا مع إسرائيل في الهجوم المسلح على مصر فيما يعرف بالعدوان الثلاثي١٩٥٦ ، وفيما هدد «بولجانين» رئيس الاتحاد السوفييتي بأن لندن وباريس في مطال الصواريخ الروسية ، وأعلن «ايزنهاور »(الذي كان يخوض معركة الرياسة في الولايات المتحدة) أنه غير راض عن العدوان ولن يقدم له عونا عسكريا ، اضطرت الدول المعتدية للانسحاب . خسرت انجلترا وفرنسا خسارة بالغة إذ انتقلتا فعلا من دول الصف الأول إلى دول الصف الثاني ، وكسبت إسرائيل حرية الملاحة في خليج العقبة وإن لم يعلم الشعب المصري ذلك إلا بعد أحد عشر عاما في ١٩٦٧ .

ورغم أن مصر منذ ذلك الوقت شرعت في إنجاز قاعدة عسكرية ضخمة لم يضن الشعب عليها بجهد ولا مال ، حتى كان المشيرعامريفخر بأن لمصر أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط ، إلاأن نظام الحكم وغياب الديمقراطية وتعذرالتنبيه إلى الفساد واستنبات الناس على الخوف أحدث في مصر خلخلة كبيرة رغم وجود السلاح والعتاد ، وجاءت حرب ١٩٦٧ هزيمة صاعقة وساحقة ، ولن ندخل في التفاصيل .

وأعلن عبدالناصر أن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة وبدأ حرب الاستنزاف ، لكنه مات فكان السادات هو الذي خاض معركة العبور في ١٩٧٣ والتي كانت لها

دلالات قوية . فقد كشفت أن إسرائيل ليست القوة التي لا تقهر كما كنا نعتقد . وأننا يمكن أن ننتصر لا كما كنا نعتقد . وأن سلاح الإيمان له أثر كبير على المعركة ، وأن أمريكا هي التي تملك حربيا تعديل الميزان في الاتجاه الذي تريد .

واقتنع السادات أن خياره الوحيد أن يساير أمريكا . . وزار إسرائيل وكانت معاهدة الصلح في كامب ديفيد . وكان على العرب أن يدركوا أنه بخروج مصر لم يبق أمامهم خيار عسكري . وكان في وسع السادات الحصول على شروط أفضل لولا أنه تمسك بموقفه «كبير العائلة» ولم يستمع لمستشاريه .

وتدل النظرة الخلفية على ضوء ما نرى الآن أن الفلسطينيين لو شاركوا في المفاوضات لحصلوا على أكثر مما يسعون إليه الآن بكثير ، وربما لو فاوض العرب كتلة واحدة لحققوا المزيد . ووقت كتابة هذه السطور تدور «عملية السلام» كما تسمى ، وتتهافت دول عربية على التعامل مع إسرائيل مع أن الله أغناها عن ذلك ، والموقف العربي منكسر منذ هاجمت العراق الكويت ، ولا يوجد ما يمكن أن نسميه جبهة عربية . والفلسطينيون حققوا مكاسب سياسية عندما أشعل أطفال الحجارة الانتفاضة ولكنها مكاسب لم تبلغ غاياتها العملية . واعترف الفلسطينيون بإسرائيل ودخلوا معها في المفاوضات . .

وأصبح ولاء الفلسطيني ليس للأرض إذ لم تبق في حوزته أرض ، ولكن لعمل عند يهودي يكسب منه رزقه فإذا أغلق اليهود الحدود جأر الفلسطينيون بالشكوى وتأرجحت إسرائيل بين فلسفة حزب العمال : الأرض مقابل السلام وستكون لنا من المحيط إلى الخليج عن طريق الاقتصاد ، وحزب الليكود الذي لا يريد أن يتنازل عن أرض ويتخذ القوة سبيلا لإقامة إسرائيل الكبرى .

ولا أستطيع أن أكون أكثر إيجازا لحين الوصول إلى المرحلة الحالية ولا أتكهن بما بعدها . لكن هناك أمورا لا أحب أن تغيب عن خاطر الدول العربية أو المفاوض العربي . . في غمرة السعي إلى السلام لا ينبغي أن ننسى أن هناك ثوابت استراتيجية مستقرة في سياسة إسرائيل .

فهي أولا استعمار إحلالي يرسم أن يتخلص من الفلسطينيين إن استطاع . ويزعجه أن يرى معدل المواليد العرب أعلى منه من اليهود بما في ذلك من تهديد ديموجرافي . وليس مثل الصليبيين يملك وطنا آخر يستطيع أن يعود إليه فلا نية لديه إلا البقاء . وهو لا يحاول التخلص من العرب بالتهجير أو الاضطرار إليه أو هدم البيوت أو تغيير الجغرافيا فقط ، بل بجلب مزيد من اليهود من أنحاء العالم ليحلوا محل العمالة الفلسطينية ، وهي الخط الحيوي الباقي للفلسطينيين . وقد صرح بهذا ساستهم ومفكروهم ، مثل البروفيسور« بن زيون دينور» الذي أعلن أن ليس في بلادنا متسع لشعبين . .

ومثل «يوري لبراني» (مستشار بيجن للشؤون العربية) الذي قال : سنختزل الجالية العربية إلى طائفة من الحطابين وجرسونات المطاعم ، ومثل «شيب الداود» الذي قال : إما «إسرائيل الكبرى» وإما «اسماعيل الكبرى» .

وهو ثانيا استعمار توسعي . مازالت خريطة من النيل إلى الفرات في الكنيسيت . والخطان الأزرقان في أعلى وأسفل العلم اليهودي يرمزان للنيل والفرات . وسئلت «جوولدا مائير» عن حدود دولة إسرائيل كما تراها فقالت عندما نصل إلى الحدود سنخبركم . وصرح «بن جوريون» بأن الدولة اليهودية تطمح أن تشمل حدودها جنوب لبنان وجنوب سوريا والأردن وشبه جزيرة سيناء .

وهو استعمار عنصري . وفي تصريح سابق «لرفائيل ايتان» الذي كان رئيس الأركان قال إن من يتهم البيض في جنوب إفريقيا بالعنصرية كذاب . . السود هناك هم الذين يريدون التحكم في الأقلية البيضاء تماما مثلما يريد العرب أن يتحكموا فينا . وعندما صوتت الدول الإفريقية بجانب قرار الأمم المتحدة باعتبار الصهيونية عنصرية في عام ١٩٧٥ (القرار الذي تم لحسه فيما بعد) ، كان تعليق «بيجن» : كيف تحسب الشعوب التي كانت إلى عهد قريب تعيش فوق الأشجار أنها أصبحت تقود العالم .

بل إن العنصرية قائمة في اليهود بين بعضهم والبعض . العنصر« الأشكينازي» وهو اليهودي الأوروبي الأبيض يرى نفسه أرقى من السفارديم . وبينما يشكل

السيفارديم سبعين بالمائة من اليهود فقد رسم نظام للتعليم والمصروفات الدراسية بحيث لم يسمح لهم بأكثر من ستة بالمائة في الجامعات وثلاثة بالمائة عند التخرج .

أما اليهود الأحباش الذين طنطنوا بهم فحثالة المجتمع ، لدرجة أنه عند التبرع بالدم تنتقى زجاجات دم اليهود الأحباش فتراق ويرمى بالدم حتي لا يستعمل ، وعندما اكتشفت هذه الفضيحة أحدثت مرارة كبيرة لدى الأحباش وإحساسا بالاضطهاد والتفرقة العنصرية . . تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى : بل إن اليهود الأرثوذكس أصدروا من قريب فتوى بأن اليهود المحافظين واليهود الإصلاحيين ليسوا يهودا .

وأما أنه استعمار ظالم فبديهية لا تحتاج إلى تدليل . لكن نحب أن يشهد شاهد من أهلها . فالأستاذ «جودا ماجنس» أول رئيس للجامعة العبرية يقول : إن لليهود أكثر من حق في مطالبة العالم بالعدالة ، ولكنني على غير استعداد للحصول على العدل لليهود عن طريق الظلم للعرب . ويقول البروفيسور «بنيامين كوهين» الأستاذ بجامعة تل أبيب : لقد كان اليهود على الدووام ضحايا القسوة فكيف جاز لهم أن يكونوا على هذه القسوة . وهناك الكثيرون منهم يرون هذا الرأي . وفي أمريكا حركتان يهوديتان كبيرتان اسمهما «السلام الآن» و«الأرض مقابل السلام» ، وينكرون الظلم الواقع على الفلسطينيين ويرون إعطاءهم وطنا والعيش معهم في حسن جوار . ومثلهم عدد ضخم من اليهود داخل فلسطين .

وهو كذلك استعمار إرهابي . . وبني يدي قائمة طوية من أعمال الإرهاب التي ارتكبتها الدولة الإسرائيلية خلاف ما ارتكبه الأفراد ، أطوي عنها الحديث لأن المجال هنا لا يتسع لها .

وبعد . .

فماذا بعد هذا وما الذي نستطيع أن نفعله بدلا مما نحس به من عجز وضياع؟

لعل الواجب الأول والأكبر هو ألا نقبل الهزيمة في داخل نفوسنا . مهما كانت الأوضاع السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية فلا بد أن تظل قلوبنا قلوبا غير منهزمة .

وأحرص ما يحرص عليه العدو هو أن نقبل ـ نفسيا ـ أن نصاب من الداخل وأن تتحول الهزيمة إلى مكون مقبول وعادي في حياتنا . وأخوف ما يخافه العدو أن يبقى هذا البصيص ويظل في جمرة الأمل اتقاد .

وليست هذه مهمة هينة . . خاصة إذا هادن الإعلام والتعليم العدو واستنبتت الأجيال على مفاهيم جديدة تسوغ الواقع الذي هبطنا إليه فتقبلناه .

والأمر الثاني هو أن نستطيع أن ننظر إلى أنفسنا وأن نقرأها بوضوح .

على طول المدى كنا ننظر إلى قضايانا نظرة أحادية مجتزئة لا تبصر جميع الأبعاد .

كان يوضع أمامنا الكسر فنقرأ البسط دون أن نقرأ المقام . كنا نكتفي بالإجابة على سؤال واحد من سؤالين حيويين فلا غرو إن أخطأنا الحساب .

السؤال الأول هو : هل لنا حقوق؟ والإجابة واضحة وسهلة . نعم لنا حقوق .

والسؤال الثاني هو : هل نستحق هذه الحقوق؟ وهنا لا تكون الإجابة مواتية بمثل هذه السهولة . فما أكثر ما أخطأنا وضللنا وتقاعسنا وعربدنا وقد أقول خنا ، في تناولنا لموضوع القضية الفلسطينية من أوله لآخره .

والإنسان إذا لم يستحق حقوقه فإن العدالة تأبى عليه أن ينالها . وتظل سنة الله في هذه الصراعات أن ينال كل ما يستحق .

يقول الله سبحانه وتعالى : «إن الله يدافع عن الذين آمنوا» ، فلماذا لم يدافع عنا؟

ويقول : «وكان حقا علينا نصر المؤمنين» ، فلماذا لم ينصرنا؟

ولا يمكن أن يتطرق إلينا الشك في وعد الله سبحانه وتعالى فلم يبق إلا أن يتجه الشك إلى الطرف الآخر : نحن ! فهل تنطبق علينا المواصفات؟ هل نحن المؤمنون؟ لقد أفرغنا القضية من محتواها الإسلامي من زمان وحصرناها في المحيط العربي . وها نحن هؤلاء الآن نكاد نفرغها أيضا من محيطها العربي إذ نجد من الأريح والأيسر أن نحصرها في المحيط الفلسطيني ، ويبقى دورنا تحريك عملية السلام وتطبيع العلاقات

وتقديم الخد الأيسر كلما صفعنا على الأيمن .

ويا طالما لجأنا إلى نقيض الإيمان ونحن نسلم أمرنا إلى القوى اليسارية (ومن بعدها اليمينية) ، أو شبه الإيمان ونحن نقدم التظاهرات المتحمسة والدعوات الباردة أو تقدم دولنا الاحتجاجات المتتالية في الخارج والخطب الكاذبة في الداخل .

إن نصر الله قائم . . ينتظر أن يتنزل على الذين يستحقونه . إن الذين يتحمسون للقضية الفلسطينية وهم على حالهم من الخواء الروحي والقصور الإسلامي والتساهل الأخلاقي يحاولون الوثوب إلى القطار من منتصف الطريق ، لكن القطار لا يفتح أبوابه إلا في محطة القيام ، ومكانها القلب .

ومما يخدم عدونا كذلك تلك الخصومة التقليدية بين الحكام والشعوب ، التي أصبحت النمط العادي في حياتنا حتى حسبناها هي الوضع الطبيعي وليست كذلك .

والنتيجة أن يظل بأسنا بيننا لا بيننا وبين العدو ، وأن ننشغل بالداخل عن الخارج . وأتمنى لو ارتفع الوعي بالحكام والمحكومين فقرروا هدنة بينهما لعشر سنوات قابلة للتجديد (مع عدم إلغاء المعارضة السياسية لأن المعارضة خدمة وطنية وليست حربا) ، يكون التركيز فيها على علاج هذا السرطان الصهيوني ، ولكن مع عدم خنق الحريات بدعوى ألا صوت يعلو على صوت المعركة ، لأن خنق الحريات في الأمة شبيه بتحطيم جهاز المناعة في الجسم .

ولا شك أن العامل الأمريكي كان ولا يزال العامل الحاسم في القضية الفلسطينية .

ومن المهين حقا أنه في كل مرة يقع عدوان أو إرهاب صهيوني يرفع حكامنا أكف الضراعة لا إلى الله ولكن إلى أمريكا ويسافر فلان وعلان لمقابلة الرئيس الأمريكي وتتجدد (تتكرر) الدعوة لأمريكا إلى أن تأخذ دورها ، وفي كل مرة تقول أمريكا بصريح المقال أو بلسان الحال وفروا جهدكم فأنا مع إسرائيل على طول الخط أنصرها ظالمة أو مظلومة وأدفع عنها كل تهديد عسكري أوسياسي ، ولا أضغط عليها بأي حال ، والعلاج الوحيد الذي نقدمه هو ترك الموضوع بين الذئب والحمل يحلانه

فيما بينهما . . وينتهي الأمر بتلك الصفعة على قفانا فنعود ونبقى بانتظار الصفعة التالية ، ويبدو أن قفانا رحب حمول .

ولسنا في حاجة لأن نؤكد أن علاقة أمريكا بإسرائيل ليست علاقة عواطف بل علاقة مصالح . ويقول قائل ولكن مصالح أمريكا في بلادنا أوسع مدى وأكثر حيوية من مصالحها مع إسرائيل ، وطالما نبهنا إلى ذلك في خطابنا إلى الأمريكان فكان الرد دائما إن مصالحنا في بلادكم لم تتأثر بانحيازنا لإسرائيل بل يبدو أحيانا أنكم أسبق منا إلى الدفاع عنها ، فما الذي يدعونا إلى تغيير سياستنا؟ يا للهوان ! والسبب الرئيسي في ذلك ولا شك هو فقرنا في احترام النفس ، ومن لا يحترم نفسه فلماذا يحترمه الآخرون؟ إننا نلبس ثياب الأحرار ونتصرف بعقلية العبيد . إسرائيل نفسها وهي صنيعة أمريكا لم تحجم عن صفعها المرة تلو المرة . . ألم تحطم سفينتها الاستخبارية ليبرتي في البحر المتوسط أيام حرب ١٩٦٧ أيام كانت أمريكا حليفتها الكبرى .

ألم تضبط لعملائها عدة قضايا تجسس على أمريكا لعل أشهرها قضية بولارد ، ألم تخترق البوليس الأمريكي فتحصل على تقاريره السرية عن المدنيين ، ألم تتحكم في انتخاباتها الرياسية وغير الرياسية فأصبح من مراسم المرشحين زيارة إسرائيل ووضع الطاقية على رؤوسهم ، ألم يشخط أكثر من رئيس وزراء إسرائيلي في أكثر من رئيس أمريكي وكأن إسرائيل هي التي تدفع المعونة لأمريكا وليس العكس . . ولا أمل في الحصر فالقائمة طويلة تجل عن الحصر .

والغريب أن لأمريكا فعلا مصالح في بلادنا نستطيع أن نضغط بها على أمريكا ولكننا أمامها مخدرون كالحمامة التي يرميها الثعبان بنظرته فيشلها عن الحراك . وللأسف فإن أمريكا برعت في ضرب بعضنا ببعضنا ويظهر أننا مولعون بالوقوع في هذا الشرك ، وما أمر صدام وأمثاله ببعيد .

وإذا كان الحكام لأسبابهم الذاتية في المقام الأول ثم للظروف السياسية والاقتصادية من بعد ، يتحرجون من مجابهة أمريكا فضلا عن الضغط عليها (ويرحم الله فيصل بن عبدالعزيز لدوره في المقاطعة البترولية عام ١٩٧٣ والتي كان يمكن أن

تؤتي ثمرتها لولا أن أصر السادات على إنهائها) ، فإن الشعوب تستطيع أن تقدم الكثير في غير اصطدام بالحكام أو إحراج لهم . . ولكن بشرط أن يتحقق حد أدنى من الإيمان والوعي واحترام النفس . إن السياسة الأمريكية لا تعبد إلا الدولار . فماذا لو امتنع مسلمو العالم عن تدخين السيجارة الأمريكية؟ إذن لأحست أمريكا أننا شعوب تقدر أن تعمل شيئا فاكترثت بنا واستمعت لنا وحسبت حسابنا . ستحس أمريكا أننا وصلنا إلى احترام النفس فستحترمنا . وتحترمنا أكثر إن امتد الأمر إلى السيارة الأمريكية والكوكاكولا الأمريكية ومكدونالد وكنتاكي وهلم جرا . فعل ذلك غاندي في الهند إزاء انجلترا ، وفعلناه في مصر أيام كانت أمي تنزل بي إلى السوق لتكسوني فتصر على مقاطعة البضائع الإنجليزية خصوصا والأجنبية عموما ما دام هناك إنتاج وطني بديل ولو كان أقل رفاهة وأدنى وجاهة ، وكان شعوري آنذاك وأنا طفل شعور الزهو بأمي والاعتداد بوطني والاحترام لنفسي .

وأنا لا أكره أمريكا ولست عدوا لها واخترت بنفسي أن أصبح مواطنا أمريكيا ، ولعل الخدمة الحقيقية التي أستطيع تقديمها لأمريكا هي أن أساهم في تصويب خطاها نحو العدل وصرفها عن الظلم ووصلها بالفضائل والأخلاق التي لا تستمر حضارة إلا بها والتي تعلمتها من الإسلام .

إن السوق الإسلامية المشتركة (يا مسلمون) بل حتى السوق العربية المشتركة كخطوة أولى (يا عرب) تستطع أن تبلغ بنا إلى حالة الاكتفاء ، ولكن مثلما مزقنا عدونا على الخريطة إلى دويلات ذات حدود جغرافية وسياسية ، مزقنا نحن أنفسنا نفسيا وعمليا إلى شراذم تأبه كل منها بنفسها لا بالجميع ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، ولا تقدر أي منها على الاكتفاء فتستعين بالغرب ولو استعانت ببعضها البعض لاستغنت عن الشرق والغرب .

إن مصر لا تهتم بزراعة القمح لكنها تهتم بزراعة الفراولة ، فالفراولة تجلب دولارات أكثر والقمح ترسله أمريكا بدولارات أقل . . وعلى الورق تكسب مصر دولارات أكثر ، وتنسى أنها خلال ذلك تفقد استقلالها إلى من يعطيها رغيف

خبزها . . والخبز في مصر اسمه «العيش» .

والاكتفاء الذي أشير إليه ـ ونقدر عليه ـ ليس اكتفاء الغذاء والكساء فقط . . بل الاكتفاء الأمني كذلك . ولقد قامت محاولة واعدة لصناعات عسكرية عربية مشتركة ، لكنها للأسف لم تستمر لأن الحبل الذي يربطنا ليس حبل الله ولأن شهيتنا مفتوحة لأكل بعضنا البعض وجازى الله الذي عصف بالوحدة وفرق الشمل وأخرنا إلى الوراء أشواطا بهجومه الأناني والأعمى والغاشم على الكويت .

إن كانت هذه حالنا فلا بد أن نغيرها على الأقل من أجل البقاء . وما زال يتهددنا خطر جديد داهم هو دخول الاقتصاد الإسرائيلي إلى بلادنا ، وسيساعده الذين سيجمعون الثروات بالتعاون معه ، والغزو الاقتصادي لعبة اليهود وتخصصهم على مدى التاريخ ، وستسد المسالك أمام الذين يحاولون إيقاظ وعي الجماهير كما طوع التعليم في بعض البلاد لتشكيل الأجيال الجديدة وفق مفاهيم جديدة .

هذا هو التحدي الذي ينتظرنا . وعلينا أن نتعامل معه . وعقدنا مع الله عقد التزام بعمل وليس عقد التزام بنتيجة . . علينا أن نبذل ما نستطيع : لا أكثر ، ولكن لا أقل . فإذا وفينا بالتزامنا فسيوفي الله تعالى بالتزامه . سنكون أهلا للنصر ، «وكان حقا علينا نصر المؤمنين» .

النظام العالمي الجديد

النِّظامُ العالميّ الجَديدُ

أعلن وزير خارجية أمريكا الأسبق جيمس بيكر عن قيام نظام عالمي جديد أيام حرب الخليج ، وعلى أثر انهيار الشيوعية وتهاوي الاتحاد السوفييتي .

ثم انجلى الغبار وبدأ المنظر يتضح رويدا رويدا . وبينما كنا نتوقع أن يكون النظام العالمي الجديد نظاما عالميا أي أن دول العالم ستشترك في وضعه ، بدأ يتضح أن المقصود في الحقيقة هو نظام أمريكي جديد للعالم . . وتأكد ذلك بمرور الأيام .

ونود في البداية أن نؤكد أن انكسار الشيوعية لا يشكل شهادة حسن صحة للنظام الرأسمالي الغربي . كل ما في الأمر أن الشيوعية سبقت بالانهيار . .

وإذا استمرت المؤشرات الحالية فسيفضي النظام الرأسمالي الحالي إلى نفس المآل .

ولم يكن الذي حدث مفاجأة ولا الذي سيحدث . استقرأه عدد من المفكرين في الشرق والغرب مسلمين وغير مسلمين . ذلك أن كلا من الشيوعية والرأسمالية قامت على اعتبارات مادية محضة ، لتدبر أمور مخلوق مكون من أكثر من المادة ، بل إن الجانب غير المادي منه هو عنصره النفيس والأهم والذي ميزه عن الكائنات الأخرى فأصبح به إنسانا .

على أن هذا الأساس المادي اتجه فيهما اتجاهين مختلفين على أساس رؤيتهما للعلاقة بين الفرد والمجتمع . كلتاهما تؤمن بأن مصحلة الفرد ومصلحة المجتمع نقيضان لا محالة . فسارت الشيوعية في اتجاه تغليب مصلحة المجتمع على حساب مصلحة الفرد حتى لم تبق له مصلحة معتبرة ، وبفقدان حق الملكية فقد الحافز على الإنتاج ، وبدس الدولة أنفها في كل شيء فقد القدرة على الإبداع ، وبإحصاء أنفاسه عليه أصيب بضيق التنفس . . كل ذلك من أجل مصلحة المجتمع . ولكن هل المجتمع إلا الفرد مكررا؟ لاغرو أن كانت النتيجة مجتمعا بئيسا مقهورا .

أما الرأسمالية فأوغلت في عكس الاتجاه . . قدست الفرد وحقوقه وحرياته وأزالت من حوله السدود والقيود ، وهيأت له الحرية التي نمت إلى أنانية لا تأبه بالصالح العام ويشغلها أمر نفسها عن أمور الآخرين .

إن فلسفة الرأسمالية تنحصر في أن مهمة رأس المال هي «النمو . . والنمو . . والمزيد من النمو» . ولا يريدون أن يقتنعوا بأن ذلك خرافة فضلا عن أنه استحالة رياضية . . فليس من الممكن تحقيق نمو غير محدود في عالم محدود . وتمضي العقلية الرأسمالية وفق عقيدتها المرسومة ، فإذا تشبعت الأسواق المحلية خرجت إلى العالم الرحب ، وأرحب ما فيه دول العالم الثالث ، ففيها أنسب الظروف للاستغلال وامتصاص الدماء دون مقاومة تذكر .

ولكي تلهب ظمأ العالم الثالث إلى منتجاتها استطاعت أن تصوغ الحياة فيه على أنماط استهلاكية سلبية جعلت من الكماليات ضروريات وجعلت الشعوب تنفق من أموالها على بضائع الاستهلاك أضعاف ما تنفق على بضائع الإنتاج .

وينزف العالم الثالث ولكن الاخطبوط لا يريد أن تموت الأوزة التي تبيض له كل يوم بيضة من الذهب . ويصاب العالم الثالث بفقر الدم نتيجة النزف فيسعفه الاخطبوط بجرعات من نقل الدم ليبقى عليه حياته ويضمن استمرار قوته الشرائية ، وذلك على هيئة قروض ومعونات ولكن بشروط ما أنزل الله بها من سلطان .

وهي تفعل ذلك إما بالتعامل المباشر ، أو من وراء ستار خلال مؤسسات أقامتها لذلك مثل صندوق النقد الدولي أو البنك الدولي أو غيرها .

ومن الواقع المر والغريب أن بلدا مثل بلدي وسائر البلاد كلما ضخوا فيها مزيدا من المال ازدادت فقرا وتفاقم مقدار ما عليها من ديون .

أولا لأن المعونة تمنح بشروط مجحفة . منها ارتفاع سعر الفائدة عليها .

ومنها الإصرار على أن يكون هناك خبراء أمريكان (في حالة أمريكا) يتقاضون مرتباتهم الباهظة من الدين ، والإصرار على أن كل بضائع يلزم شراؤها تكون من

أمريكا ، وأن يتم نقلها على بواخر أمريكية ، وأن تكون المشروعات موافقا عليها من أمريكا ، والدولة الوحيدة التي تستطيع أن تقترض من أمريكا وتنفق القرض كيف تشاء هي إسرائيل .

ويا ليت تلك القروض تصب مباشرة في مصلحة الشعب . فمنها ما ينفق على مشروعات يستفيد بأرباحها القلة ، وخلال التفاوض يضيع جزء محترم على العمولات ، والعمولات أولا وآخرا مدفوعة من الشعب رغم فقره ، وبدلا من أن يرث الجيل المقبل التقدم والرفاه يرث دينا متعاظما يعجز البلاد أن تسدد أرباحه فضلا عن سداد أصله .

وأخطبوط رأس المال هذا قاس لا يرحم ، وهو يغتني لنفسه وليس حتى لوطنه ، وإلا لما ظهرت في أغنى بلاد العالم مشكلة الفقر على أبشع ما تكون ، أو تكونت شريحة من المشردين ليست لهم مساكن فهم يسكنون في العراء وعلى الأرصفة في أغنى مدن العالم . إنه ينقل قسطا كبيرا من الصناعات إلى الدول الفقيرة في العالم الثالث حيث اليد العاملة رخيصة وحقوق العمال معدومة وشروط السلامة مهدرة والنقابات محظورة ، وتقل تكاليف الإنتاج لكن لا يقل سعر البيع ، وخلال ذلك يفقد مئات الألوف من العمال الأمريكان أعمالهم وينتقلون إلى جداول البطالة .

ولكي يدوم هذا المناخ الأنسب للاستغلال ـ ويعبر عنه رجال السياسة بالاستقرار ـ فإن حلفا يقوم بين المستفيدين من أهل الحكم والنفوذ وبين هذا الاستعمار الجديد ، فيقوم الطرف الأول بتأمين بقاء الحال ويتكفل الطرف الثاني بمساندة الطرف الأول إن ظهر ما يهدده ، ولو بالقوة المسلحة .

ولهذا فله دالة كبيرة على الطرف الأول ، وقد سمعت أن بلدا كان على وشك إتمام صفقة كبيرة مع أوروبا ، ولكن مكالمة تلفونية واحدة حولتها إلى أمريكا .

ومن أهم ما يصدره الأخطبوط الأسلحة . . تلك البضاعة التي وظيفتها الدمار لا الإعمار . ومن البلاد ما ابتاعت منها بعشرات المليارات أومئاتها دون أن تكون لها المعدة التي تهضمها ، فإذا جد الجد واستحكمت الحاجة لم تغن عنها شيئا .

ويبيع الأخطبوط السلاح للغني والفقير ، لا ليحق حقا ويزهق باطلا ولكن من أجل الربح وحده ، ولا يكاد العالم يخلو من حروب ، فإذا تأملت وجدت السلاح على جانبي المعركة من مصدر واحد . . حتى لدى شعوب في إفريقيا لا تجد ما يمسك رمقها ويقيم أود أطفالها .

ولقد كان المأمول والمتوقع بعد انتهاء الحرب الباردة وزوال الاتحاد السوفييتي كمنافس لأمريكا أو خطر عليها ، أن تتحول الميزانيات والصناعات الحربية إلى الأغراض السلمية ، وتفاءل الناس واستبشروا ، وكنت شخصيا عضوا في جمعية اسمها «تحالف الأديان لمقاومة سباق التسلح» ، وعقدت الجمعية اجتماعا مطولا قررت فيه حل نفسها ، وكان مما قلت لهم إننا لم نصل إلى مرحلة سلام ما بعد الشيوعية لكن عدنا إلى مشاكل ما قبل الشيوعية .

ولم يأت اقتصاد السلام .

وما كان يراد له أن يأتي !

وقد طالعت كتابا في غاية من الأهمية والإفصاح اسمه «تقرير من أيارن جيت» ، وترجمة أيارن جيت هي البوابة الحديدية ، ولكن ليس هذا هو المقصود بل هو اسم لقرية ، بالقرب من نيويورك ، عقد فيها فريق مختار اصطفته الحكومة الأمريكية اجتماعاته على مدى عامين ونصف ، ليبحث ويضع تقريرا عن احتمالات السلام على ضوء سؤالين : هل هو ممكن؟ . . وهل هو مرغوب فيه؟

وكتب التقرير . ولكن أحد أفراد الفريق هو أستاذ في إحدى الجامعات الأمريكية ، لم يطاوعه ضميره أن يظل في طي الكتمان ، فعهد به إلى صديق موثوق ليتولى نشره ولكن مع عدم الإفصاح عن شخصه (تقديم : ليونارد ليوين ، دار نشر ديال ، نيويورك) .

ودرس الفريق ما ينتج إن ساد السلام الدائم ، وقال إنه بعيد الاحتمال وإن كان ممكنا ، ولكنه ليس في الصالح القومي . وراح يقارن بين مزايا «نظام السلام» و«نظام

الحرب» فوجد الثاني أكفل بالمصلحة الوطنية . . «إن نظام الحرب يؤدي وظائف حيوية من أجل استقرار مجتمعنا ، وحتى يوجد بديل يفي بهذه الوظائف فلا بد من استبقاء نظام الحرب والعمل على تحسين كفاءته» . . وأثار الكتاب ضجة كبيرة حين نشره لكن بعد فترة هبط الغبار وصفا الجو وراق الحال .

لا بد من وجود حرب باستمرار على فترات لا تنقطع ، بل يذهب التقرير إلى اقتراح «الأعداد» و«الميزانيات» للبشر الذين يجب أن يقتلوا كل عام .

وبقيت صناعة الحرب . . التي تستهلك سنويا عشر موارد العالم .

واطمأن التحالف الصناعي ـ العسكري .

ونمت ـ ولا تزال ـ ميزانيات «الدفاع !!!!» .

وخفت صوت المعارضة خاصة بعد أن استطاعت أمريكا أن تطور جهازها الحربي وتخترع «حربا بغير خسائر بشرية من الأمريكان» . . أو تكاد .

إن الأخطبوط لا قلب له ولا رحمة عنده . وهو لا يصدر إلى الفقراء المهلكات الحربية فقط ، ولكنه يصدر السموم الصناعية والنفايات النووية ، ومن العجيب أن مادة د .د .ت . التي نستعملها بغزارة مبيدا حشريا قد منع استعمالها في أمريكا من زمن طويل ، ولكن إنتاجها ما زال مستمرا لأغراض التصدير إلى العالم الثالث ، كنموذج من قائمة كيميائية كبيرة .

ومن العجيب أن أمريكا قامت في السنوات الأخيرة بحملة مكثفة ضد التدخين على أرضها وبين مواطنيها لما له من أخطار صحية (تؤدي إلى خسائر مادية) ، وامتعضت بطبيعة الحال شركات السجائر ، وكان على رأس أمانيها أن تعطي مهلة لتدبر أمرها في العالم الثالث ! . . وكأن العالم الثالث عالم المغفلين ، وأتمنى على الله وعلى أخوتي في الله أن يثبتوا أنهم ليسوا كذلك .

مشكلة السكان

في طليعة القضايا التي تستحوذ على اهتمام صناع السياسة والمخططين في العالم الأول ما يسمى بالقنبلة السكانية أو الانفجار السكاني . . ويختصرونها في أن زيادة السكان في العالم تطغى على زيادة الموارد المتاحة . ولما كانت معظم الزيادة السكانية تحدث في بلاد العالم الثالث ، فإن العالم الأول يتهم هذه البلاد بعدم المسؤولية ، ويلقي على عاتقها مهمة إنقاذ العالم من الخراب الذي يتهدده .

ولهذا ركزت السياسة الغربية على ضرورة خفض معدلات الإنجاب في دول العالم الثالث . وأذكر في فترة من الفترات في عهد جمال عبدالناصر أن دب خلاف بين مصر والولايات المتحدة ، وتوقفت الولايات المتحدة عن تمويل المشروعات والبحوث في مصر لدرجة امتناع المجلات العلمية عنا ، لكن كان هناك استثناء واحد هو برامج تحديد النسل . وقد لمست الجهود الغربية الكبيرة التي بذلت في هذا السبيل ، والمؤتمرات التي مولتها من أجل إقناع الأطباء وتدريبهم ، بل وجندت بعض الأساتذة من العرب المسلمين الذين يحملون الجنسية الأمريكية لحضور هذه المؤتمرات والترويج بأن إباحة الإجهاض ضرورة حتمية وأن الدين الإسلامي لا يمانع في ذلك ، والحمد لله لم يكن نصيبهم إلا الفشل في دعواهم أن الإسلام يبيح الإجهاض .

أنا شخصيا أستاذ متخصص في أمراض النساء والتوليد كما أنني مهتم بإسلامي كل الاهتمام . وطالما وصفت للسيدات اللاتي كنت أرعاهن وسائل منع الحمل المختلفة . وأنا بصير كل البصر بالمخاطر الصحية للسيدة غزيرة الإنجاب ، ومطلع على الإحصاءات المنشورة عن التفاوت بين زيادة الأعداد وزيادة الأمداد .

وأنا كذلك متابع لمفاهيم النظام العالمي ـ خاصة الجديد الذي أعلن عنه ـ بضرورة الحد من تكاثر العالم الثالث (والدول الإسلامية منه) ، لدرجة أن بعض السياسيين طالبوا بربط المعونة الأمريكية بمقدار نجاح الدول في الحد من إنجابها . وقد جرت محاولة أخرى مستميتة في مؤتمر القاهرة للسكان الذي عقد من سنوات لتمرير مسألة الإجهاض لكنها لم تنجح ، وكانت تجربة فريدة لتعاون الأزهر مع الفاتيكان .

ورغم صدق المقولة بأثر الزيادة السكانية على دول العالم الثالث ، وأن ما تحققه التنمية الاقتصادية تلتهمه الأفواه الجديدة ، إلاأن قراءاتي وتفكيري خلصا بي إلى أن هذه تمثل بعض الحقيقة لا كلها ، وأن من يطوي بعض الحقيقة كذاب .

تبينت أن للمشكلة أبعادا أخرى غير العطف على العالم الثالث ، وضمان تنميته . فقد ثبت بالتجربة الأوروبية ، وكما وصل إليه مؤتمر السكان المنعقد في بوخارست عام١٩٧٤ ، أن التنمية هي التي تؤدي إلى تقليل الإنجاب ، وليس تقليل السكان هو الذي يؤدي إلى التنمية . فحيث الفقر وارتفاع معدل وفيات الأطفال ، تضطر الأسر إلى إنجاب أطفال أكثر حتى تضمن الأسر الذرية المطلوبة .

وفي نفسيات الشعوب وضمائرها العامة أن الشعب الذي يفتقد الأمان يتجه لا شعوريا إلى زيادة النسل كوسيلة وقائية تؤمن له الاستمرار .

وتبين لي كذلك أن في بعض مناطق العالم حربا ديموغرافية تهدف إلى تحويل الأغلبيات إلى أقليات ، وتحويل الأقليات إلى أغلبيات ، ودلائل ذلك في الشرق الأوسط ناطقة .

وتبين لي أن من الظلم أن تلام دول العالم الثالث وتطالب هي بحل الأزمة ، فإن أمريكا مثلا تشكل ستة بالمائة من سكان العالم ، ولكنها تستهلك ثلاثين بالمائة مما ينتج ، فعدالة التوزيع أمر مهم ولا يمكن التغاضي عنه .

ويقول «پول أرليك» و«آن أرليك» من قسم العلوم الحياتية بجامعة ستانفورد إن طفلا يولد في أمريكا يستهلك من الموارد ويؤذي البيئة بمقدار ما تحدثه ولادة مائة طفل في بنجلاديش (مجلة ناشونال جيوجرافك . . نقلا عن مايكل هندرسون في كتابه «أمل في التغيير» ، منشورات جروزڤينور : سالم ، ١٩٩١) .

وقد أزيح الستار مؤخرا عن الدراسة رقم ٢٠٠ للأمن القومي الأمريكي بعنوان : «انعكاسات الزيادة السكانية العالمية على أمن الولايات المتحدة ومصالحها الخارجية» . . وهي وثيقة كانت سرية حتى أفرج عنها بانقضاء المدة المقررة (الأرشيف

القومي . ملف دراسة الأمن القومي رقم ٢٠٠ ـ ر ج . ٢٧٣) . وقد قرأتها فكدت أصاب بالذهول . تقول المذكرة : «إن العوامل السكانية تحمل بذور الثورة وتحفز إلى مصادرة أو الحد من المصالح الاقتصادية الأجنبية . وسيؤدي الفقر وزيادة التعداد وارتفاع النسبة المئوية للشباب (وهي سمات العالم الثالث) إلى ضرورة زيادة التنمية ، وإلي مراجعة شروط الاستثمارات الأجنبية ، بل قد يؤدي إلى النمو العسكري إن رأت الدولة أن التجنيد قد يحد من مشكلة البطالة» .

وفي عدد صيف ١٩٩١ من مجلة الشئون الخارجية وهي من أهم المجلات ، نشر تقرير اعده الدكتور نيكولاس ابرستادت بتكليف من مؤتمر الجيش الأمريكي عن «التخطيط للمدى البعيد» ، جاء فيه إن ثمانية أجداد وجدات في الغرب سينجبون بعد ثلاثة أجيال ٤ ـ ٥ من الأحفاد ، بينما في أفريقيا والشرق الأوسط يكون العدد ثلاثمائة ، وحذر من أن دول الطليعة اليوم ستكون أصغر أمم العالم في المستقبل ،مما يهدد النظام السياسي العالمي ويشيل بموازين القوى .

للمشكلة إذن أبعادها السياسية والعسكرية الهامة وهي عندهم الأهم .

ومن المؤسف أن تلقى هذه الاعتبارات بظلالها حتى على المقامات الطبية . ففي مجلة «وورلد هلث فورم» التي تصدرها منظمة الصحة العالمية (عدد ١٤ ، ١٩٩٣ ، ص١٠٥) مقال بعنوان : «هل يصبح مكيافللي مرشدا للأطباء أصلح من أبو قراط؟» . وأبو قراط منذ حضارة اليونان القديمة هو أبو الأطباء . . وصاحب القسم الطبي الذي لا يزال معمولا به إلى الآن في أصقاع العالم ، والذي يفيض بالمثالية والإنسانية والشفقة على المريض والتفاني في خدمته . بينما مكيافللي هو السياسي الإيطالي الذي ألف في العصور الوسطى كتابه «الأمير» ،يشرح فيه تفاصيل البهلوانية السياسية والخداع السياسي والنفاق السياسي ، من أجل المصلحة الشخصية . كاتب هذا المقال اسمه الدكتور چين مارتين . . وفيه يستعرض بعض الآراء الطبية المعاصرة التي ترى أن بعضا من حل المشكلة السكانية قد يكون صرف النظر عن بعض برامج تطعيم الأطفال في العالم الثالث . . فإنهم إن لم يأخذوا التطعيم سيموتون في الصغر ، وإذا أخذوه

سيعيشون فيأكلون فيستهلكون الموارد فيقعون في المجاعة فيموتون . فلماذا لا يختصرون الطريق بادئ ذي بدء؟

إن كثيرا من هذه الأمور يخفى على كثير من مواطنينا الأمريكان . . ونحن نبذل الجهد الجهيد في شرحها لهم ورفع الغمامة عن أعينهم . فالموضوع في غاية الأهمية للشعب الأمريكي ومصالحه . والأوضاع لن تتغير حتى تجد من يتصدى لتغييرها .

وأمريكا لن تتغير من أعلى إلى أسفل ولكن من أسفل إلى أعلى . ولن يتوب الأخطبوط من نفسه في الغالب ما لم يجد من يأطره على الحق أطرا . والشعب في خاتمة المطاف هو الفيصل . . هو الذي يستطيع أن يقول للسياسي «فإما عدلت وإما اعتزلت» . الشعب هو صاحب الأصوات الانتخابية وهو الذي يختار السياسيين ، ويقول إما أن تتغيروا وإما أن نغيركم . إن السياسة مثل التجارة على هوى السوق وتخضع للعرض والطلب . إذا خلق الشعب سوقا للسياسة النظيفة فسيجد السياسي النظيف . لكن ذلك يعتمد على توعية الشعب وهي عملية طويلة لكنها ممكنة في مناخ الحرية المتوفر في أمريكا ، ورغم قوة الرأي الآخر وعتوه فإن توعية الشعب الأمريكي أيسر من توعية كثير من الشعوب . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

ملامح نظام إسلامي عالمي جديد

منذ عقود أخذ المفكرون المسلمون ينشرون آراءهم عن أن كلا من الشيوعية والرأسمالية ستجابه طريقا مسدودا في العاجل (كما أصاب الشيوعية) أو في الآجل (كما ينتظر الرأسمالية) . . ويستقرئون ملامح نظام كوني يقوم على ركائز الإسلام وقيمه . وليس معنى هذا بطبيعة الحال أن المسلمين يطمحون إلى حكم العالم أو يضعونه على أجندتهم ، وأنى ذلك والمسلمون لم يكادوا أن يصلوا إلى حكم أنفهسم في بلادهم بعد . وليس معناه كذلك أنهم يفعلون ذلك من باب الترف الفكري والتسلية الفلسفية . لكن المسلمين جزء من العالم الآخذ في الانكماش والاتصال ، فهم وبقية الناس ركاب سفينة واحدة إن غرقت غرقت بمن فيها وإن سلمت سلمت بمن فيها . وأصبح واضحا

لكل ذي عينين أنها جنحت إلى مسار محفوف بالصخور والأنواء من خارجها بينما الأوضاع في داخلها سمحت بإيجُاد من يفسد فيهاويثقب الثقوب .

فلا بد إذن من جديد وتجديد وليدل كل بدلوه . ووجدوا في الإسلام بضاعة تحمل الأمل ، ولا تصادر دينا ولا عقيدة ، وتعبر عن الهدي الإلهي الذي يؤمن به أتباع الديانات السماوية وكذلك أولو الفطر السوية ، فأصبح من الواجب أن تقدم للإنسانية التي تبحث عن دواء ، وسيسعد المسلمون وغيرهم إذا أخذت بها حتى لو نزعت عنها غلافها الإسلامي . وأعرض لأهم تلك القسمات والسمات فأوجزها في الآتي :

أولا : الكائن الأعلى ليس هو الإنسان . لكن الإنسان خاضع للأعلى المطلق وهو الله سبحانه وتعالى . والإنسان مستخلف في الأرض يديرها حسب مواصفات خالقها . والإنسان مخطئ إن ظن أن كمية العلم التي حصلها أو شعور الزهو الذي يتملكه يبيحان له أن يتصرف كإله . لا بد من الإيمان بالله وإلا كان من الممكن تبرير كل شيء وتحويل الشر إلى خير والخير إلى شر ، والإنسان عرضة للتقلب وفق هواه . «أرأيت من اتخذ إلهه هواه» (الفرقان ٤٣) .

ثانيا : الملك لله . والملك هنا يكون بضم الميم ويكون بكسرها كذلك . الذي خلق هو الذي ملك . ملكيتنا ملكية ثانوية هي ملكية الاستخلاف والائتمان . وتحصيل الثروة مباح بغير حدود شرط أن يتم بالوسائل المشروعة . والمحافظة على حق الملك من مقاصد الشريعة . وإذا كان لرأس المال حقوقه وضماناته فعليه كذلك واجباته ومسئولياته . والله أودع أرزاق الفقراء في أموال الأغنياء ليس فقط صدقة وتفضلا ولكن حقا معلوما . والعمل المربح حق لكل قادر . والكفالة حق لكل غير قادر ، والصالح العام يرجح الصالح الخاص إن تعارضا .

وليس من حق التقنية أن تزيح العمالة وتنشر البطالة . وأدنى العيش حد الراحة لا حد الكفاف .

والمجتمع متكافل . والمال يلد الإنتاج والإنتاج يلد المال . لكن المال مجردا لايلد المال مجردا . . فليس للربا مكان .

ثالثا : وحدة الإنسانية أسرة واحدة انبثت من جد واحد وجدة واحدة . لا يفضل جنس جنسا ولا لون لونا ولا فرد فردا ولا أمة أمة . ولا يهمل الغني الفقير ولا القوي الضعيف . ولا يظلم أحد أحدا أو يستأثر بالخير دونه . ولا يكون ذلك بالقانون وحده ولكن بالتعليم الهادف والتربية الصالحة والقدوة الحسنة .

رابعا : كبح جماح النفس فهذا فرق الإنسان من الحيوان . وإذا افتقرت إليه الإنسانية أصبحت بهيمية . والشعار السائد : «كن ما أنت» ينبغي أن يتغير إلى : «كن ما ينبغي أن تكون» . والتعليم والإعلام في الغرب الآن يقومان بإفساد عظيم ، مما أدى إلى تعاسات وأمراض وجرائم شتى . «ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله» . (القصص : ٥٠) .

خامسا : الحرب والسلام . بيّنا أن شروط الحرب في الإسلام أن تكون لدفع عدوان أو إزالة ظلم ، وأن تكون ضرورة لا يجدي سواها ، وأن تراعي أخلاقياتها بعدم العدوان على المدنيين وغير المحاربين ، وألا تخرب البيئة نباتا أو حيوانا ، وأن تحسن معاملة الأسرى ، وأن تتوقف إن سنحت فرصة السلام . ولقد كانت الحرب العالمية الأولى آخر حرب لم تستهدف المدنيين . وتطورت آلة الحرب بعدها بما لا يسمح بالإبقاء على الشروط التي ذكرناها ، مرورا بالحرب الأهلية الأسبانية والحرب العالمية الثانية وما استخدم فيها من أسلحة تقليدية وذرية ، والحرب الكورية وحرب ڤيتنام . والإجراء الواجب إذن هو الاستغناء عن الحرب أصلا كوسيلة لحل النزاعات . لا بد كما قضت الإنسانية على الجدري أن تقضي على الحرب . والمنطق الحضاري يحتم استنباط وسيلة أخرى مثل هيئة قضائية دولية مستقلة ومحايدة لا سلطان للسياسة عليها (وهذا يستبعد هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن بطبيعة الحال) . . والعمل على نزع السلاح بخطى واسعة . وإن لم تتفق الإنسانية على هذا فسيكون الثمن فادحا يدفعه الغالب والمغلوب .

سادسا : البيئة . تحيق الشدة بالفقراء وهم مضطرون لتأمين طعامهم وشراء سلاحهم وأداء ديونهم فلا يرون إلا بيع مواردهم الطبيعية وما أكثر ما قطع ولا يزال

يستأصل يوميا من أشجار الغابات لبيعها خشبا وهيهات أن تعوض شجرة إلا بعد عشرات السنين ، فضلا عن أن النباتات هي مصانع الأكسجين في أرضنا وغلافها الجوي . ويحيق البطر بالأغنياء فهم سادرون في طلب الحياة الرخية والمغالاة في الأنماط الاستهلاكية والزيادة في كفاءتهم الصناعية ، فيغتالون الموارد (وهي محدودة) من جهة ، ويسممون كوكبنا بخوالف الصناعة والنفايات النووية والمفسدات الكيميائية من جانب آخر ، وامتد التخريب إلى غلافنا الواقي المتمثل في طبقة الأوزون التي تحجب عن عالمنا الإشعاعات المهلكة ، وصدقت النبوءة بأن الإنسان يمارس الانتحار عن طريق العلم . وهذا في السلم فكيف الحال بالحرب؟

وقد رسمت الحلول ووصفت العلاجات ولكن العالم لا يتناول الدواء ، بسبب هؤلاء الطماعين الذين تهمهم العاجلة لا الآجلة . . ويهمهم الثراء اليوم وليأت الغد بما شاء على مذهب من قال «من بعدي الطوفان» . . ويسرفون في الاقتراض من المستقبل ولا عليهم إن عجزت الأجيال المقبلة عن أداء القرض ، فاليوم خمر وغدا أمر كما يقال ، وما داموا في متعة باليوم الذي هولهم فإلى الجحيم بالغد الذي هو لغيرهم .

في وجه هذا الوضع قامت حركات إصلاحية سياسية كحركة «السلام الأخضر» و«سلامة البيئة» وغيرها . وصوتها ـ ونفوذها ـ يرتفع رويدا رويدا ولكن لا يزال أصحاب المصالح هم الأقوى نفوذا ، والأعز نفرا .

ورغم أن حركات المحافظة على البيئة جديدة نسبيا ، فمن الطريف والمعجب أن نرى في الإسلام إيماءات واضحة إليها في القرآن الكريم والسنة الشريفة ، نورد طرفا منها على سبيل المثال لا الحصر .

«ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس» (الروم : ٤١) .

«ولا تعثوا في الأرض مفسدين» (البقرة : ٦٠) .

«ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين» (القصص : ٧٧) .

«وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون» (البقرة : ١١) .

«ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها» (الأعراف : ٨٥) .

« وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل» (البقرة : ٢٠٥) .

وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» (الأعراف : ٣١) .

«كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولاتسرفوا» (الأنعام : ١٤١) .

«ونبئهم أن الماء قسمة بينهم» (القمر : ٢٨) .

«واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه» (هود : ١١٦) .

«إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين» (الإسراء : ٢٧) .

والحديث الشريف يضع قاعدة عامة بقوله عليه الصلاة والسلام : «لا ضرر ولا ضرار» .

ويتناول عديدا من التوجيهات مثل : «إن الله جميل يحب الجمال نظيف يحب النظافة» ، «النظافة من الإيمان» ، «أعطوا الطريق حقه» ، «وإماطة الأذى عن الطريق صدقة» ، «نظفوا أفنيتكم» ، «اتقوا الملاعن الثلاث : التبرز في الظل وفي الموارد وفي طريق الناس» ، «ومن يتوقّ الشر يوقه» ، «طعام الواحد يكفي الاثنين وطعام الاثنين يكفي الأربعة» ، «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها فإن وقع بها وأنتم فيها فلا تخرجوا منها» ، «اقتصد (في ماء الوضوء) وإن كنت على نهر جار» ، «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم» ، «ما من مسلم يغرس غرسا أويزرع زرعافيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له بها صدقة» ، «لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون» ، «إذا جاء يوم القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن يغرسها قبل أن تقوم القيامة فليغرسها» ، «وادي وجّ (قرب الطائف) لا يقطع شجرة ولا يصاد طيره لأربعة أميال . ومن فعل عوقب ، فإن عاد حمل إلى رسوله الله يرى فيه رأيه» . .

أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وغني عن البيان أن الإسلام يهتم لنفس الدرجة أو أكثر بتلوث البيئة الأخلاقية وليس المادية فحسب . فقد أصبحت الرذيلة صناعة ضخمة تنفق على ترويجها

كلمة الناشر

وبعد

فلو أدرك المسلمون أبعاد ما يدور في العالم الآن والآفاق التي يتجه إليها لماهنأ لهم زاد ولا طاب بهم رقاد .

إن اتساع الهوة بين المتقدمين والمتخلفين اتجاه متسارع . . إنه رياضيا ضرب لا جمع . ولا يشفع أن نرى أننا نتقدم فإن الأمور نسبية . . فإذا تقدمنا ذراعا وتقدم غيرها في الوقت نفسه ميلا فمعنى ذلك أننا تأخرنا ميلا .

إن دول العالم الأول ترسم دنيا القرن الحادي والعشرين على غرار المزرعة ، هم أصحابها وأسيادها والباقون إما مواش ودواجن وإما أجراء للفلاحة والعمالة كما كان عبيد الأرض في زمن الإقطاع .

هذا هو التحدي . فهل نحن له؟

أرجو ألا يظن القارئ أنني يائس أومشيع لليأس . الأمر على العكس من ذلك تماماً .

وإذا كنت لم أقصر في النقد والانتقاد لأمور غزت حياتنا فأفسدتها علينا ، فلأنني أدرك أن العلاج محال بغير التشخيص .

إن التغني بأمجاد الماضي أقرب إلى باب الرثاء ما لم نعمل على تدارك الحاضر ونسع إلى التغني بأمجاد المستقبل .

وأول ماينبغي من أجل ذلك هو أن يتبين المسلمون الحقائق ويتعاملوا معها . لا بد أن ندرس خريطة العالم (ليس الخريطة الجغرافية) ونحدد موقعنا منها ، فلن نبلغ محطة الوصول ما لم نتحقق من محطة القيام . .

فإن بدا أن الطريق طويل وجب أن يكون هذا أبعث للهمة وأدعى إلى البدار .

وأول خطوة على الطريق هي النية : والنية محلها القلب . النية أن ندرك تقصيرنا فلا نسكت عليه ولا نكابر فيه بل نعتذر عنه ونستغفر الله عليه .

والنية على أن نغير ما بأنفسنا فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

والنية أن نعود إلى الله عودا حقا حميدا هو أعمق وأبعد من الحماس والصياح والمظاهر والأشكال والتقاتل والتخامش . بل هو إيثار أمر الله على هوى النفس حتى لو تشبه هوى النفس بأنه جهاد في سبيل الله .

وإياكم أيها المسلمون أن تروا قوة عدوكم فتحسوا بالوهن في أنفسكم . . فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . . شرط أن تكونوا المؤمنين !

إن حضارتهم المادية الضخمة ليست معجزة من المعجزات ولكنها خامات وعقول وأموال وعندكم من ذلك الكثير فبقي التشغيل .

إن شعوبا فقيرة وضعيفة نهضت فأصبحت تسمى النمور الاقتصادية . .

ومن بينها مسلمون مثل ماليزيا التي أصبحت تصدر الزهور لهولندا ورقائق الكمبيوتر لأمريكا . حرس الله ماليزيا ووقاها من كل سوء .

ولأن حضارتهم مادية محضة سلخت نفسها من نفخة الله في الإنسان التي اسمها الروح ، فهي مثل عمارة بناها صاحبها على غير أساس . . ثم راح يعلو بها أدواراً فوق أدوار فكلما ارتفعت باتت إلى الانهيار أقرب ، ومن بينهم من بدأ يدق ناقوس الخطر من الآن .

ونحن المسلمين غير معفيين من إقامة حضارة المادة والأخذ بأسباب العمران وارتياد آفاق العلم ، لكن الإسلام يهيىء لنا الأساس الذي لا يبنى عمران إلا عليه ولا تنهض حضارة إلا به .

ولأن الله لم يرسل محمدا صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين ، وائتمننا من بعده على خزائن تلك الرحمة ، فقد وجب علينا أن نسوس أمرنا بها ثم نقدمها باسم الله إلى العالمين ، وأبلغ التقديم هو القدوة الصادقة .

وسيكون ذلك وسيأتي إن شاء الله . لكن الله سبحانه وتعالى هو الصبور وليس

في عجلة من الأمر . . ولعله من فضله وكرمه يمد لنا الفرصة لنغنم شيئا من الأجر على الإسهام في ذلك ، فإن تقاعسنا فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، وإن أنجزنا فنحن منهم إن شاء الله .

وإلى الله عاقبة الأمور

والحمد لله رب العالمين .

كلمة الناشر

لماذا ننشر هذا الكتاب؟

المؤلف: فكره ومنهجه

خطاب إلى العقل العربي المسلم

غنيمة فهد المرزوق

الإنسان موقف . . والموقف يستند إلى فكر . . والفكر يرتبط بمنهج .

والأستاذ الدكتور حسان حتحوت رجل له موقف وفكر ومنهج . . وله رسالة . . وجد نفسه مكلفاً بها . . فنذر نفسه للقيام بها ، فلم يتوقف لحظة واحدة عن واجب أداء هذه الرسالة .

من باكورة حياته استمع إلى نداء عقله وواجبه الوطني فقرر أن يؤجل الاستماع إلى نداء قلبه وعاطفته .

سارع في بداية شبابه وبعد فترة وجيزة من تخرجه من كلية الطب إلى ميدان القتال ، يعالج المصابين ويهتم بالمرضى منهم .

فضل ميدان الجهاد ضد الأعداء . . وأجل تنفيذ قرار أملته عليه عواطفه بالزواج من شريكة حياته التي فهمت رسالته وأهدافها . . وشجعته على المضي فيها ، وبقيت إلى جواره وهي زميلة دراسته ، تشد أزره وتهيىء له فرص النجاح لأداء مهمته حتى الآن .

* * *

اختار دكتورنا العمل في ميدان من أشرف وأنبل الأعمال ، وهو ميدان العمل الطبي .

ويقول الدكتور حسان : أحمد الله انني اخترت مهنة الطب وهي مهنة لا يندم

عليهـا من اختـارها فـفـيهـا يسـمو الطبـيب بالواجب من مرتبـة العدل إلى مـرتبـة الرحـمة . فـالطبيب يأتيـه الصـديق والعدو ، البـعيد والقـريب ، يأتيه الجـريح من جنود الوطن ، أو من جنود الأعداء .

فـلا يجـد اي منهم عند الطبـيب غيـر العـلاج والمواسـاة ، وهنا أصبـح العـدل من سقطات الطبيب . . وأصبح يتعـامل بالرحـمة ، ورحـمة الله فوق عدل الله ، ورحـمة الله فـوق غـضب الله . وأن يكون الإنسـان وسيلة من وسـائل رحـمـة الله بـعـبـاده . . فأحسب أن ذلك مكافأة للإنسان . . لا يغني عنه كسب ولا مال .

* * *

نعـود إلى رسـالة الرجل الذي وهب نفسه لأدائهـا . . رسـالة الدعـوة إلى دين الله سبـحـانه وتعـالى . لـقـد جـر عليه نهـوضـه بهـذه الرسـالة ويلات وويـلات . . لكنه لم يضـعـف ولـم يهن ، إنما زاد صلابـة وقـوة أكثر ، وإيمانا وإصـراراً على المضي فيهـا ، وهنا كان قـرار الرجل بترك مـوضعـه الطبي المتميز في الكويت . . والانتقـال إلى مـوقع آخر . . أحس أن هذا المـوقع بحـاجـة إليـه أكـثـر ، وكـان هـذا الموقع هو الولايات المتحـدة الأمريكيـة ، وكـان خلف انتقـاله إلى الموقع الجديد ، فلسفـة تحكم الرجل في الدعوة إلى دين الله ، وفق منهج تربى ونما من خلال تجربته العميقة والمتميزة في الدعوة .

معظم الوسـائل التي يراها الآن وسائل لا تؤدي دورها ، ولا تحدث أثرها . . ففي اعـتقـاده أن الحرية هي البـداية . . لأن أخطر التهم الـتي وجههـا الملحدون والعلمانيـون إلى التـديـن والمتـدينين هي تهـمـة العـداء للحـرية . ولكنه يؤكـد أن هذا الاتـهـام باطل . ويقول : لننظر إلى أنفسنا ولنسأل : لماذا خلق الله الإنسان؟ لماذا كـرم الله الإنسان؟ لماذا سخر الله لـلإنسان مافي السموات ومـا في الأرض؟ لماذا كرمه بحمل الأمـانة؟ ستكون الإجابة : ربنا خلق الإنسـان وخلق منه صـفـة لازمـة ضرورية قـال له : يا إنسـان تصـرف وسوف أحاسبك . عليك بالعمل لكنني سوف أحاسبك . ونحن لا نتخيل حساباً من غير حرية اختيار ، وحرية عمل ، وحرية اختيار القرار .

فالإنسان بلا حرية سوف يجعل الحساب غير قائم . . الإنسان يختار والله تعالى يساعده في الاختيار ، هذا طريق الهدى ، وذاك طريق الضلال .

التدين لابد أن يبدأ من هذه الحقيقة . . ويعتمد على هذا المنطق . . الإنسان في الأصل حر . . في المجتمع الإسلامي نقول لدينا شريعة وفي المجتمعات غير الإسلامية يقولون : لدينا قانون .

قد يلتزم الإنسان بالقانون . . لكنه يقع في المعصية وفي الإثم ، ولن ينجو من حساب الله .

كثير من الدعاة ليس لهم إدراك بأن الأصل في الإنسان هو الحرية . . الداعية عندما يقوم بدور الدكتاتور . . إذا لم يكن بيده فبلسانه . . الطالب الذي يكفر والده أو أستاذه أو يلغي حفلة باستخدام الجنازير لم ينتبه لأصل الدين .

الدين قائم على خالق ومخلوق قادر على الاختيار . . وسيحاسب لأنه اختار بحريته .

ليس من حق الداعية أن يذهب إلى من أخطأ ليضربه ، واجبه أن يدعوه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ان ذلك يجب أن يكون منهج الدعوة ، والله سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ : «فذكر إنما أنت مذكر . . لست عليهم بمسيطر » ، «لا إكراه في الدين» .

الحرية هي مشيئة الله في خلقه . . إذن لابد من احترام حرية الإنسان . . الضمير هو الذي يصلح الإنسان . . وليس الضرب أو الإرهاب ، والداعية يخاطب ضمائر الناس . دوره أن يلتمس مفاتيح النفوس ، كل نفس لها مفتاح . . وواجب الداعية أن يترفق في دعوته ، وأن يعرف أن رأس ماله هو محبة الناس ، وإذا أحب الناس إنسانا استمعوا إليه ، وأحبوا ما يدعو اليه .

ويقول الدكتور حسان : «الإسلام في منتهى العظمة . . والمسلمون في منتهى الكساح . . ولو وجدت الدنيا مسلماً على مستوى الإسلام لأسلمت الدنيا ، الإسلام

لا شرق أوسطية ، ولا أمة عربية . . الإسلام هو رحمة للعالمين .

مسؤوليتنا أن نغير العالم من خلال نظرة العالم لنا كمسلمين . وأنا أدعو الذين يتصدون للدعوة أن يلتزموا بمنطق القرآن الكريم ، والذي يرى أنه غير قادر على أن يكون محبوبا . . لا ضرورة لأن يدعو الناس وأن يكف شره عن الإسلام» .

* * *

وانتقل الداعية الأستاذ الدكتور حسان حتحوت إلى موقعه الجديد . . مارس دعوته إلى الإسلام بحب وإيمان .

وأثر منهج الدكتور حسان في العديد من الذين استمعوا إليه ، من خلال البرامج التلفزيونية التي يعدها ويقدمها ، أو من خلال محاضراته وندواته التي يعقدها

وأصدر كتابه الذي اختار له عنوانا «قراءة في العقل المسلم» . . كتبه باللغة الإنجليزية للقارئ الغربي شارحا فيه حقائق الدين الحنيف عارضا لقيمه ومبادئه ، وأحدث الكتاب الصدى المطلوب . . أقبل على قراءته الكثير من الأمريكيين وأذهلتهم حقيقة الإسلام ومدى تقدمه وتحضر منهجه في تنظيم المجتمع . وعلاقة الإنسان بربه ، وبأخيه الإنسان .

وصدرت منه طبعة ثانية وثالثة . . وستتم ترجمة الكتاب إلى اللغة الفرنسية قريبا إن شاء الله ، وخلال لقاء مع الداعية الأستاذ الدكتور حسان حتحوت قلنا له :

ما أحوج القارئ العربي المسلم إلى كتاب يطرح عليه حقيقة الدين الحنيف بنفس المنهج الذي اعتمد عليه كتاب «قراءة في العقل المسلم» .

وكانت استجابة الدكتور حسان لدعوتنا مشجعة ، وبدأ في إعداد الكتاب المطلوب ، وهو الكتاب الذي بين أيديكم الآن .

هدفنا من نشر الكتاب الذي نطبعه لوجه الله أن نقدم فكراً لرجل وهب حياته للدفاع عن الإسلام . . ودفاعه يمضي في خطين متوازيين . الخط الأول : وهو الذي

يجسده كتابه «قراءة في العقل المسلم» ، أي الخطاب الموجه إلى القارئ الغربي .

الخط الثاني : وهو الذي يجسده كتابه «بهذا ألقى الله» الذي يسعدنا أن نقدمه للقارئ العربي المسلم .

وكانت المبادرة الثانية من الدكتور حسان حتحوت وضع دخل الكتاب من التوزيع تحت تصرف المركز الإسلامي في لوس أنجليس في جنوب كالفورنيا ، لحساب وقف التعليم الإسلامي لإقامة مدارس نموذجية إسلامية لأبناء المسلمين في الولايات المتحدة ، إيمانا منه بأن رسالة تعليم هؤلاء الأبناء بهذه المدارس لا تقل أهمية عن الرسالة التي يؤديها المسجد في تعليم الأبناء قيم ومفاهيم دينهم الحنيف . على أن يستقبل الحساب إلى جانب دخل التوزيع . . تبرعات أهل الخير لوقفها على إنشاء مدارس للأبناء الذين يعيشون في الولايات المتحدة الأمريكية .

* * *

والذي نأمله ونرجوه أن يكون نشرنا للكتاب الذي بين يدي القارئ علامة ضوء على الطريق تنيره أمام أهل الإسلام وان تعم فائدته التي قصدنا تحقيقها خدمة للإسلام . . وهداية لأهله .

غنيمة فهد المرزوق

رقم الحساب وعنوان البنك :

Waqf Endowment Fund / Education Fund

Cedars Bank

444 South Flower Street

14 th. Floor

Los Angeles, California 90071, USA

Account No. 1010620866

ABA No.: 122041523

تم طبع الكتاب على نفقة مؤسسة فهد المرزوق الصحفية للطباعة والنشر
ويوقف ريع الكتاب على إنشاء مدارس لتعليم أبناء المسلمين
بالولايات المتحدة الأمريكية

الناشر

Fahad Al Marzouk
Printing & Publishing
Establishment



مؤسسة
فهد المرزوق الصحفية
للطباعة والنشر

ص .ب : ٢٩٩٥ ـ الصفاة 13030 كويت
هاتف: ٤٨٣٨٩٣٤ ـ ٤٨٣٨٩٣٦ ـ ٤٨٣٦١٤٣ ـ ٤٨٣٦١٤٤ ـ ٤٨٣٦١٤٥ ـ فاكس: ٤٨١٦٩٢٨
P.O. Box: 2995, Safat 13030, Kuwait
Telephone : 4838934 - 4838936 - 4836143 - 4836144 - 4836145-Fax : 4816928
AL-SHUWAIKH, AL-GHAZALI St. الشويخ ـ شارع الغزالي

رقم الإيداع	١٩٩٨/٣٢٢٧	
الترقيم الدولى	977-02-5556-4	ISBN

٢/٩٨/١١١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)